مغلقة
بسبب الإصلاحات

منذر مصري

مغلقة
بسبب الإصلاحات

سلسلة شهادات سورية -24- مغلقة بسبب الإصلاحات
منذر مصري

الإخراج الفني: فايز علام
صورة الغلاف: منذر مصري
تصميم الغلاف: فادي العساف

الطبعة الأولى 2017

تمت طباعة هذا الكتاب بمساعدة من جمعية
«مبادرة من أجل سورية جديدة» - باريس

جميع الحقوق محفوظة للناشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأية طريقة سواء أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر.

الناشر:
بيت المواطن للنشر والتوزيع
دمشق الجمهورية العربية السورية
هاتف: 78840213 961+
بريد إلكتروني:
baitelmouwaten@gmail.com

التوزيع:
أطلس للنشر والترجمة والإنتاج الثقافي
شارع الحمرا بناء رسامني
ص.ب: 6435 / 113 بيروت لبنان
هاتف: 750054 1 961 +
فاكس: 750053 1 961 +
بريد إلكتروني:
atlasbooks@gmail.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن آراء الناشر.

كيف تعيش وكأنك «سوريا» كلُّها؟

ماهر أبو ميالة

لطالما كان التصوير في الأماكن العامة بسوريا أمراً محظوراً ومحفوفاً بالمخاطر، إلّا أنه منذ بداية عام 2011، باتت الكاميرا سلاحاً ممنوعاً، والمصوّر يُقبض عليه متلبّساً بالجرم المقصود. إلّا أن «منذر مصري»، لا كسياسي، ولا كمحارب، ولا كنازح، ولا كمعتقل.. بل كمواطن سوريّ عاديّ، ما زال يحيا في بلده ومدينته وبيته، استطاع، على مدى الخمس سنوات الماضية، بما يكتبه من متابعات ومقالات، وأيضاً بما يخطّه من قصائد ورسوم، القيام بما يمكن اعتباره توثيقاً نادراً، يتجاوز برأيي قدرة الكاميرا نفسها على تصويره ونقله، معبّراً عن أحاسيس الناس وأفكارهم، وروح الأحداث والمتغيّرات، من داخل الناس، من داخل الأحداث نفسها، ومن داخل سوريا، مع ما تحمله هذه الكتابة من مخاطر على كاتبها، الرافض لمغادرة أخطر وطن في العالم اليوم.

منذ أول أيام المظاهرات، بهتافاتها وأهازيجها، إلى المجابهات بالسلاح والرصاص الحي، إلى الكتابات على الجدران، إلى المداهمات والحواجز، إلى أوراق نعيات الشهداء، إلى أحوال الناس المعيشية والرواتب، إلى انتخابات مجلس الشعب، إلى هجرة الأصدقاء

مع عائلاتهم، إلى خلوّ مقاهي اللاذقية وشوارعها من الشباب، إلى مفاوضات جنيف وورقة ديمستورا، إلى إسقاط الطائرة الروسية، ثم إعادة الدبابة الإسرائيلية، إلى ليلة الانقلاب التركي، إلى عمليات خطف المواطنين وتعرّضه لواحدة منها، إلى صيحته الملعونة: «ليتها لم تكن!»، وما تبعها من محاولاته تقديمَ الإجابة عن سؤال الأسئلة: «من أين يأتي المستقبل إلى سوريا؟»، التي يمكن اعتبارها واحدة من أبكر المراجعات الوجدانية والأخلاقية، وأصدقها، للمأساة السورية، التي اختار منذر، بحسِّه الشاعريّ، أن يطلق عليها: «القيامة السورية»، يقدّم الشاعر منذر مصري، أحد القلّة النادرة من المثقفين المستقلين الذين لم يغادروا سوريا، شهادتَه الحيّة.

وفي الوقت الذي طغت فيه أحكام النفي والإعدام، لمجرّد إبداء الرأي حول أي حدث، أو قضية راهنة، ليس فقط لدى العامة من السوريين، وإنما أيضاً، وعلى نحو أشدّ، لدى النخب الثقافية السورية، كتب لنا منذر عمّا هو جميل عند الناس، بما هو واعد من أفكار وآراء، قابلاً بمن اختلفوا معه، وواجداً الأعذار حتى لمن هاجموه وحاولوا النيل منه ومن موقفه، مضيئاً مكامن الحياة والحب والإنسانية في مواجهة العداء والكراهية والوحشية، رافضاً كل الثنائيات المُهلِكة التي تفرّق بين السوريين، ما بين موالين ومعارضين، باقين ومغادرين، متديّنين وعلمانيين... حريصاً طوال الوقت على التمسّك، مهما بدا واهياً، بخيط الأمل المضيء، مردّداً في كل مرة: «السوريون جميعهم يحيَون بانتظار الفجر».

في حارات اللاذقية وشوارعها، وفي داخل غرفها المغلقة، حيث تجري النقاشات الساخنة، الأشبه بالمعارك، التي لا يسمع عنها أحد، ولا يسمع أحد فيها إلى أحد، وبين ناسها وعابريها وغربائها، وبين

معالمها ومتغيّراتها، ذكرياتها وخرابها، بمَن بقوا فيها ومن غادروها، وأيضاً مَن نزحوا إليها، وبمَن آمنوا بصرخة الحرية ومن خافوا منها... كان منذر، وما زال، يعيش سوريا كلها.

اللاذقية 20/ 1/ 2017

هذا الجحيم... وحده وطني

إحدى الأفكار القليلة التي لا يُختلَف عليها، رغم غرابتها، في مختلف أنواع جلساتنا، نحن بقايا السوريين، في المناطق التي ما زالت تسمح بجلسات كهذه في سوريا، هي؛ أن هناك خطة جهنّمية مدبّرة لتفريغ سوريا. والكلام هنا ليس عن ملايين النازحين في مخيمات الدول المجاورة: تركيا، لبنان، العراق، الأردن، ومصر. مع أنه التفريغ بالحمولات القصوى، بالتأكيد، بل عن مئات الألوف من المهندسين، الأطباء، حملة الشهادات الجامعية من الاختصاصات كافةً، والشهادات العليا في العلوم، الأدباء، الشعراء، الرسامين، المصورين، الموسيقيين، الممثلين، المخرجين السينمائيين، أصحاب الحرف، الذين ولدتهم سوريا ليصنعوا، لا بل ليكونوا هم أنفسهم، مستقبلها على الأصعدة كافة.

قلت: «لا يُختلَف عليها»، بمعنى أن الجميع يُقِرّ بها، ولكن في الحقيقة، تختلف تفسيراتها إلى حدود التناقض، فأغلب المعارضين، يرون أنها خطة مدبّرة من النظام نفسه، الذي يعتبر كل مَن يخالفه عدواً وخائناً، وإن لم يكن إرهابياً فهو داعم للإرهاب بطريقة أو بأخرى. النظام الذي أوضح مراراً عدم قبوله بالرماديين، أي أن على كل مواطن سوري إما أن يكون معه، ويصطف بجانبه، أو أنّ عليه، إذا لم يكن من أولئك

الذين يستطيعون حمل السلاح، أو كان ممّن لا يرغبون بحمله، أن يخرج من سوريا، بلده، فهي ما عادت بلده. بل ربما يذهب بعضهم إلى أفكار أشدّ تطرّفاً من ذلك، واعتبار كل ما يحدث، إضافة إلى حملات التشييع الجارية منذ سنين عديدة، والتي تدعّمت، حسب مصادرهم، بتوطين آلاف الإيرانيين والعراقيين في حمص، وفي حي السيدة زينب في دمشق، مخططاً سورياً إيرانياً لتغيير الطبيعة الديموغرافية للشعب السوري. وذلك لضمان بقاء النظام الطائفي، بعرفهم، أو مستخدِماً ومستغِلاً للحالة الطائفية، واستمرار سيطرة المحور الشيعي على ذلك القوس الممتد من طهران مروراً ببغداد ودمشق إلى بيروت. في ما يرى الموالون أن المخطط هو من قبل دول إقليمية، كالسعودية وقطر وباقي دول الخليج، ومعهم تركيا كدولة يحكمها تيار ديني له أطماع تاريخية، ترى في سوريا، نظاماً وشعباً، بسبب ذلك الاختيار الاستراتيجي ذاته الذي اختاره النظام السوري كوسيلة بقاء وممانعة، ما يهدّد بقاء واستمرار أنظمتها المذهبية والأسروية والقبائلية ما قبل سياسية ودستورية، المرتبطة بالمصالح الأمريكية الغربية، المعروفة نواياها، القديمة والحديثة، تجاه المنطقة. تلك النوايا التي لم يُخفِها الغرب في أي مناسبة أو مفصل تاريخي، منذ نهاية الثورة العربية الكبرى، ونكوص بريطانيا عن كل وعودها، حتى نهاية حقبة الاستعمار، والخروج من المنطقة بعد تجزئتها إلى دول صورية، تفتقد كل منها إلى أغلب مكونات الدولة الطبيعية، إلى المزيد من التقسيم والمزيد من الحروب المذهبية بين شعوبها، والمزيد من التخلف والفقر، وبالتالي المزيد من السيطرة والنهب، مستشهدين بمخططات وخرائط تضمنتها تقارير مراكز الدراسات، ومنها التابعة للبنتاغون، تُظهر الوطن العربي مجزّأً إلى ما يزيد عن مئة دولة.

نعم، ما ذكرت آنفاً ليس أكثر من عرض لحالة سوريا عامة. ولكني أعترف أنها بالنسبة لي تشكّل، لا أكثر ولا أقل، نكبة شخصية. حاولت يوماً كتابتها في مقال بعنوان «سوريا ليست بحاجة إلى عازفي بيانو»، يقوم على فكرة بسيطة وهي جرد أسماء أصدقائي على أنواعهم الذين ما عادوا يجيبون على اتصالاتي الهاتفية، بسبب سفرهم. لكن القائمة طالت، والمقال استفاض، لدرجة أني خشيت أن يكون، من حيث أرغب أو لا أرغب، أشبه بتقرير أمني عنهم، وعن الأماكن التي صاروا فيها. نعم، كثيرون ممن كانوا يشكلون معنى حياتي، وكثيرون ممن كانوا يشكلون معنى المكان، سافروا. أصدقاء حميمون، رفاق يوميون، كانوا بالنسبة لي أشبه بالهواء والماء والقصائد. آثروا أن يحملوا ما يستطيعون من حياتهم، ما تستطيع أن تحمله ظهورهم وقلوبهم، وغادروا. غادروا ليس بخيارهم أبداً، غادروا ضائعين، خائفين، ممزَّقين، غادروا حاملين معهم آمالهم بحياة أفضل، ولكن كأنهم، بهذا، يأخذون معهم آمالنا جميعاً.

أعلم أعلم، وأوافق، أنه من حقّ كل إنسان، فما بالك بالمواطن السوري اليوم، أن يغادر ويبحث عن الأمان والمستقبل له ولعائلته وأبنائه في أي بلد في العالم، ولكن، ارحميني يا «سحر عبد الله»، ويا «سهيلة لاذقاني»، ارحمني يا «ماهر أبو ميالة» ويا «مصطفى عنتابلي»، أرجوكم لا تفرحوا كثيراً بخروج من تحبّونهم من الجحيم السوري... فهذا الجحيم هو وحده... وطني.

اللاذقية 3/ 2/ 2015

الكنيسة المعلّقة قبل إصابتها بصاروخ

خبر عاجل تتناقله المحطات التلفزيونية، ها هو ذا يمرّ أمامي أسفل الشاشة: «سقوط قذيفة صاروخية فوق قوس النصر الأثري في مدينة اللاذقية تحيله إلى ركام»! لا، لا تصدقوا! الخبر مجرد تخيّل، «يا شرّ روح لبعيد!»، الجملة التي ينهر بها أهل اللاذقية الكوابيس المخيفة التي باتت تتراءى لهم في نومهم وفي يقظتهم على السواء. كما أن الصورايخ القليلة التي أُطلقت على المدينة، لا أحد يدري من أين، ولا لماذا، قد اكتفت بالوقوع عند طرف ساحة الشيخ ضاهر التي يتوسطها التمثال، وشارع السرايا الفرنسية القديمة التي صارت مقرّاً لقيادة الشرطة، فقتلت وجرحت عدداً، لا على التعيين، من عابري المكان تلك اللحظة، ثم بتنا نسمع أصواتها العميقة وهي تقع على أطراف المدينة والقرى المحيطة، وتهدم ما تهدم وتقتل من تقتل. ولليوم، وأدعو الله أبداً، لم يحدث في اللاذقية ما يستدعي سقوط البراميل المتفجرة وغيرها.

ونحن، ندخل اللاذقية، مساء، عائدين من رحلة قصيرة، فإذ بي أقول بصوت مرتفع تقصّدت به أن يسمعني من كانوا بصحبتي: «الله يحميكي يا لادقية!»، فإذ بأحدهم ينهرني: «الله لا يحميها ولا يبقي

فيها حجر فوق حجر. ليست أفضل ولا أغلى من حمص وحلب!»... «نعم، ليست أفضل، ولكنها بالنسبة لي، أنا ابنها، بالتأكيد أغلى». لم أجب.

نعم، في حمص وحلب ومدن سورية أخرى، كنائس ومساجد وقلاع وأوابد أثرية تهدمت وتحولت إلى أكوام من الحجارة، فكيف إذاً سينجو قوس نصر اللاذقية المتهالك أصلاً من مصير كهذا؟ يقول سائق سيارة الأجرة: «حسناً، ضع نفسك مكانهم. إذا تحصّن به مجموعة من الإرهابيين، وراحوا يطلقون النار على الناس، وليس هناك طريقة لمنعهم، سوى البراميل. ماذا تفعل؟». لا جديد في هذا الكلام. في الثمانينيات، عندما هبّ شباب الصليبة، كما فعلوا أيام الاحتلال الفرنسي، وكتب عنهم وقرظهم حنا مينة في أول رواياته «المصابيح الزرق»، وأعلنوا العصيان على الدولة، كان الحي بأكمله مهدداً بالاقتحام بالدبابات وتحويل بيوته الحجرية القديمة إلى تراب، الأمر الذي، والحمد لله، جرى تجنّبه آنذاك، وقامت البلدية في آخر المطاف بإعادة تنظيمه عمرانياً، بهدم أسواره وقناطره، ثم اختراقه، من الجنوب إلى الشمال ومن الغرب إلى الشرق، بشارعين عريضين تحفّ بهما على جوانبهما الأبنية الحديثة، التي وزِّعت في البدء على مجموعة متنوعة من الناس، سرعان ما آثروا تركها وبيعها لسكان الحي الأصليين، إلّا أن الشارع الرئيسي أطلق عليه اسم: «شارع الإسكان»، أي اسم المؤسسة الحكومية التي قامت ببنائه.

وكأنه، لا قيمة للأسماء، عند أهل الصليبة، أو ربما هناك تفسير آخر أفضل، وهو أنهم متسامحون كفاية ليسمّوا الشارع بهذا الاسم، هم الذين أبقوا اسم حيّهم بالكامل «الصليبة» رغم تسميته رسمياً: «الأشرفية». كما أنهم يطلقون على أنفسهم ألقاباً مثل: «جوني» تبعاً

لجدٍّ لهم اسمه «جون»، و«منجفيكا»: آكلو التين، بالفرنسية، دون أن يجدوا ضرورة لتبديلها. وكذلك الحال بالنسبة للحي المجاور للصليبة، الذي يطلقون عليه اسم «حي الشحادين»، بتفسير معاكس لما قد يخيّل للمرء من أن سكانه شحاذون، بل لكونه الحي الذي يؤمّه الشحاذون ويطرقون أبواب بيوت أهله الكرماء.

كما مازالوا يطلقون اسم «الكنيسة المعلّقة» على هذا المَعْلم الأثري الذي يقف على رأس حيّهم، أشبه بتاج حجري كبير. لكنها كانت كنيسة بالفعل. ليس أول ما بني القوس كبوابة جنوبية للمدينة احتفاء بانتصار القائد الروماني «سبتيوس سفيروس» الذي انحاز له أهل اللاذقية في نزاعه مع «سينيوس نيجر» على عرش روما عام 194 ميلادية، بل بعد ذلك بألف عام تقريباً، أيام الصليبيين، الذين أقاموا بيوتهم حوله وبنوا مركز قيادتهم بالقرب منه، ذلك البناء الواسع الذي يطلق عليه الآن جامع المشاطئ، فسمّي الحي «الصليبة»، تيمّناً بهم. أمّا صفة «معلّقة»، فربما لعلوّ قبته ما يزيد عن 16 متراً، ولم أستطع إيجاد أي تفسير آخر. ثم خلال الحقبة العثمانية الطويلة، أعيد القوس ليكون جامعاً كما كان قبل ذلك بتسعة قرون، عند فتحها دون قتال من قبل المسلمين بقيادة عبادة ابن الصامت ودخوله من بوابته، وإطلاق أول أذان من فوق قبته بالذات عام 637 ميلادية، إلى أن جاءت فرنسا وأعادته إلى حلّته الأصلية، كأثر تاريخي بات الرمز الأول لمدينة اللاذقية.

هناك معلومات كافية عن قوس النصر الكبير في اللاذقية: في الكتب، كما على شبكة الإنترنت، ولكن أن تقرأ عنه شيء، وأن تذهب وتقف تحت قبته وتلمس حجارته وتنظر إلى التروس والخوذات والسيوف المحفورة عالياً على عوارضه شيء آخر. وبسبب عملي دليلاً للمجموعات السياحية التي كانت تأتي من الاتحاد السوفييتي

وتزور سوريا في الثمانينيات، فقد فعلت ذلك مراراً. ولكني، بمناسبة ما أكتبه الآن، ذهبت من جديد، وقد راعني، وكأني أول مرة أراه، علوّ قبّته وعمقها ودقة ترتيب حجارتها من الداخل، وضخامة أعمدته الدائرية الأربعة المكللة بتيجان كبيرة، والمدعمة بأربع زوايا حجرية عملاقة، ما يجعل محيط كل قائم من قوائمه الأربعة 14 متراً. أنا نفسي لم أصدق حتى قسته بخطواتي التي بلغت العشرين. لا، لا أظن قذيفة صاروخية واحدة، من هاونٍ أو ما شابه، قادرة على هدمه. لذا أشكر الله، وأشكر «سفيروس» على هذا.

ترى، كم من القادة، كم من الأبطال المظفرين، كم من شذّاذ الآفاق، كم من الناس العاديين، عبروا من تحت أقواسه ومن بين جدرانه، وكم من الأحداث والمصائر التي شهدت عليها أعمدته الأربعة الثخينة!

يؤكد اللوادقة أن مدينتهم هي ثانية المدن السورية التي قامت فيها المظاهرات الشعبية بعد درعا. فمن بوابة الصليبة بالذات خرج الشباب بالآلاف يصيحون، ولا أحد يعلم من أين جاءهم هذا التعاطف، وهذه الوطنية: «بالروح بالدم نفديكي يا درعا» و«سوريا، منحبك». وعند مدخل الحي، في المساحة التي يصنعها تقاطع شارع «شكري القوتلي» مع شارع «أبي العلاء المعري» الذي ينتهي شرقاً بقوس النصر، أقام اللوادقة من مختلف أنحاء المدينة، ليس من الصليبة ومشروع الصليبة فقط، بل من الأطراف والقرى المحيطة أيضاً، وهذا ليس ادّعاءً، بل حقيقة يشهد عليها الكثيرون، كما يشهدون أنها لم تطل زمناً كافياً لتصير ظاهرة جامعة، ذلك أن أهل الصليبة، أناس متشككون، يرتابون بمن لا يعرفونه، فيسألونه عن اسمه وحارته، وما إن يعرفوا بأنه من غير أهل البلد، أو من حارة بعيدة، أو من طائفة أخرى، حتى يقولوا له: «يا أخي، مرحبا، إذا بدّك تطلع بمظاهرة، اطلع بها من حارتك، أو ضيعتك، أو

مدينتك!». وبسطوا الحصر وأقاموا المنصّات، وفي أذهانهم الصورة الزاهية لميدان التحرير في القاهرة. غير أن المعتصمين، بسبب ما ذكرت عن عصبية أهل الصليبة بالذات، سرعان ما نقلوا حصرهم وخيمهم إلى مكان يبعد عشرات الأمتار، وهو ساحة التمرات، بالقرب من تقاطع آخر لشارع القوتلي مع شارع «بور سعيد»، انتبهوا للاسم، الهابط من الطابيات حتى بوابة المرفأ، حيث انضم إليهم نساء وأطفال، وراحوا يغنون ويدبكون ويطلقون الهتافات التي ارتفع سقفها لأول مرة (رغم تحذيرات العقلاء، ولكن هيهات) إلى إسقاط النظام. وعندما جاءت سيارة الإطفاء وربضت عند رأس الشارع، استقبلها الشباب بالتهليل والضحك، آملين أن تقذفهم بمياهها، كما في الأخبار المصورة، إلى أن انقضّ عليهم رجال الأمن بالهراوات، تبعها الرصاص الحي في الساعة الواحدة ليلاً، فقامت سيارة الإطفاء بما يبدو أنها قد أُحضرت لأجله، وفتحت فوهات خراطيم مياهها القوية لتنظيف الشارع من الدماء قبل أن تجفّ.

لا، ليس جهلاً، ولا عدم مبالاة، سمّى أهل اللاذقية قوس النصر هذا: «الكنيسة المعلّقة»، فهي وهم، والمدينة كلها كانت منذ زمن ومازالت معلقة على... أمل.

اللاذقية 8/ 2/ 2015

تعالوا نضحك على الشعب السوري!

لطالما اعتبرت تقديم محمد الماغوط لمجموعة زكريا تامر: «النمور في اليوم العاشر» أجمل نصوصه على الإطلاق، خاصة وهو يقول بلسان بحّاثة في علم بقاء الأنواع: «سندرس كيف يتطور المخلوق البشري في هذه المنطقة من إنسانٍ إلى قرد، وأهله وحكامُه يتفرجون عليه من النافذة وهم يضحكون».

لا أظن أن هناك سورياً لا يعلم عما يتحدث الماغوط. وكيف كانوا يسوقون الشعب السوري إلى الشوارع والساحات ومضارب الخيم، ويقوّمونه ويقعدونه وينطنطونه ويرقّصونه، كالقرود. إلّا أني مع إعجابي الزائد بالنص، لم يفتني الانتباه لصيغة التعميم: «هذه المنطقة». وكأنه يخاف من التحديد، يخاف أن يقول في «سوريا». وهذا أمر درجنا عليه نحن الكتّاب السوريين كلما أردنا أن نقول، عن بلدنا، شيئاً قد نحاسَب عليه ونسأل عنه.

يقول الماغوط، الذي سمعت يوماً الشاعر اللبناني «عباس بيضون» يصفه بالوحش، للمخرجة السورية «هالا محمد» في فيلمها: «إذا تعب قاسيون»، إنه عاش مذعوراً طيلة حياته، وإن لديه من الخوف ما يزيد عن احتياطي النفط الخليجي. ولكن ما لم أقبله هو قوله: «وأهله

وحكامُه يتفرجون عليه من النافذة وهم يضحكون». ذلك أنني رأيت أهله يبتسمون ابتسامة مائلة، ولكنهم ما كانوا يضحكون أبداً، بل ربما كانوا يبكون.

نعم، ضحكوا على الشعب السوري، طويلاً. فالعثمانيون حكموه أربعة قرون، بالتجهيل والتجويع والموت، بخدعة أنهم مسلمون مثله. ثم لما جاء الفرنسيون، قسّموه وجزؤوه جغرافياً ومذهبياً، بذريعة تطويره وتحديثه. وعندما قام بثورته ضد الاستعمار، ليحيا في سوريا حرة، ديمقراطية، مدنية، لم يستغرق الأمر أكثر من ثلاث سنوات حتى راح أبناؤه العسكر، يقومون بالانقلاب تلو الانقلاب، عائدين بسوريا في كل انقلاب مظفر، إلى نقطة الصفر. والمؤسف كثيراً، أن النخبة السياسية الوطنية، كانت تقبل بهذه الانقلابات رغم عدم دستوريتها، صاغرة في البداية، ثم لا تلبث أن تجاري زعيم الانقلاب الجديد، وتنشغل في توزيع المناصب في ما بينها.

ثم، عندما نزل الشعب إلى الشوارع مطالباً بالوحدة، قام حكامه آنذاك، نتيجة تخوفاتهم من سوريين آخرين، وسلّموا سوريا بوحدة اندماجية كاملة مع مصر، واضعين كل أهداف هذا الشعب وأمانيه، في أيدي حكام يفتقدون لأي كفاءة، ما عدا إطلاق الوعود ورفع الشعارت، ويحسبون أنه بالخطب والكاريزما، والمخابرات طبعاً، يمكن حكم الشعوب الطيبة، بينما هم لاهون في صراعاتهم ومؤامراتهم وملذاتهم. ثم عبوراً بفترة الانفصال، التي بقيت فيها صور الرئيس جمال عبد الناصر في البيوت وعلى الجدران وعلى واجهات الدكاكين، إلى أن قامت ثورة 8 آذار، التي أول ما وعدت به، كان: عودة الوحدة. غير أنه سريعاً ما ظهر أن هذا لم يكن إلا تكتيكاً سياسياً، وخاصة عندما قامت الثورة بتبعيث الجيش والدولة، كما كشف عبد الناصر في

خطابه الشهير آنذاك. ولكن ذلك لم يثنِ حزب البعث عن بذل الوعود بالوحدة والحرية والاشتراكية، وبأمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة. وبعد خمسة عقود من حكمه، وعلى لسان بعثي قديم في رواية «شارع الخيزران-2014» لحسن صقر: «هذا هو البعث. خرجنا لتوحيد الأمة فعجزنا عن توحيد حي الرمل الشمالي مع حي الرمل الجنوبي في مدينة اللاذقية». أمّا مآثر البعث الأخرى، فخسارة أرض تبلغ مساحتها 1860 كم^2، يتوفر فيها 15% من المخزون المائي السوري، في حرب قامت منذ نصف قرن تقريباً، لكنها فشلت في تحقيق هدفها الرئيسي وهو «إسقاط النظام الثوري في دمشق»!

وبدل أن يكافأ هذا الشعب على مدى خمسة عقود من الانصياع، لأسوأ آليات الحكم وأقساها؛ وقانون الأحكام العرفية، والحزب الواحد، لكنه للأسف لم يكن مهيّأً لأي نوع من المكافآت، سوى زيادة 20% على رواتب الموظفين، من دورة رئاسية إلى أخرى، فقد وقع في روعه أنه يستطيع، كما فعل شقيقاه الشعبان التونسي والمصري، القيام بمظاهرات سلمية في الشوارع، والاعتصام في الساحات، رافضاً لأي سلاح، حتى ذلك الذي كان يرمى له، كما ذكر البعض، تصل صيحاته: «الشعب السوري واحد»، «سوريا بدها حرية»، «الشعب السوري ما بينذل»، إلى مسامع من يقطن القصر الجمهوري، فيقوم هذا الإنسان السوري، ابن الشعب السوري، ببذل ما بوسعه لتلبيتها. لكن هذا للأسف أيضاً لم يحصل، وبدلاً منه دخلت البلاد في دوامات الدم والموت والنزوح والدمار، وبفضل من؟ أولاً، بفضل من أطلقوا الرصاص الحي على من يمضون كاشفين صدورهم العارية، وذلك لإفهامهم بكل صراحة أنه لا شيء مما يطالبون به قابل لأن يُعطى لهم، فذلك علامة ضعف، لا يقبل بها الحاكم الذي انتخبوه هم أنفسهم.

وثانياً، مَن وعدوهم، ومن وعد واعديهم، من «أصدقاء الشعب السوري»، بأنه خلال شهرين أو ثلاثة سيسقط النظام، أو أنه سقط منذ أول يوم كتب فيه أطفال درعا «حرية» على جدران مدرستهم! وثالثاً، بفضل من دفعوهم إلى استخدام السلاح، باعتبار أن نظاماً كهذا لا يسقط بالمظاهرات السلمية، وأنه سيكون هناك جيش حر، لحماية السوريين وتحريرهم، فإذا بالجيش الذي لم يملك من حريته سوى الاسم، لأنه مرهون لمموليه ومسلِّحيه، يختفي ويحل بدلاً منه جماعاتٌ إسلامية متطرفة، حوّلت، بإجرامها، الحلمَ السوري إلى كابوس، ثم آلت إلّا أن تحوّل الكابوس نفسه، إلى استيقاظ داخل القبر. ورابعاً، من أكّدوا له أنهم انتصروا على الإرهاب منذ الشهر الأول، فانتشرت ملصقات «خلصت» في كل مكان، لكنها بعد أربع سنين لم تخلص، وصارت بلا نهاية.

أخي «سمير ذكرى»، تستطيع اعتبار مساهمتي هذه اقتراحاً أولياً لفيلمك: «الخديعة الكبرى»، إلّا أن ما أخشاه أن ينطبق هذا العنوان أكثر ما ينطبق على الشعب السوري نفسه، الذي ضحكوا عليه أكثر ما ضحكوا عندما جعلوه يصدّق أنه شعب.

اللاذقية 10/ 2/ 2015

اللاذقية.. سفينة «نوح» سوريا

لا أحد يستطيع أن يعطي رقماً ولو تقريبياً لعدد سكان اللاذقية اليوم، بعد أن نزح إليها كثيرون من الناجين بأرواحهم من البلدات والقرى التابعة لمحافظتها، أو المجاورة لها، تلك التي، لسبب ما، وقعت فيها، وليس في سواها من القرى المحيطة بها، معارك طاحنة بين أطراف النزاع. غير أن عدد هؤلاء يكاد لا يعادل شيئاً بالمقارنة مع قوافل النازحين من المدن السورية الأخرى؛ حمص أولاً، ثم المدن البعيدة كالحسكة والبوكمال ودير الزور والرقة، إلى أن وصل الدور إلى حلب، فجاء الحلبيون، بعد أن تشبثوا ما أمكنهم ببيوتهم وأسواقهم ومصانعهم، وما كان لعنادهم أن يشفع لهم، فجاؤوا بقوافل كبيرة، يقدّرها البعض بمئات الألوف، وقد يبالغون ويقدّرونها بما يزيد عن المليون. تركوا كل شيء، وجاؤوا فقراء ومعدومي الحال بغالبيتهم.

لكن اللاذقية، رغم التطورات التي طرأت عليها، وخاصة خلال الخمس والعشرين سنة الفائتة، وأخص بالذكر، الانتشار السريع لحقول الفطر الحجري شرقاً وشمالاً، ذلك أنها مسورة غرباً وجنوباً بالبحر، لم تكن أبداً مستعدة لاحتواء هذا الفيضان الهائل من البشر، لا كجسم ولا كروح. لا كجسم؛ فالكتلة العمرانية في المدينة، لم تُبنَ وفي ذهن

أصحابها شيءٌ من هذا القبيل، والطرقات كانت تنوء بزحمة السير قبل الأزمة بسنوات، فماذا بعد أن تضاعف عدد المركبات التي تسير عليها، وتبيت على أرصفتها. والقصة ذاتها مع حصص المدينة المحددة من المياه، والكهرباء، والغاز، والبنزين، والمازوت، والخبز، وما يتوفر فيها من محاصيل ومواد غذائية، فرغم كل طرق المعالجة التعسفية التي فرضها الواقع الجديد، تولدت الأزمات وتضاعفت الأسعار مرات ومرات. وحتى مهنة الشحاذة و«النبش» في حاويات القمامة باتت تعاني من تزاحم الرجال والنساء والأطفال الذين لم يجدوا سبيلاً للعيش سواها. ولا كروح؛ لأن هؤلاء المنكوبين حطّوا بنكباتهم فوق أرض تحيا هي أيضاً نكبتها الخاصة بها، إن لم أقل لعنتها، فاللاذقية أيضاً فقدت الكثير الكثير من أبنائها، سواء ممّن عارضوا وتظاهروا واعتُقلوا وحملوا السلاح، أو ممّن والوا وحاربوا في صفوف الجيش النظامي في درعا وفي القصير وريف دمشق وحلب، حتى باتت خجولةً نعياتُ الموت الطبيعي على جدران المدينة. هذا إذا لم أذكر الجرح النازف الذي صنعه المهاجرون منها خوفاً من المجهول الذي يتهدد أطفالهم، أو شبابها الذي غادروها تهرباً من دعوات الخدمة الإجبارية والاحتياطية.

قال لي ابني في زيارته الأخيرة، بعد غياب أربعة أعوام: «لا.. هذه المدينة غير اللاذقية التي كنت أحنّ لها، وأتوق للعودة إليها». أمّا تلك السيدة الحلبية فقد أخبرتني أنهم اضطروا للمجيء إلى اللاذقية، بعد استشهاد ابنها الأكبر وهو يحارب في صفوف الجيش السوري في حلب ووصول المسلحين إلى حيّهم، وهنا راح الابن الثاني، بسبب مرض الأب، يعمل، ليعيل العائلة، على شاحنة صغيرة ابتاعوها لهذا الغرض، إلّا أنه منذ شهرين، وهو ينقل حمولة إلى المنطقة الصناعية،

اختفى واختفت الشاحنة معه، ولتاريخه، رغم مراجعاتهم لكل فروع الأمن، لا يعرفون عنه شيئاً. إلّا أنه صحيح أيضاً، وربما الأصح من كل شيء، ما قاله لي أحد باعة ربطات الخبز قرب بيتي: «لا تظنّ يا أخي أن يموت لك ابن، أصعب من أن ترى أطفالك الأربعة جائعين».

عوامل عديدة، ساعدت، إلى اليوم، على نجاة اللاذقية من مصير شقيقاتها حمص وحلب ودرعا والرقة. ويمكنني أن أضيف مدناً سورية منكوبة أخرى ولو بصورة أقل فجائعية، فالبعض يخمّن أن هناك اتفاقاً ضمنياً بين الأطراف الكبرى اللاعبة على الرقعة السورية، لتحييد الشريط الساحلي الممتد من تركيا حتى لبنان، وذلك لأسباب وغايات عديدة أيضاً، أهمّها:

1- لكونه مؤلفاً من مكونات مذهبية، من المحتم أن تتحول أي مواجهة بينها إلى حرب أهلية طاحنة.

2- عدم قدرة الدول المجاورة، على استقبال المزيد من النازحين السوريين، فما بالك بموجة التسونامي التي ستنتج عن وصول الحرب والدمار إلى هذه المنطقة.

3- التخوف من حصول تطهير عرقي غير مسبوق، خاصة أنه ليس هناك أي منفذ جغرافي لهذه الكتلة البشرية الكبيرة المحشورة في الزاوية الغربية.

3- لن يبقى هناك مجال لأيّ حلّ سياسي في المستقبل، إذا لم يُحافظ على قسم من سوريا يصلح لأن يكون قاعدة أو منطلقاً لهذا الحل.

إلّا أن اللاذقية، الأشبه اليوم بسفينة تعوم فوق محيط من الأمواج العاتية، بات يطلق عليها الصواريخ، التي لا يعرف الناس من يطلقونها،

ولا لأي غاية يطلقونها، فتقع على مطارح لا على التعيين، وتقتل وتجرح أناساً لا على التعيين. كما أن التهديدات بالبدء بمعركة الساحل قد أُعلنت أكثر من مرة، والحواجز الثابتة والطيارة ما زالت تطبق على صدر المدينة وأهلها وقاطنيها، وصفارات سيارات الإسعاف لا تتوقف عن تغذية الخوف والرعب من مصير مجهول، يهلوس البعض الآخر، بأنه الكابوس الأشد دموية والذي لا مفر لسوري منه.

ولكن... إذا كان ما يحدث في سوريا طوفان، واللاذقية سفينة نوح السوريين، فالسؤال الكبير هو: «أين نوح؟».

اللاذقية 4/ 3/ 2015

المأساة السورية كسلعة إعلامية

قالت لي ألمى عنتابلي (مذيعة الأخبار في قناة سكاي نيوز العربية): «الإعلام، بضاعته المآسي والنكبات والأكاذيب»!

هناك فكرة صدّقها السوريون جميعاً، نظاماً ومعارضة وشعباً – حسب جدول التصنيف – وهي أن العالم، عام 2011، بات لديه من العيون والآذان، ما يجعله يرى ويسمع كل شيء، فوق الأرض وتحت الأرض. وأنه ما عاد يمكن أن تجري الأحداث في الصمت والظلام، كما في العهود السابقة، فحتى اليوم لا يعرف السوريون، ويظنّون العالم نفسه لا يعرف، ماذا حدث في بداية ثمانينيات القرن الماضي في حماة، على سبيل المثال لا الحصر، وكيف حدث، ولماذا حدث. لأنه، بظنهم، لو أتيح للعالم أن يعرف لتدخّل ومنعه، أو لقام بمساءلة فاعليه. هذا التصديق، أو لأقل من الآن، هذا التوهّم، هو ما دفع بالنظام السوري منذ بداية الأحداث، آذار 2011، لأن يمنع البعثات التلفزيونية، والمراسلين الصحفيين العرب والأجانب من دخول البلاد، ما عدا التابع منها لأطراف مؤيدة له. ومن الجانب الآخر، وعلى منوال إخوتهم في تونس ومصر، رفع المتظاهرون السوريون هواتفهم المحمولة المزودة بالكاميرات، السلاح الجديد المتاح للجميع، وراحوا يصوّرون أنفسهم، وإخوانهم، ويتدبرون عرض الصور واللقطات على صفحات

التواصل الاجتماعي، أو إرسالها إلى القنوات التلفزيونية العربية أو العالمية، التي بظنهم أيضاً، همّها الوحيد، هو نقل الحقيقة إلى العالم. وأن مجرد هذا، سوف يشكل من الضغط ما يكفي لهزّ النظام، ومن ثم، وكأنه ينتظر على صيحة، إسقاطه.

وفي حين أن النظام اعتبرها حرباً إعلامية كونية مغرضة ضده، لولاها لاستطاع أن يوجد حلاً يجنّب البلاد هذا المصير الكارثي، محمّلاً هذه القنوات المسؤولية المباشرة في سفك الدم السوري، لدرجة أن الفنادق السورية قامت بحذفها من قائمة المحطات التلفزيونية التي يستطيع أن يشاهدها نزلاؤها، ولا أدري ما إن كان هذا بمبادرة منها أو بطلب رسمي، ولكن ما رأيته وخبرته هو أنه لا يمكن لأي مطعم أو مقهى أو محل تجاري يقع في السوق أن يضع قناة «الجزيرة» أو «العربية»، علانية. لذا تراهم يفضلون القنوات الموسيقية أو الرياضية، طبعاً هذا يحصل في المناطق التي يسود بها النظام. أمّا في المناطق الأخرى فمن المؤكد أنه يسود العكس، فالمعارضون صدّقوا أنها قنوات مناصرة للشعب السوري ومساندة لثورته. وما زلت أذكر أنه في أوّل مؤتمر للمعارضة السورية في دمشق، 27حزيران2011، «مؤتمر سمير أميس»، كيف رفض بعض المشاركين، تبعاً للحجة ذاتها، شجبَ «التجييش» الذي تقوم به بعض القنوات التلفزيونية العربية، رغم أنها وردت ضمن البيان الختامي للمؤتمر، في الوقت الذي دعا إلى السماح للإعلام العربي والدولي بالدخول إلى سوريا والعمل بكل حرية.

وهكذا، يومياً، ليلاً ونهاراً، وخلال السنوات الأربع التي مضت على بداية المأساة السورية، وبينما القنوات التلفزيونية الرسمية تتابع بث رواية النظام ونظريته عن المؤامرة، مواظبة على رفع معنويات متابعيها من الموالين، الذين بدوا وكأنهم يرضعون منها شعورهم بالأمان،

راحت القنوات الأخرى، التي لا حصر لعددها، ولا لاتجاهاتها، كما لا حدّ لقدراتها، تعمل عملها الشائك والمضني في عقول السوريين وأرواحهم، وكأن الثورة صورة أو لقطة فيديو أو مقابلة مع شاهد عيان، تعرض على الشاشات، أكثر مما هي واقع يحدث على الأرض.

وبعد أن دفع الشعب السوري كل هذه الأثمان، بعد أن مات مئات الألوف من أبنائه، بعد أن تهدّمت مدنه وقراه، بعد أن نزح وتشرّد، وبعد وصوله إلى حالة اليأس المطبق من احتمال أي حل قريب أو بعيد، كان لا بدّ له أن يصدّق بأنه استُغل، وأنه، حقاً، كان ضحية خدعة كبرى. حتى نظرية المؤامرة التي كانت حكراً على النظام، صار يرفعها جميع السوريين، الموالون والمعارضون على السواء، متّهمين بالتآمر على سوريا، الدول نفسها، والأسماء نفسها، والقنوات التلفزيونية نفسها، التي كان يتهمها النظام. وانقلب حرصهم على متابعتها إلى إهمال وعزوف وسأم، وتبدّلت مشاعرهم من شاكرين إلى ساخطين، ومن مباركين إلى لاعنين. بالتأكيد ما عادت تنطلي، على عموم السوريين، هزليات برامج الحوار بين المعارضين والموالين. كما بات يثير حفيظتهم أن تقف المذيعة المتأنقة بجانب خريطة سوريا وهي تشير بيدها إلى إحداثيات المعارك الجارية، والخسائر في العتاد والأرواح على الجانبين، بالطريقة ذاتها التي تذيع بها نشرة الطقس، وكأن الدم السوري لم يكن بالنسبة لهذه القنوات التلفزيونية بمجملها، سوى وقود إعلامي رخيص، والمأساة السورية، لم تكن أكثر من سلعة رائجة.

ويا له من درس محبط، ربما كان أقرب إلى البديهة بالنسبة لشعوب كثيرة، تعلّمه الشعب السوري، ولو متأخراً، وهو أن العالم اليوم، حقاً، لديه من العيون والآذان، ما يستطيع أن يرى ويسمع بها كل شيء، ولكنه، ليس بالضرورة، يهتمّ ويتصرّف، يحمي أو يساعد، بل إنه يتفرّج

ويتسلّى، وفي أفضل الأحوال، يشفق. وإذا حدث أن تدخّل، فإنه لا يفعل ذلك إلّا بدافع واحد، مهما غلّفه ومهما زيّنه، ألا وهو تأمين مصالحه وغاياته، وأطماعه.

اللاذقية 11/ 4/ 2015

اللحظة التي أضاءت كلّ شيء ثم أظلمته

الساعة الثالثة والنصف وخمس دقائق، صباح 24/ 4/ 2015، برق ساطع أضاء السماء والأرض، تبعه رعد عظيم. الأمطار لم تتوقف عن الهطول من سماء اللاذقية. الشتاء لا يريد أن يذهب. اللوادقة، الذين، كما يُعرف عنهم، يصدّقون كلّ شيء، يردّدون: «هذه السنة لن يأتي الصيف».

أيّ شعور بالغرابة ينتابك، وأنت ترى السماء تقوم باستعراضاتها البهيجة، ليلاً ونهاراً، غير مبالية بكل ما يحدث على الأرض. فالشمس والقمر والنجوم، على مدار السنوات الأربع من المأساة السورية، لم تغيّر أياً من عاداتها اليومية... تشرق وتغرب، وتضيء وتعتم، بينما السوريون يقتلون وينزحون ويتشردون وتتهدم مدنهم وبيوتهم، ويُنحر وطنهم. أي شعور بالغرابة، يصل أحياناً إلى درجة الاستنكار، أنه، بعد أعوام من الجفاف، تصل كميات الأمطار في سوريا إلى أعلى معدلاتها لعقود من السنين، فتنفجر الينابيع وتفيض الأنهار وتمتلئ بحيرات السدود، إلى الحدّ الذي يستدعي القيام بإجراءات الأمان، وتحذير أهالي القرى المحيطة، تحذيرهم مما كانوا يرفعون أيديهم للسماء ويبتهلون لحصوله، مما كانوا عندما يرونه، يرددون: «جاء الخير، اللّهم زد وبارك!».

سوريا، جسداً وروحاً، كانت تنتظرها، تلك اللحظة، التي ينزع أبناؤها عن أوجههم وصدورهم، أغطية الخوف والانقياد والخضوع، ويطالبون بحقوقهم كمواطنين وكبشر. سوريا، برمتها، لأني لا أظن سورياً واحداً، مهما تنوع السوريون واختلفوا وتنازعوا، لم يكن يتوق إليها، اللحظة التي يشعر فيها أنه مواطن حر، في بلد حر، يُحكم بالعدل والمساواة. التوق الذي ربما كان يحيا في ضمائر السوريين، ويعتمل في صدورهم، ويلوح أحياناً في نظراتهم، أكثر ممّا يعبّرون عنه بكلامهم، ويقولونه بملء أفواههم، غير أن نخبهم الثقافية كانت تصرّح وتطالب به. وهذا ما أرغب في تأكيده هنا. وما بيان الـ99 مثقفاً، الذي سارعوا بإصداره ما إن تم انتقال الحكم إلى الأسد الابن، إلّا دليل مباشر على ذلك، إذ طالبوا رئيسهم الشاب، كما عبّرت حرفياً وكالات الأنباء العالمية عندما تناقلت الخبر، بالإصلاحات الجذرية، وخاصة السياسية منها، أساس أي إصلاح، وعلى نحو تدريجي، تجنّباً لما كانت تخشاه هذه النخبة، وتبيّن محاذيره وعواقبه، إذا ما استمر النظام في انتهاج الآليات القديمة ذاتها التي حكمت سوريا، منذ عام 1963 حتى عام 2000، مروراً بالتغيّرات المحدودة، والقاسية، في رأس هرم السلطة. تبع هذا البيان بيانات كثيرة، جميعها تُظهر هذا التوق وهذا القلق بآن.

اللحظة التي انتظرها الماغوط الكبير: [كل ما أريده هو الوصول/ بأقصى سرعة إلى السماء/ لأضع السوط في قبضة الله/ لعله يحرّضنا على الثورة] و[مذ كانت رائحة الخبز شهية كالورد - كرائحة الأوطان على ثياب المسافرين - وأنا أسرّح شعري كلّ صباح- وأرتدي أجمل ثيابي - وأهرع كالعاشق في موعده الأول - لانتظارها، الثورة التي يبست قدماي بانتظارها].

الخراب الجميل الذي كان يصلّي له أدونيس: [جاء العصف الجميل - ولم يأت - الخراب الجميل]. الثورة التي غنّاها يوماً: [غنيّتك في صوت الأحياء - نقشتك في صمت الأموات - وكتبتك في اللهجات - وفي الطرقات - وكل فضاء]!

أمّا «رياض الصالح الحسين»، الوعل المطعون في الغابة، فحياته كانت: [أعددت لكِ فنجان قهوة ساخنة - القهوة بردت - وما جئتِ. / وضعت وردة في كأس ماء - وردة حمراء حمراء - الوردة ذبلت - وما أتيتِ. / كلّ يومٍ أفتح النافذة - فأرى الأوراق تتساقط- والمطر ينهمر- والطيور تئنّ - ولا أراك. / لقد اعتدتُ- أن أعدّ القهوة كلّ صباح لاثنين - أن أضع وردةً حمراء في كأس ماء - أن أفتح النوافذ للريح والمطر والشمس، أنتظركِ أيتها الثورة].

وتسألونني عن موقف الشاعر؟ وكيف يجب أن يكون مفارقاً عن موقف الشارع، وكأن الشارع وصمة عار! وكأن ناس الشارع ناس أدنى وأرخص، عوام وليس بشراً. من أين للشعراء هذه النظرة الطاووسية، المتغطرسة، المتعالية عن الناس والحياة. وهي إن بُرِّرت عندما يغمض الناس عيونهم ويرضخون وينقادون، كيف تُبرّر عندما يفتحونها ويتمرّدون ويثورون؟ كيف تُبرّر عندما بعد عشرين مليون نعم، يقولون لا واحدة؟ عندما يتحسّسون قيودهم وأصفادهم ويجأرون: «حرّيييييييية!». وهل تخرج الحرية إلّا بجئير؟ كيف لأي إنسان ذي ضمير، فما بالك بشاعر، أن يشيح بعينيه وقلبه عنهم ويرفضهم؟ وأن يخاف منهم؟ على ماذا يخاف الشاعر في الشارع... من الناس؟

هكذا كان موقفي، لم أكن مخيّراً، أشياء كثيرة، أنا نفسي، أغمضت عيني عنها، وأحببت أن أراها، بعاطفتي وروحي وقلبي، جميلة ورائعة. أخطأت في فهم أمور كثيرة، أعترف، غير أنّي صدّقت وحلمت؛

صدّقت بشعبي، وصدّقت بشعرائه، وحلمت بسوريا أجمل، وبحياة حرّة وكريمة لجميع السوريين. كيف لي ألّا أفعل، وأنا أدّعي أنني شاعر، وأن سوريا بلدي، كما خالدية أمي؟

وكما البرق أضاء السماء والأرض، عاد وانطفأ وأظلم معه العالم. اللحظة التي أضاءت سوريا، هي ذاتها، اللحظة التي أظلمت سوريا، ولن أقول، أحرقت معها كلّ شيء، لا ليس كلّ شيء، آمل. ولست الآن في وارد كيف حدث هذا التحول، وما هي أسبابه، لكن «العاصفة المتردّدة وراء الأفق» وصلت. «العصف الجميل» جاء. ولكن الخراب البشع هو ما جاء ودخل وحلّ. فأيّ مفارقة هذه!

اللاذقية 28/ 4/ 2015

الجوكندا السورية... لا تبتسم

حرصاً منها، على رسمها بأفضل وجه، قامت الفنانة التشكيلية السورية «ناتالي مصطفى»، مواليد اللاذقية 1977، برسم لوحتين للجوكندا السورية، كلاهما بالحجم ذاته 55/ 80 سم، وبالوضعية ذاتها لجوكندا ليوناردو دافنشي في متحف اللوفر. اللوحة الأولى، على كمالها، بمثابة مسودة، أو بروفة للوحة الثانية، التي لم تضف إلى المسودة سوى أنها منفذة بعناية أكبر وتحديد أشد. وقد أرسلت الفنانة صورة عنها بالبريد الإلكتروني، للمشاركة في مسابقة «الجوكندا السورية» التي تقيمها صالة «قزح» للفن التشكيلي في دمشق. وهكذا صار من نصيبي، رغم صعوبة تخلّي ناتالي مصطفى عن أي من لوحاتها، الجوكندا السورية بنسختها الأولى، الخام، غير المصقولة، الأصلية.

الصور العديدة التي التقطتها والتي حرصت أن يبدو في بعضها العمل كاملاً، وفي بعضها الآخر تبدو تفاصيل الوجه والرقبة والصدر واليدين، جميعها لم تُجدِني نفعاً في محاولاتي المتكررة، كتابة شيء ما عنها. مما اضطّرني لإحضار اللوحة من مرسمي، وأن أعلّقها أمامي، على مسافة متر أو أكثر بقليل، وأقوم وأنا أكتب عنها بالاقتراب منها وتدقيق النظر في كل ملمح أو تفصيل فيها؛ الخطوط الغامقة التي تحدد

الشكل، ضربات الريشة الظاهرة والخفية، تدرج الألوان وتقابلات البارد منها والساخن، التي تَنبَّهَ للدور الهام الذي تلعبه في لوحات نتالي، صديقي الفنان التشكيلي هيثم شكور، يوم جاء معي وألقى نظرة على أعمالها الأخيرة، ومنها «الجوكندا السورية». وهنا يأتيني السؤال: كيف للجنة مشرفة على مسابقة فن تشكيلي أن تحكم حكماً صائباً بخصوص قيمة لوحة ما، وأن تقبلها أو ترفضها، بواسطة صورة عنها أرسلت إليها على العنوان البريدي؟ ذلك أن اللوحة، لدهشتي، رُفضت.

يسألني الفنان التشكيلي السوري «ناصر حسين»، المقيم في ألمانيا، مستغرباً: «هل رفضت لأن الأعمال المقبولة أفضل أو أهم؟». ذلك لأنه لا يجد سبباً للرفض نابعاً من اللوحة بذاتها، التي يقول عنها: «طبعاً، عمل جيد». مضيفاً: «لكن ضمن المنطق المشغول به، أظن أنه مبالغ لحد ما بحجم الرأس، ولكن شدني جداً الشغل باليدين ودرجة اللون الأسود في الثياب. رسم اليدين جيد وتعبيرهما وحالتهما النفسية مناسبة ومتعايشة مع تعبير الوجه، حسب الصورة – ربما الواقع مختلف – لذا أنا أرى أن الشغل باليدين أفضل من الوجه». ومرة أخرى نرى كيف أن من يريد أن يصدر حكماً فنياً، ولو على مستوى حوار خاص، أن يتوقف عند نقطة، أن ما يراه ليس سوى صورة عن العمل وليس العمل نفسه، ومع ذلك كان حكم رسام قدير، كناصر حسين، بهذه الإيجابية.

يا للجبين العالي! وكأنه بمساحته وباستقامته، يمثل إباءً ما.

/

يا للحاجبين الحادّين! يطول ويعلو الأيسر منهما، وكأنه يرسم علامة استفهام قاسية.

/

يا للعينين الواسعتين على نحو زائد، الواسعتين بالحد الأقصى الذي يسمح به الوجه، حتى إن العين اليسرى، أكبر حجماً من الفم، العين المفتوحة على مداها والفم المغلق إلى حد الإطباق! ما الذي أفقدهما صفاءهما، فما عاد البياض يحيط بؤبؤيهما، بل جفنان ثقيلان ينسدلان من الأعلى، فلا يغطيان سوى جزأين صغيرين من كرتي العينين، مبقيين على جحوظ خفيف يكاد لا يُلحظ، وهلالان معتمان كئيبان يحملانهما من الأسفل.

/

يا للفم ذي الشفتين الرقيقتين الشاحبتين المطبقتين بشدة! أين ذهب طيف تلك الابتسامة؟

/

يا لشلال الضوء الذي يهبط من أعلى الجانب الأيسر للجبين، إلى الخد، ثم إلى العنق، ويصبّ في بحيرة الصدر!

/

يحاصر هذا البهاء الصامد لحافٌ سميك من العتمة، يصنعه الشعر الذي تشوب دكنتَه حمرةٌ تأتيه من خارجه وتنحلّ في حوافه، يكمل عمله الليلي ثوب سميك يغطي الساعدين بدءاً من الكتفين الضيقين في الأعلى إلى اليدين الموضوعتين على ما يشبه الطاولة.

/

هناك خط أصفر ساطع يبزغ من خلف الجهة اليسرى من الجوكندا، وكأنه التماعة انفجار.

/

يا لليدين، على رقّتهما، مكثرتين من العقد! يا للأصابع المحطمة! نعم، يصلهما شيء من شلال الضوء ذاك، ولكنه يتحطم ويتبعثر عليهما.

/

أمّا عن المنظر الطبيعي الذي يقبع خلف الجوكندا السورية، فقد حلّت به الحرائق وحاق به الدمار. يصعد اللون الأحمر المشوب بالسواد هنا والاصفرار هناك، من أسفل اللوحة، إلى أن يتحول إلى خطوط متقاطعة ومتداخلة من الرصاصيات والرماديات، تشفّ في الوسط حتى تبدو وكأنها هالة من غبار تحيط بالرأس، راسمة، ولأَقُل مصوِّرة، معالم مدينة مهدمة، وجه وطن مهدم، أطياف عالم مهدم.

/

سوريا، الأم الثكلى، الزوجة المرملة، الأخت المفجوعة، الابنة الميتمة، تنظر إلينا، تنظر إلى العالم، بصمت وعزّة نفس، لا تطلب، ولا تنتظر من أحد شيئاً.

اللاذقية 10/ 5/ 2015

سوريا.. ليست بحاجة إلى عازفي بيانو!

سألته: «لماذا تبدو حزيناً؟»، أجابها: «صديق آخر غادر اللاذقية». سألت: «من؟»، أجاب بعد صمت، وكأنه ليس مهماً الاسم: «محمد سلطان الغوري، عازف البيانو المعروف». قالت رغبة منها بمواساته: «منذر، سوريا ليست بحاجة إلى عازفي بيانو».

نعم، سوريا، اليوم، ليست بحاجة إلى عازفي بيانو، ولا إلى أي نوع من أنواع الموسيقيين، سوى، ربما، أولئك الذي يجأرون: «سنسحقهم! سنسحقهم!». الأغنية التي سمعتها تخرج من النافذة المفتوحة لسيارة (بي إم دبليو) سوداء بدفع رباعي ونمرة مطلوسة، تمرّ متمهلة عبر شارع المتنبي المزدحم في حي الأمريكان، في اللاذقية. تتبعها سيارة أخرى مرسيدس سوداء أيضاً يمكن اعتبارها متواضعة بالمقارنة مع السيارة الأولى، تصدح منها أغنية، أظنها، للمغني ذاته: «لطيزي لا ترجعي»، التي، بالرغم من عدم بثّها من قبل أي محطة إذاعية، رسمية أو غير رسمية، حقّقت شهرة واسعة لصاحبها، لدرجة أن إحدى الأقنية التلفزيونية السورية أجرت معه مقابلة، تم فيها التعريف به وبنشأته الفنية، ولكن دون عرض الفيديو كليب، أو التسجيل الصوتي، الخاص بالأغنية التي يعود لها الفضل بشهرته. أتذكر الآن عالم الموسيقا

اللاذقاني الراحل «محمود عجان» وهو يقول: «لتعرف مستوى حضارة بلد، استمع لموسيقاها». فأيّ حضارة، وأيّ بلد، وأيّ موسيقا، أيها الموسيقار! كما أن سوريا ليست بحاجة إلى شعراء، أولئك الصنف من المخلوقات، كما وُصِفتُ حرفياً: «مخلوق»، في تقرير الرقابة المتضمن رفض مجموعة الشاعر فراس سليمان: «أحزان مشبوهة». الشعراء السوريون الحقيقيون، الذين لن يجدي ذكر أسمائهم، أو ربما لن يكون باستطاعتي، عشرات وربما مئات الشعراء نفضتهم سوريا من قلبها، خلال السنوات الأربع الأخيرة، والذين، في الحقيقة، لم تكن يوماً حريصة عليهم. هنا أستدرك وأسأل نفسي: «تُرى، أيّ بلد في العالم يحتاج إلى شعراء ويحرص عليهم؟»، أجيب: ليست سوريا وليست البلاد العربية، بالتأكيد. ولكن نعم، السويد تفعل، وألمانيا تفعل، وفرنسا تفعل، وإنكلترا تفعل، وإسبانيا تفعل كثيراً، واليونان على فقرها تفعل.

نعم، أغلب أصدقائي وغير أصدقائي من أصحاب هذه البضاعة الكاسدة، أقصد الشعراء، سافروا، وسافر معهم الروائيون والصحفيون والممثلون والمخرجون والفنانون التشكيليون والمصورون وجميع أهل الأدب والفن. أمّا أهل العلم، من أساتذة الجامعات والأطباء والمهندسون، فلا تحدّث؛ مدينتان سوريتان كبيرتان: حلب وحمص تعرّضتا لإخلاء كامل، ومدن أخرى كدير الزور والحسكة ودرعا والرقة لم يبق فيها غير شراذم من الناس، يحيون محشورين داخل بيوتهم نصف المهدّمة، ولا يخرجون منها إلّا لأجل تأمين طعامهم وشرابهم، وهوائهم. وحتى في مراكز المدن التي نجح النظام إلى اليوم في إبقائها تحت سيطرته وحمايته، كدمشق واللاذقية وحماة وطرطوس، فإن عائلات كثيرة آثرت، قبل أن يتهددها خطر مباشر،

الخروج بكامل أفرادها، حتى الشيوخ، من البلد، والسفر، لا يهمّهم إلى أين، يهمهم الأمان والمستقبل الأفضل لأولادهم. هكذا، بكل وضوح، وبكل بساطة، وبكل مأساوية، تتعرض سوريا اليوم لأكبر عملية تفريغ مادي وروحي في تاريخها الطويل. ولا أدري قدر المبالغة، إذا قلت: في تاريخ العالم.

لا أظن أن هناك إحصائيات دقيقة أو معلومات تفصيلية، عن الخروج السوري الكبير، وبالأخص ما يمكن تسميته الهجرة النوعية للنخب السورية. ولكن حتى وإن توفرت، فإن غايتي ليست البحث في العوامل المتعددة التي تسببت بها، ولا التنبؤ بالنتائج المأساوية الحالية، والقادمة الأشد منها كارثية، بل إن الفكرة التي كانت تراودني كل يوم أكثر من مرة، ورغم ذلك أرجأت تنفيذها كل هذا الزمن، تقتصر على أخذ عينة محددة منهم، من أين؟ وكيف؟ من جهاز هاتفي النقال، لا أكثر. فقد حرصت ألّا أحذف أي اسم من قائمة اتصالاتي، مهما كان حجم المخاطرة في إبقائه أحياناً، وعدم الجدوى غالباً. مخاطرة؛ لأن العديدين منهم قد يكونون مطلوبين أمنياً، أو معروفين، بسبب ظهوراتهم التلفزيونية، وتداول أسمائهم إعلامياً، بكونهم معارضين، ووجود أسمائهم على هاتفي، ولا أظنكم تجهلون عمّا أتكلم، في حال تعرّضي للتوقيف أو المساءلة، ليس أمراً محمود العاقبة بالتأكيد. وعدم الجدوى؛ لأنهم جميعاً باتوا في الخارج، وبالتأكيد، صار آخر همومهم أن يحتفظوا بأرقام هواتفهم الخاصة، ذلك أنهم، بخيارهم أو ليس بخيارهم، برغبتهم أو ليس برغبتهم، سافروا إلى غير رجعة، غالباً.

إلّا أنني، بعد أن جردت ما يقارب مئةً وخمسين اسماً، والحبل على الجرار، وطبعاً، من بينهم كثيرون ليسوا كتّاباً وليسوا فنانين أو شيئاً آخر من هذا القبيل، بل أصدقاء وأقارب ومعارف كانوا يصنعون حياتي

الحقيقية، أقول إني بعد أن وضعت المسودة الأولية لهذه القائمة، القابلة لإضافات عديدة، شعرت وكأنها قائمة مشبوهين أو مطلوبين للعدالة. أو كأنني، دون أن يطلب مني أحد، أقدم تقريراً أمنياً عنهم، حريصاً على ذكر أسمائهم، وعملهم، وماذا كانوا يفعلون قبل سفرهم، وإلى أين سافروا، الأمر الذي قد لا يُكتفى بما فيه من معلومات، بل سيتبعه استدعائي والتحقيق معي لإكماله. وهذا في الحقيقة آخر ما أسعى إليه هذه الآونة، لذا اخترت أن أكتفي بما يمكن أن يكون مقدمة لمقال طويل ربما أتجرأ يوماً وأكتبه كاملاً.

فإذا لم تكن سوريا، بعرف صديقتي، بحاجة إلى عازفي بيانو، ولا إلى شعراء ولا إلى فنانين تشكيليين، ولا إلى سينمائين ولا إلى مسرحيين ولا... ترى، أسألكم: «سوريا بحاجة إلى ماذا؟».

اللاذقية 17/ 6/ 2015

أنا «أبو غاندي».. لا أستطيع قتل طفل!

حتى أشدّ السوريين تشاؤماً، أشدّهم سوداوية، غربان المقابر، بوم الخرائب، من كانوا يصيحون، وكأنهم يرون رؤية: «انتبهوا، كل جرح في سوريا يؤدي إلى غرغرينا»، «احذروا، احذروا، ثورة في سوريا، يعني أنه سيصل الدم إلى الركب»، الهلعون، المرعوبون، أولئك الذين ارتعدت مفاصلهم، وارتجفت فرائصهم، عند سماعهم أول هتاف «حرية، حرية»، تبعته أول طلقة رصاص حي - رصاص ميت، ما كان في استطاعتهم أن يتخيّلوا أن يصل الموت والخراب في سوريا إلى هذا الحد، فرغم هول هذه الرؤى، فإنها لم تكن - هذه التحذيرات - أكثر من تعابير وكلمات، كثيراً ما تسابق السوريون في صياغتها ورسمها قصائد ولوحات، كوابيس سوداء لطالما استيقظوا منها هلعين، أمّا ما شاهدوه بعد ذلك بأمّ أعينهم، فهو واقع يحدث في الشارع وعلى الأرض، واقع من لحم ودم، وموت. ولا أظن هناك من داعٍ لإيراد الأرقام عن تعداد الرجال والنساء والأطفال، الذين ماتوا وتشردوا، والمدن والبيوت التي تهدمت ونُهبت. ليس فقط لفظاعة هذه الأرقام، ولا لكونها تزداد فظاعة كل يوم، ولا أيضاً لكون جميع السوريين يعرفونها، لدرجة أنهم ما عادوا كثيراً يلتفتون إليها. نعم، ما عاد أغلب السوريين يتابعون كم منهم مات

اليوم، وكم منهم نزح وهاجر، ليس بسبب أنهم لا يبالون بما يحدث، كيف لهم ألّا يبالوا وهو يأكل من مزق أجسادهم وأرواحهم، ويغبّ ويسكر من دماء أبنائهم؟ بل حفاظاً على سلامتهم العقلية والنفسية، وتمسكاً بقدرتهم على الاستمرار في العيش، أكانوا من أولئك الذين ما زالوا يحيون داخل سوريا، أم أولئك الذين هربوا بجلودهم، وباتوا يحيون خارجها. فالسوري اليوم، أينما مضى، وأينما حطّ به قدره، لا يعدو عن كونه ابن مأساة، وعن كونه يحمل وصمة سوريا، مثلث صغير مضطرب الحدود، غير متساوي الأضلاع، يفيض حزناً، وألماً، ودماً.

عن أيِّ سلامة عقلية ونفسية أتحدث؟ وقد قلت، للتو: إن ثمة وحشاً يأكل من أجساد السوريين ويشرب من دمائهم، وإن كل سوري، أينما كان، وفي أي صف يقف، يحمل وصمة سوريا، وهي بالتأكيد ليست علامة مرسومة بألوان قابلة للمسح، أكانت على الصدر، أم على الكتف، أو الجبين، بل إنها حرف قرمزي ملتهب محفور بالكيّ في الداخل، في القلب، في الروح. فالدمار وخراب الحجر قابل لإعادة الإعمار، بالمال، والجهد، والزمن. الجميع يعلم هذا، ولكن ماذا عن دمار النفس وخرابها، دمار الإنسان وخرابه؟ هل وصل دمار الإنسان السوري وخرابه، روح الإنسان السوري وكيانه، إلى الحد الذي لا يمكن ولا يؤمل إصلاحه؟

كثيراً ما صدمني، قبل 15/ 3/ 2011، بزمن، جهل السوريين بعضهم ببعض، وتصديق كل طرف عن الطرف الآخر المختلف عنه في العقيدة أو المذهب، لأفكار لا تقارب الحقيقة ولا الواقع بشيء. قصص وأحكام نقلوها عن آبائهم، الذين نقلوها أيضاً عن أجدادهم، كموروثات شعبية، حية، يختلط فيها الواقع والخيال. وبدل أن يعمل أولئك الذين حكموا السوريين على تبديدها وطيّها، آثروا، تبعاً لمصالح وأهواء، على إبقائها

واستمرارها، وربما أيضاً إذكائها، أفكار تخالف الطبيعة الإنسانية نفسها. فكيف، بعد أن راح سوريون يتهمون سوريين، إخوة يتّهمون إخوتهم، بقتلهم لأهلهم وأطفالهم؟ أتحدث عمّا يتبادله السوريون اليوم من اتهامات بالخيانة والعمالة والكفر والزندقة، ومايطلقونه على بعضهم من ألقاب: «شبّيحة، دبّيحة، إرهابيون، تكفيريون، قتلة الحسين»، ووصف كل طرف لقتلى الطرف الآخر، بالجِيَف: «قتلانا شهداء أبرار، ذاهبون إلى الجنة، وقتلاهم جِيف مُنتنة، مصيرها أن تكون حطباً لنار جهنم»، والفطايس: «فطايس الجيش السوري، فطايس الجيش الكر، فطايس حلب، فطايس النصيرية»، أتحدث كيف صار كل طرف، مع استثناء بعض الأفراد، لا يقر بإنسانية الطرف الآخر، لا يصدق أنه إنسان مثله، إذا مات، مات إنسان، خرجت منه روح بشرية، يبكي عليه أبوه وأمه وإخوته، وتحزن وتترمّل زوجته، ويتيتّم أطفاله. بل لا يصدق أنهم يمتلكون مشاعر أبوة وأمومة أو أخوة، ويجزم بأنهم لا يعرفون شفقة، ولا رحمة. والمأساة في هذه الحالة، وهذا ليس اكتشافاً، أن هذا الطرف أو ذاك، عندما ينزع صفة الإنسانية عن أخيه، إنما ينزعها أولاً وأخيراً عن نفسه.

ولكن بالمقابل، لا أستطيع إلّا أن أستدرك، هناك سوريون لا يعتبرون كل هذا أكثر من وباء أصابهم، مرض سوف يشفون منه قريباً، لا ريب. سوريون يراهنون على معرفتهم بطبيعة السوريين أهلهم وشعبهم، كيف أنهم في كل منعطف من تاريخهم، في جميع الأزمنة الصعبة التي مروا بها، أظهروا غفراناً وتسامحاً مشهوداً في ما بينهم، وحتى مع خصومهم، انظروا، مثلاً، إلى علاقتهم بالأتراك والفرنسيين، مَن استعمروهم وحاربوهم، هذا التسامح الذي لولاه لما أتيح لهذا الخليط العجيب من القوميات والأديان والمذاهب أن تحيا في سوريا

وتستمر. وإذا واجهتم بحجة، أن السوريين فعلوا هذا في ظرف وفي زمن كانت فيه سوريا تحيا حالة نهوض وتقدم ووحدة وطنية، حالة استقلال وحرية وسيادة، بينما سوريا اليوم تحيا حالة نكسة وتدهور وتبعية، حرب وموت؛ فإنهم يعودون ويؤكدون، بسبب إيمانهم العميق بالحياة ذاتها، أنها لا بدّ ستعمل عملها في تضميد جراحهم، وشفاء أنفسهم، والنهوض بهم نحو المستقبل المشرق.

في «فشيفش» الشاطئ الشعبي الضيق، المحصور بين مجرور مدينة اللاذقية الجنوبي وصخرة الانتحار، الحيز البحري الوحيد المتبقي لي ولأمثالي، للسباحة والتشمّس على صخوره ورماله، والسماح لنفسك بمتعة الشعور بأنك ما زلت حياً، لا يعرف «الفشيفشيون أمثالي» بعضهم إلّا بوجوههم التي غضّنها العمر، وأجسادهم التي أشقاها الزمن، أمّا أسماؤهم، فهم يكتفون بمناداة بعضهم بألقابهم: «أبو ربيع، أبو محمد، أبو حسين، أبو علي، أبو إيهاب، أبو غاندي». نعم، أبو غاندي، لكني لم أُفاجأ كثيراً بتسمية إنسان بسيط غير متعلم ابنه البكر: «غاندي»، فلديّ أنا شخصياً قريبان بهذا الاسم، أحدهما خالي غاندي نحلوس، أسماه به، منذ 85 سنة، جدي «محمد صائب نحلوس» تيمّناً ببطله السلمي: «مهاتما غاندي»، والآخر ابن خال أمي «غاندي روشان»، كما عرفت أكثر من «غاندي» من غير أقربائي، في دراستي وفي عملي، أذكر هذا، رغبة مني في سوق فكرة، لأول مرة تخطر على بالي، وهي أن السوريين، ربما كانوا يحلمون بغاندي سوري أو عربي خاص بهم، زعيم مسالم لا يأتي إلى الحكم بواسطة انقلابات أو ثورات عسكرية، يحكمهم بالقانون والرحمة، لا بالقوة والعسف. قلت لم يفاجئني لقب «أبو غاندي»، ولكن ما فاجأني حقاً هو أبو غاندي نفسه، الأب لأربعة شبان، غادر اثنان منهم إلى لبنان، والثالث إلى تركيا، لا يصله

من ثلاثتهم أيُّ خبر، أمّا الرابع فهو جندي في الجيش العربي السوري، انتهت مدة خدمته الإجبارية لكنهم يحتفظون به، ولا يسرّحونه، كما حال كل من يخدم في الجيش الآن. كما فاجأني هذا الحوار الذي رأيته وسمعته يدور أمامي، ونحن نسند ظهورنا على الجدار الاستنادي ذي الصخور الكبيرة لمطعم «الجغنون» المطلّ على فشيفش، والذي يصب ماء مجروره الأسود النتن على شاطئه بالقرب منا.

يسأله أبو مصطفى: «أبو غاندي، هل تستطيع أن تقتل طفلاً؟». يجيب أبو غاندي مباشرة: «أكيد لا أستطيع». يعود أبو مصطفى ويسأله: «حتى ولو كان أبوه قاتلاً؟»، يجيب أبو غاندي: «حتى لو..». لا يكتفي أبو مصطفى بجواب أبو غاندي المختصر والحازم، فيعود ويسأله: «حتى لو كان أبوه قتل طفلك؟»، يتردد أبو غاندي قليلاً ثم يجيب: «حتى لو، ما ذنب الطفل؟». يصرّ أبو مصطفى على متابعة استجوابه: «وحتى لوكان أبوه...؟». هذه المرة لا يدعه أبو غاندي يكمل سؤله، فيصيح: «حتى لو، حتى لو، أنا يا أخي، مهما كانت الظروف، لا أستطيع قتل طفل».

ــــــــــــــــــــــــفشيفش – اللاذقية 22/ 6/ 2015

إلى ماذا تؤدّي تسمية البلاد بأسماء حكامها؟

أذكر جيداً، حتى إني أستطيع تخيّله كمقطع فيديو، المشهد الذي روته زميلتي في العمل، في بداية ثمانينيات القرن الماضي، وهي ترفع وتهبط بيدها، محاولة تصوير كيف تسلق مراهق إشارة المرور وراح يحطم أضواءها بقضيب حديدي، وهو يصيح: «الله أكبر». وأعيدَ المشهد بعد ثلاثين سنة، عندما أحرق المتظاهرون مركز «سيريتيل»، وكسروا الصرّافات الآلية للبنك التجاري، خلال اليوم الأول من الأحداث في اللاذقية.

تقول قريبتي النازحة من حلب بصوتها المتهدج: «أيّ ثورة؟ وأيّ ثوار؟ مجرمون ولصوص غزوا حلب وسلبوها وكأنها مدينة عدوّة، وبدل أن يحرّروها، كما يدّعون، عملوا بها نهباً وتخريباً وتقتيلاً». الألم الذي لم أجد له ردّاً سوى هزّ رأسي. فقريبتي المفجوعة بمدينتها لا تستطيع أن تقتنع بأن لكل شيء أسبابه، بل ترفض أن يكون هناك سبب على الأرض يؤدي إلى ما حدث لمدينة تاريخية كحلب، كان يجب أن يعمل الجميع على حمايتها كإحدى الصروح الأثرية في العالم، لكن قريبتي في النهاية هي من يتطوع ويقدم تفسيره لهذه الظاهرة بترددها لكلمة: «حقد». نعم، تقول: «هؤلاء الذين يدّعون

الثورة، ليسوا سوى أناس حاقدين نفسياً وطبقياً». وهنا أيضاً وجدتُني مضطراً لهزّ رأسي.

لن أتطرق إلى الحل الأمني - العسكري الذي انتهجه النظام منذ بداية الأحداث، ولا إلى الفكرة الشديدة الأهمية التي تتضمن استدعاء العنف للعنف، بل فقط ما شهدته عياناً من عنف المتظاهرين في بداية الأحداث في اللاذقية، وأنا أقف على مبعدة أمتار من مظاهرة مؤلفة من بضع العشرات من الشبان، توقفوا أمام قسم الشرطة، وراحوا يصيحون على عناصر الأمن الداخلي الذين أغلقوا أبوابه ونوافذه وقبعوا داخله: «يا شرطة، يا أوادم، انظروا ماذا يفعلون بالناس في ساحة الشيخ ضاهر». وعندما همّ أحد الفتيان بتحطيم زجاج إحدى سيارتَي الشرطة الواقفتين أمام المخفر، نهره من كان في المقدمة بصيحات جعلته يتراجع ويرمي عصاه، إلى أن خرج من كانوا داخل المخفر وركبوا سيارتيهم وغادروا دون أن أي نوع من الاحتكاك، لا بالكلام ولا بالنظرات. غير أن الشارع، له دوافعه ومفاعيله، ومن المحتم أن ينفلت منه عنف ما، صغر أم كبر، وخاصة أنه ردة فعل على الخوف، ومحاولة تخطٍّ للشعور بالضعف، إلى حالة القوة والفعل. فالمتظاهر يعنف، ولو بالحد الأدنى، الصراخ، ليتغلب على خوفه وضعفه وليشعر بالقوة الكافية لمجابهة من كان يخيفه حتى العظم، والأقوى منه بأضعاف.

لكن هذا شيء، وما أحاول تفسيره، وليس تبريره، أو القبول به بأي صورة، في تحول المنشآت العامة إلى «أهداف ثورية»، شيء آخر.

البارحة وأنا أهبط الطوابق العشرة في مشفى الأسد الجامعي، فإذ فجأة يتوضّح لي تفسير ما كنت لسنين كثيرة أجد نفسي حائراً بين رفضه واستنكاره على نحو مطلق، وشعور داخلي، بأنه لا بدّ أن يكون هناك أسباب واقعية لحدوثه وتكراره، فقد كانت جدران المشفى، كما

هو الحال في جميع مؤسسات الدولة، مغطاة بالصور على أنواعها، زاد عليها، الشعارات التي ولّدتها الظروف البالغة الصعوبة التي تمرّ بها البلد. ثم صادف أن عبرت بغرفة مغلقة، فوق بابها يافطة: «الفرقة الحزبية». ففي كل شركة، أو مديرية، أو مدرسة، أو نقابة، يوجد تمثيل للحزب الحاكم، يتصاعد مستواه من مسؤول حزبي، إلى فرقة، إلى شعبة، إلى فرع حزب له رئيسه وأعضاؤه العاملون، كما في الجامعات والمنظمات الشعبية. وهؤلاء يحتلّون مراكز عليا في إدارة المؤسسة، ومن حقهم التدخل وفرض رأيهم لتصحيح كل ما يرونه مخالفاً لمصلحة الحزب أو الدولة أو النظام السياسي. فإذا لم يكن حقيقة أن حزب البعث العربي الاشتراكي هو القائد للدولة والمجتمع في سوريا، فإنه الجهة المكلفة بإدارتهما. فهو مَن يُعِدّ قوائم أعضاء مجلس الشعب، ومَن ينتقي المديرين ورؤساء الدوائر، ومن يحدد أهداف الخطط السنوية والخمسية والبعيدة المدى. وإذا أضفنا إلى هذا، التسميات التي تطلق على المشافي، والمدن الرياضية، والجامعات، والمطارات، والبحيرات، فكيف يستطيع هؤلاء ألّا يصدّقوا أن هذه المنشآت ملك للسلطة، وأنها رموز شاخصة لها؟

نعم، شعورهم بالعداء للممتلكات العامة، بأنها كانت ملكهم، جرى بناؤها من أموالهم، والآن هي مسروقة منهم، ولأنه ليس هناك، بعُرفهم، طريقة سلمية أو سياسية لاستعادتها، لا يبقى أمام هؤلاء الحاقدين سوى تخريبها، لا بل ما دامت البلاد مسمّاة بأسماء حكامها، يصير هدفهم نزعها منهم ولو أدى هذا إلى تمزيقها. هذا ما تدفعه الأوطان والشعوب والدول ثمناً لهذه السياسات التي كانت تعمل بها وتنشرها الأنظمة الشمولية. النتائج المأساوية التي لا يمكن أن يلام أحد في العالم عليها سوى أصحاب السلطة الحقيقيين فيها،

الذين حكماً يعرفون غاياتها ويعرفون عواقبها، فيصدرون، من حين إلى آخر، التعليمات بمكافحة هذه الظواهر ومنعها، إلّا أن إصدار التعليمات شيء والجدية في تنفيذها شيء آخر، الأمر الذي لا يحصل أبداً. وكأن هذه الصور واللافتات جزء لا يتجزأ من آليات الحكم، ومن النظام نفسه، الذي يقوم على إيديولوجية السيطرة والتحكم بكل شيء، إن لم يكن بالجيش والأمن والشرطة والحزب، فعلى الأقل بالصور والشعارات والأعلام التي تعلّق وتلصق حيث يجب ولا يجب، وحيث يليق ولا يليق.

اللاذقية 21/ 9/ 2015

«فتنا» إلى كراج اللاذقية...
أكلنا الفلافل والبطاطا المقلية

في نيويورك، يقول الشاب الأمريكي للفتاة التي يحاول إبهارها: «سأطعمك ما سوف يقلب حياتك رأساً على عقب، فلافيل».

في لندن، يدعوني الشاعر نوري الجراح، إلى محل فلافل شهير غير بعيد عن ساحة الطرف الأغر، اكتفيت أنا بسندويشة واحدة، باردة وناشفة، بينما تناول نوري سندويشتين مع المخللات.

في باريس، تخبرني أختي مرام، أن المبلغ الذي أعدته لها، بعد تعذّر شراء بيت صغير في اللاذقية لسنين كثيرة مضت، فما بالك اليوم، وهناك إشارة على اسمها في قوائم المطلوبين على الحدود، (وهذه المعلومة لمن يهمه الأمر في سوريا، تصوروا، مجرد تصور؛ أن تدفع العاطفة والحنين مرام المصري لوطنها وأهلها وذكرياتها، هي التي تحيا على الذكريات، فتقوم وتستقل طائرة وتهبط في مطار الشهيد باسل الأسد، وهناك يتم اعتقالها، ليس فقط اعتقال أرق إنسانة عرفتها البشرية، على حد تعبير رياض نجيب الريس، بل أيضاً واحدة من أكثر الشاعرات العربيات شهرة وانتشاراً عالمياً، تصوروووا، مجرد تصور!)، سوف تعطيه لابنها ليبدأ عملاً خاصاً به، وهو، محل فلافل صغير في عاصمة النور.

في برلين، تُظهر المستشارة «آنجيلا ميركل» تعاطفها مع المهاجرين السوريين، بزيارة محل «شاورما» سوري، وتأخذ صورة تذكارية وهي تمسك بسكين طويلة وتنزلها على سنام لحم الدجاج المحمّر.

أمّا في اللاذقية، في قلب المركز التجاري للمدينة، عند تقاطع شارع ثورة 8 آذار مع شارع عدنان المالكي؛ شارع الذهب، وشارع السينمات، غير أنه ما عاد هناك حتى سينما واحدة، من يصدق؟ المنطقة التجارية الأغلى ثمناً، عند الزاوية، بدل محل الأزياء النسائية ذات الماركات العالمية، الذي كان لا يجرؤ على دخوله، ولا حتى الوقوف على واجهته، سوى سيدات الطبقة الراقية، افتتح محل فلافل «جمال السويس»! الاسم ذو الرنين لأشهر محل «حمص وفول وفتة» في تاريخ المدينة، والذي انطلق من حي الصليبة الشعبي ليصل إلى ساحة الشيخ ضاهر ومشروع الزراعة. وكاد أن يصل بصاحبه إلى مجلس الشعب، فقط لو أن جيرانه، أهل الصليبة، صوتوا له.

اللاذقية اليوم، رغم هجرة شبانها والكثير من عائلاتها، تعاني من الازدياد الشديد لتعداد المقيمين فيها، بعد عدة موجات من النزوح الداخلي من المدن السورية المنكوبة، أوصلها إلى وضع اقتصادي شديد التأزم، يخشى الكثيرون من عواقبه، وقد بات يصحّ أن يطلق عليها مدينة المأكولات الشعبية، كأن تقول مدينة الشاورما، أو مدينة الفطائر (على الماشي)، أو مدينة المقانق والبطاطا المقلية، أو مدينة الفول والحمص والفتة، حتى إن أشهر محل فول حلبي «حج عبدو الفوال» الذي نشرت عنه مجلة «اللوموند الفرنسية» تحقيقاً مصوراً، نقل محلّه من حارة «الجدَيدة» في حلب، إلى منتصف شارع عمر بن خطاب، بالقرب من مدخل حي الصليبة في اللاذقية. إلّا أن الفلافل تتفوق عليها مجتمعة. محلات تجارية كثيرة، في الشوارع الرئيسية

للمدينة، وفي الأسواق، وفي الأحياء السكنية الشعبية وغير الشعبية، أغلقت وأعيد افتتاحها محلات فلافل، إضافة إلى المحلات المعروفة، كفلافل «الأستاذ» في الشحادين، و«شيخ الشباب» بالصليبة، وفلافل «فلسطين» و«الحموي» في شارع هنانو، وفلافل «برهان» وأولاده التسعة في شارع أنطاكية، فقد بات هناك فلافل «السلطان» بفرعيه، وفلافل «الأمراء»، الذي يحن إلى إحدى سندويشاته الكبيرة أمّ الـ150 ليرة ابنُ اللاذقية البار «عميد فضّول»، في غربته القسرية، بفرعيه أيضاً، وفلافل «فلافيلو» على الطريقة الإيطالية، وسط شارع القدس مقابل أكبر محل للخمور المستوردة والمهربة في المدينة، وفلافل «النور»، وبعده بأمتار قليلة، فلافل «الكابتن» الذي يمتاز باستخدام تبلة المقانق الحارة، وفلافل وبطاطا «خبزة سخنة» بخبز الصاج، وثلاثة محلات فلافل «على كيفك» متوزعة على أنحاء المدينة، ووو...

صحيح، أن اللاذقية، حتى وإن أصابتها بعض الصواريخ الطائشة، وتفجّرت في أحد أحيائها البعيدة سيارة مفخخة، لا أحد يعلم من أين أتت ولا كيف دخلت ولا لماذا اختارت هذا المكان وقتلت الأبرياء من الناس، لم يحلّ بها الدمار الذي حلّ بأخواتها، حمص ودرعا وحلب، وصحيح أيضاً أن أهلها جميعاً، موالين وغير موالين، ثرثارين وصامتين، يصلّون لنجاتها من هذا المصير، إلّا أن ما أصاب سوريا كلها، كان لا بدّ أن يصيب اللاذقية، مهما سُوّرت ومهما حيّدت ومهما استكانت، أي أنها ما عادت نفسها. اللاذقية القديمة التي نعرفها وكنا نتغنى بها غادرت ومضت كما غادر ومضى الكثيرون من أهلها، وما عاد يستقبل من يدخلها عطر زهر الليمون ورائحة البحر، لا، ما عاد هناك من يترنم بالأغنية اللادقانية الشهيرة: «على روض الحبيب فتنا، قطفنا الورد والفتنة»، بل: «فتنا إلى كراج اللاذقية، أكلنا فلافل وبطاطا مقلية».

في جلسة الخميس، إحدى الجلسات الأسبوعية الثلاث التي كان يقيمها مثقفو اللاذقية ومن لفّ لفهم، والتي أسرّ لي يوماً أحد المحققين الأمنيين، أن الفروع الأمنية تستنفر ثلاث ليال كل أسبوع بسببها، المستمرة لليوم، رغم تفككنا وتنابذنا الذي مارسناه على بعضنا، للأسف، نشرب الشاي، ونطمئن عن أحوالنا، نتكلم عن تطور الأوضاع حولنا، والحلول المرتقبة القريبة والبعيدة، وعما سيؤول إليه مصيرنا، ورائحة فلافل قوية نافذة لا تقاوَم تقتحم عيوننا وأنوفنا وآذاننا، وتحتل كل أفكارنا وحواراتنا، ما يدفع أحدنا للتسلل وإحضار سندويشات فلافل بعدد الموجودين، ينسينا طعمها، ولو إلى حين، الكابوس الرهيب الذي نحيا فيه.

اللاذقية 29/ 9/ 2015

«أعرفك أعمق من هذا!»

لم أعدم طوال حياتي، وجود شخص أعرفه معرفة جيدة، أو بسيطة، يستوقفني على الرصيف، أو تجمعني به سهرة، أو يجلس أمامي على مائدة، ويسألني سؤالاً ما، فأجيبه مستخدماً أعلى مستويات تفكيري ومعرفتي، فأفاجأ، ليس فقط بأنه يرى جوابي خاطئاً، بل أيضاً بسيطاً وساذجاً. بادئاً بشرح نظريته بما لا أدري ما إذا كان مديحاً أم تقريعاً: «ولووو يا منذر، أعرفك أعمق من هذا». عندئذٍ، يسقط في يدي، وأحار كيف لي أن أعيد اعتباري في نظره، وأعود عميقاً كما يعرفني.

1- الصعود إلى القمر

كان ذلك في نهاية عقد الستينيات من القرن الماضي، وكأنه بداية جديدة للعالم، فقد صعد أول إنسان إلى القمر، ولكنه لم يكن حدثاً حقيقياً بالنسبة لأناس كثيرين، فقد صادفت أكثر من شخص، يقول لي: «أمن كل عقلك تصدق أن الأمريكيين صعدوا للقمر؟ يا ابني عليك أن تتعلم النظر أعمق من ذلك، المشاهد التي عرضت على تلفزيونات العالم، ليست سوى فيلم أعدّوه في استديوهات هوليوود».

2- تفجير مركز التجارة العالمي

من أول يوم كان هناك من لم يصدق الرواية الرسمية التي قدمتها

الولايات المتحدة الأمريكية حول تفجيرات 11 أيلول، وتدمير مركز التجارة العالمي في نيويورك، ولليوم هناك من يقول لك: «من هو هذا «بن لادن»؟ يا أخي، ماحدث بات معروفاً، كنت أظنك ممن لا يصدقون ما يشاهدونه وما يسمعونه إلّا بعد تمحيص وتدقيق، مسرحية أمريكية مصورة، وقد صدرت عدة كتب تثبت ذلك، استخدموا فيها بعض الشبان المسلمين لتبرير الحرب على طالبان والإسلام وغزو العراق».

إلّا أن السنوات الأربع الماضية والتي شارفت أن تغدو خمساً، كشفتني على حقيقتي، وكشفت للكثيرين ضحالة تفكيري السياسي – اسمحوا لي بالتحديد – ذلك أنهم في أحيان كثيرة كانوا، كما سترون، محقّين!

3- الربيع العربي

«والله، لو أن أحداً قال لي، إن منذر مصري يصدّق بالربيع العربي، لكذّبته! نعم، نعم، أعلم أنه لست أنت من أسماه الربيع العربي، ولكنهم فعلوا ذلك، ليخدعونا ويضحكوا علينا، ووسائط الإعلام العالمية التي تستشهد بها، يملكها أناس أقوى من الدول، وجهات معروفة وغير معروفة، وهي لا تعمل إلّا لحسابهم».

4- حرية

«معقول يا زلمة! واحد مثلك يصدق، أن تلاميذ بعمر العاشرة أو الثالثة عشرة، يكتبون على جدران مدرستهم، بأنفسهم، دون أن يدفعهم أحد، أطفال كهؤلاء، ومن درعا، ماذا يفهمون من كلمة حرية؟».

5- الشعب يريد إسقاط النظام

«لا أصدق أنك تصدق بأن الشعب السوري، الخانع والمستسلم

منذ خمسين سنة، لمجرد أنه شاهد كيف يثور الشعب التونسي والشعب المصري ويسقطان النظام، يثور أيضاً ويطالب بإسقاط النظام! الأعمى يستطيع رؤية أن هناك من خطّط ونفّذ ودفع الأموال لنزول الشعب السوري إلى الشوارع».

6- الفوضى الخلّاقة

«والله أستغرب فيك هذا التجاهل للحقائق، وكأنك تصدق أنه يمكن في أي بلد في العالم أن ينزل الناس إلى الشوارع، وتقوم به ثورة، دون أوامر من أمريكا، أو على الأقل السماح منها بذلك، وكأنك لم تسمع باستراتيجية «الفوضى الخلاقة»، التي أعلنتها أمريكا على لسان أعلى مسؤوليها منذ سنوات، وذلك لإشاعة الفوضى والخراب في العالم العربي والإسلامي».

7- أصدقاء الشعب السوري

«ماذا؟ أحقاً تصدق بوجود دول، غربية كانت أم عربية، يهمّها الشعب السوري، وأنها ستتدخل لمساعدته وتحقيق أهدافه في الحرية والديمقراطية؟ الموضوع موضوع مصالح، وصراع قوى على مواقع النفوذ. والعفو منك، أخي منذر، تعلم أنني لا أقصدك أنت، فقط الحمقى يصدقون أن العالم جمعية خيرية!».

8- الماسونية العالمية

«أتظن أن مساندة روسيا وإيران غير المحدودة، وسياسة «أوباما» بعدم التدخل، وقلة حيلة القارة العجوز تجاه الأحداث في العالم، هي أسباب صمود النظام طوال هذه السنوات؟ ألم تقرأ «بروتوكولات حكماء صهيون»؟ ألم تقرأ «لعبة الأمم»؟ لا! إذاً، هذا هو السبب

في أنك بعيد جداً عن فهم كل ما يحصل. «الماسونية» هي التي تدير العالم، وهي لا تريد أن يسقط النظام السوري بأي ثمن».

9- الضربة الصاروخية

«أخي منذر، أعترف بك شاعراً، على عيني وراسي، أمّا في السياسة، فقد فاجأني أنك لا تفهم فيها شيئاً على الإطلاق! «أوباما» لم يشمّر عن ساعديه ويحشد أسطوله الحربي ليقصف نظام الأسد بالصواريخ، بل بالعكس، لينقذه من ورطة الأسلحة الكيماوية، أولاً، لأنها تشكل خطراً عليه نفسه، وثانياً، كي يبرئه من تهم وعواقب استخدامها، فيما إذا ظلت في حوزته. ولو لم تقم أمريكا بهذه التمثيلية الخلبية لنفذت إسرائيل الضربة بنفسها. التحدث في السياسة، أخي منذر، يحتاج إلى بعد نظر».

10- العاصفة الرملية

«أنت، بكل براءة، تؤكّد أن العاصفة الرملية التي ضربت سوريا، وجزءاً واسعاً من منطقة الشرق الأدنى، كانت نتيجة عوامل طبيعية. رغم أنك، كما يبدو واضحاً، عديم المعرفة بأي شيء في علم الأرصاد الجوية، وذلك دون أن تكلف نفسك بسؤال: من أين جاءت هذه العاصفة إلى هذه المنطقة، ولا من أين جاءت بالرمال التي حملتها معها، ولا لماذا في 9/ 9/ 2015، اليوم بالذات الذي استولت فيه جبهة النصرة على مطار أبو الظهور العسكري!».

وختاماً...

11- الخروج السوري الكبير

«بغضّ النظر عن المظاهرات والتجمعات التي أقامتها بعض

منظمات حقوق الإنسان، التي لم يكن لديها عمل في بلادها، وشارك فيها مواطنون أوربيون، يبحثون عن فرصة، لا تكلف أكثر من عدّة يوروات، ليثبتوا لأنفسهم ولمن يشاهدهم على شاشات التلفزيون، أنهم متحضرون وإنسانيون. فهل حقاً تعتقد أن الحكومات الأوروبية تتقبل هذه الأعداد من اللاجئين السوريين لوجه الله ولوجه الإنسانية؟ غايتهم، بالمختصر، حبيبي منذر، أن يفرغوا سوريا من هذا الشعب الذي أثبت أنه شعب حي، وشعب عظيم، لتفقد سوريا أي أمل لها بالمستقبل، وأنا لا أستبعد أن يكون هدفهم غير المعلن، تسليمها لداعش وجبهة النصرة، كي لا تقوم لها بعد اليوم قائمة».

اللاذقية 1/ 10/ 2015

«تريكين».. كلّا.. لم يفقد السوريون إنسانيتهم

رُويت لي هذه الحادثة البارحة مساء، ومن شدة تأثّري بها، أقسم، إني رأيتها في منامي. واستيقظت باكراً، وأنا أشعر بأنها حدثت لي بالذات، وبأني كنت أحد ركاب الباص الذي صعد إليه عنصر من عناصر الجيش، أو الأمن، أو الدفاع الوطني، تابع لأحد الحواجز المنتشرة على طريق اللاذقية – دمشق، وراح يدقق في بطاقات الهوية لجميع الركاب، إلى أن وصل إلى نهاية الباص، حيث وجد المرأة المجللة بالسواد، التي لا يظهر للعيان أي جزء منها سوى وجهها، قابعة مع أطفالها الثلاثة، ولا تحمل بطاقة هوية، ودون أي تردّد طلب العنصر منها النزول من الباص، لكن المرأة كانت لا تتوقف عن الشرح له ولجميع الركاب أن بيتهم في دير الزور تهدّم واحترق وصار كومة رماد وحجارة، وأنهم فقدوا كل شيء، بما فيه أوراقهم وهوياتهم. وأنه يستطيع تفتيشها فليس معها سوى حقيبة صغيرة تحتوي بعض حاجيات أطفالها، وأن زوجها، الموظف في إحدى دوائر الدولة، ينتظرهم في دمشق. تخلل هذا الشرح التفصيلي، الكثير من الدعوات وعبارات الاسترحام والاستجداء: «الله يخلّيك! الله يحميك! الله يخلّي ولادك!». وبسبب تشبثها بمكانها مع أطفالها، راح العنصر يشدّ

بها ويدفعها في الممر الضيق بين مقاعد الباص، وأطفالها عالقون بها، يبكون ويصرخون، بينما السائق ومعاونه وركاب الباص جميعاً، ينظرون ويراقبون، وليس باستطاعة الواحد منهم التلفظ بكلمة. فإذ بصوت حاد، يمزّق هذا المشهد غير الإنساني الذي يرينا المأساة السورية بكل تفاصيلها، صرخة واحدة، آمرة، لا تحتاج إلى شرح، ولا تحتاج إلى تكرار، أمر لا يرد، لا أحد يدري من أين استمد قوته وسطوته: «تريكين!». فنلتفت تجاه الصوت لنرى امرأة قامت عن مقعدها في مقدمة الباص، ووقفت، مظهرة نفسها، امرأة عادية، متوسطة العمر، لا شيء يميزها لا في وجهها ولا في الثياب التي ترتديها، إلّا أنها، كانت، في حلمي، تشعّ: «تريكين!» جمّدت العنصر في مكانه، وراح يشاركنا النظر إليها، لا يدري ماذا يقول ولا ماذا يفعل. حتى إنه لم يحتجّ ولم «يشخط» في المرأة كما كان متوقعاً منه: «وشو علاقتك إنتي؟» كما لم يسألها: «مين إنتي؟ ومين وراكي حتى جاية تتأمري عليّ؟». ما أتاح للمرأة المشعّة، أن تكمل بالصوت الحاد والقوي نفسه: «أم لتلات طفال، نبشتوها، آمعها سلاح ولا بتخفي شي، شو بدكين فيها؟ حسيب شو ما كانت تكون، شو بيخوفكين منها، ما عندكين إنسانية! كرّهتوا الناس فيكين وفينا كلنا». وأيضاً دون أن ينبس العنصر بكلمة، دون أن يلقي نظرة أخرى على أي من المرأتين، يهبط من الباص، مشيراً بحركة من يده للسائق الذاهل، أن يمضي.

هذه إحدى القصص التي أعرف الكثير منها، وبعضها كنت شاهداً عليها، التي يجب أن تُروى وتنشر وتعمَّم بين السوريين أنفسهم، وليس لسواهم، قصص العيش المشترك، الوطن المشترك، الجيرة الأبدية، مصالح الناس في ما بينهم، الحاجة الأعمق والأقوى إلى التآخي والمودة، لا قصص الكره والحقد، لا صور التنازع والقتل، التي يعمل

عليها وينشرها أناس لا على التحديد، ينتمون إلى كل أطراف النزاع في سوريا، وكأنه لا غاية لهم إلّا أن يدفعوا بالسوريين إلى مزيد من هذا التباغض والاقتتال والموت. ولا أرى أن التذرع أو التبرير، بأن ما يروونه وينشرونه هو الحقيقة، وهو الواقع، يبرئهم من تهمة كهذه، حتى وإن كنت أصدق أن الكثيرين منهم قد يكونون تحت تأثير الأهوال والمآسي التي يسمعونها ويرونها، وربما تحدث معهم، ومع من هم بقربهم، كل يوم، طوال هذه السنين الماضية، التي تبدو وكأن هناك من لا يريد لها أن تنتهي. بيد أن الواقع الأنصع والدرس الأشد عمقاً، الذي علينا أن نعيه، نحن السوريين، ونتعلمه، هو أنه لا غد لنا ولا مستقبل، إلا بتضميد جراح بعضنا والصبر على آلامنا، والمضي معاً على هذا الطريق.

لا أريد أن أعقّد قصتي البسيطة هذه، بتناولها من وجهة نظر سياسية، ولكني سأختمها بقصة أخرى، من تلك القصص التي ذكرت، وقد حدثت معي شخصياً: عندما دخلت محلاً لبيع الألبان في أحد أحياء اللاذقية البعيدة الواقعة في طرفيها الشرقي والشمالي – إن كان لإحداثيات كهذه أي معنى – وكان معلقاً على جدران المحل عدة صور صغيرة وكبيرة لشهيد من الجيش العربي السوري، فهمت من صاحب المحل أنه ابن أخيه. إلا أن الرجل، لدهشتي، قد عرفني، مستقبلاً إياي بسؤال لا أظنه كان ينتظر جوابه: «أنت الأستاذ منذر مصري الشاعر والمعارض؟». أجبت بغير قليل من التحسب: «نعم، أنا منذر مصري، بالتأكيد، والشاعر ربما، أمّا معارض، فهي كيف تفهم كلمة معارض». أجاب، وكأنه شعر بتخوّفي، ورغب بأن يخلصني منه: «أهلاً بك، كيف ما كنت، نحن السوريين أهل وإخوة، هكذا كنا في الماضي وهكذا سنبقى دائماً. وأنا وأنت وأناس كثيرون يعلمون، لمصلحة مَن تلك

الفرقة بيننا، ولمصلحة مَن خوفنا من بعضنا. ولا حاجة لي أو لك إلى قول المزيد». فلم يكن أمامي سوى الإصرار على دفع ثمن سطل اللبن، على الرغم من رغبته أن يقدمه لي كهدية تعارف، وأن أحمله وأخرج، بإحساس داخلي، وإن كان مؤقتاً، بالطمأنينة والأمل.

اللاذقية 19/ 10/ 2015

سنبقى.. ولو وقعت السماء على رؤوسنا!

إذا سقط النظام أو لم يسقط... سنبقى.

إذا كان ما حدث في سوريا «ثورة»، ثم شُوّهت وسرقت منذ نهاية سنتها الأولى، وتحوّلت، بقدرة الشياطين، إلى حرب لا تبقي ولا تذر... سنبقى.

إذا استولت «داعش» على الرقة وتدمر ودير الزور، واحتلت «جبهة النصرة» نصف حلب وإدلب والجسر... سنبقى.

إذا تهدّم نصف سوريا، وبقي ثلث سوريا، وهناك هواء وماء وكلأ.. سنبقى.

التقنين اليوم: 3 ساعات كهرباء و3 ساعات إطفاء. وكان منذ فترة قصيرة ساعة واحدة كهرباء و5 ساعات إطفاء. وتعلمون أن هذا ربما يعود قريباً، فقد حصل مرّات. بالنسبة لنا الكهرباء ليست مشكلة... سنبقى.

إذا دخل سوريا 50 ألف محارب من لبنان والعراق دفاعاً عن المزارات الشيعية المقدّسة، ودخل 150 ألف محارب من الشيشان وأفغانستان وليبيا والبلاد الأوروبية - تصوروا - دفاعاً عن الإسلام الحنيف... سنبقى.

إذا اعتبرت إيران سوريا خندق الدفاع الأول عن نظام ولاية الفقيه،

أم أن اتفاقها مع الولايات المتحدة والدول الغربية على برنامجها النووي، قد سحبها من المعادلة، وهذا ما لا أظنّه... سنبقى.

إذا نزح وهاجر وتشرّد نصف الشعب السوري، فنحن البقية الباقية... سنبقى.

إذا كان أجمل من في سوريا، شبابها، ومبدعوها، وفنانوها، غادروا، وما عاد حولنا سوى المحبطين والقانطين والمستسلمين لمصيرهم، وأنا منهم؛ فإننا، هنا بانتظاركم... سنبقى.

إذا كان هناك خطّة لتفريغ سوريا، أو لتغيير واقعها الديموغرافي، كما يقولون، ثم تسليمها إلى هذا الطرف أو ذاك الطرف؛ بالتأكيد... سنبقى.

إذا كان أولادنا، يحيون ويعملون في الخارج، وأبطلوا، غير مخيرين، عادة زيارة أهلهم، مرة أو مرتين في السنة، وبتنا نتواصل معهم وكأننا من عالم آخر، وهناك من يحسدنا على هذا... سنبقى.

إذا كان الدولار اليوم يعادل 340 ليرة سورية، وغداً 525 ليرة سورية، وإذا صار في المستقبل البعيد 1500 ليرة سورية، كما هي اليوم قيمة أختها الليرة اللبنانية... سنبقى.

إذا تناقصت رواتبنا من 600 دولار أمريكي، إلى 50 دولاراً أمريكياً.. سنبقى.

إذا صار ثمن كيلو لحم الغنم 3500 ليرة سورية، ومصيره أن يرتفع إلى 7000 ليرة سورية، سنبطل أكل اللحم وأكل الكباب... وسنبقى.

إذا وضعت «الأزمة» السورية على سكّة الحلّ، أو إذا الأطراف كلّها كان من مصلحتها استمرار الحرب إلى أمد غير محدد؛ فإنه لا خيار لنا... سنبقى.

إذا استمر في الحكم 6 أشهر فقط، أم 18 شهراً، كما تطالب روسيا، أم حتى نهاية دورته الرابعة 2028 كما نص الدستور السوري الجديد؛ إذا كتب الله لنا العمر... سنبقى.

إذا اتّفق على انتخابات شفّافة، وترشّح إليها أناس، منهم من نعرفهم، صوتاً وصورة، ومنهم من لم نسمع في حياتنا أسماءهم، ثم نجح فيها، في النهاية، أحدهم، كائناً من يكون... سنبقى.

سوريا ليست ملكاً لشخص، ولا لعائلة، ولا لطائفة محددة، ليحكم سوريا اليوم وغداً، من يحكمها، الحكام زائلون زائلون مهما خلدوا، ونحن الناس... سنبقى.

إذا كان التدخل الروسي لفرض حل عسكري بالقوة، أم أنه تمهيد لحل سياسي تتفق عليه الأطراف العالمية والمحلية كافة... سنبقى.

إذا غطّت السماء السورية الطائرات الحربية بأنواعها، الأمريكية والفرنسية والبريطانية والسعودية والكويتية والروسية والإيرانية والكوبية، ولا تنسى الكورية الشمالية، وبدأت حوادث التصادم والاشتباكات في ما بينها... سنبقى.

إذا تحققت المحافظة على وحدة الدولة السورية، من دير الزور إلى اللاذقية، ومن الرقة إلى درعا، أو إذا تقسمت سوريا إلى دويلات وكانتونات، هذه على رأسها الأمير فلان، وتلك يقودها القائد فلان، أقول لكم... سنبقى.

إذا كان من يحكم العالم أعضاءً في جمعية خيرية عمومية، أم رؤساء عصابات مافيوية خاصة، لا همَّ لهم سوى خداع الشعوب، وتخريب البلاد، ونهب خيراتها، التي فوق الأرض والتي تحتها... سنبقى.

إذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية لا تريد إزاحة الرئيس

السوري، وكل همّها الإبقاء على نظامه، أم أنه لا يهمها إلّا إشاعة الفوضى غير الخلاقة والقضاء على كل نظام عربي تقدمي أعلن يوماً عداءه لها. إلى أين نذهب؟ سنبقى.

إذا كانت إسرائيل وراء الخراب الذي حلّ في سوريا، باعتبارها الدولة العربية الوحيدة التي لم تدخل دائرة التطبيع، وذات نظام داعم للمقاومة والصمود، أو أنها السبب الحقيقي في استمرار النظام وبقائه مكافأة له على الحفاظ على شروط اتفاقية الهدنة المعلنة وغير المعلنة بينهما منذ إعادة القنيطرة المهجورة والمهدّمة إلى أحضان الوطن... سنبقى.

إذا مضى على بداية المأساة السورية 5 سنين، ولم يبق سوى أشهر أو سنة، أو سنتين، على نهايتها، فهذا يعني، أكثر من أيّ وقت مضى، أننا، لا محالة... سنبقى.

إذا كان على هذه الأرض ما يستحقّ الحياة، كما يقول محمود درويش، أم إذا لم يبق على هذه الأرض إلّا ما يستحق الموت، فليس لدينا خيار آخر... سنبقى.

... سنبقى. سنبقى هنا، لا ندّعي أيّ بطولة، ولا أيّ مأثرة، نأوي إلى بيوتنا، ما دام في جيوبنا مفاتيحها. نربّي أولادنا ما داموا معنا وبحاجة إلينا. نقوم بأعمالنا، ولو بصبر ومشقّة، ما دامت جارية وممكنة.

نتبادل مع جيراننا ومع من حولنا حاجاتنا وضرورات عيشنا، ما دمنا محكومين بالحياة معاً، كما كنا، وكما الآن، وكما سنبقى دائماً، ما دام هذا المكان، ما دامت هذه السوريا، وطننا الذي يجمعنا، والذي ليس لدينا سواه، مهما بلغ عقوقنا.

... سنبقى!

اللاذقية 31/ 10/ 2015

الراتب المقدّس في سوريا المفقّرة

الساعة 12 ظهراً، أمام الصرّاف الآلي للبنك العقاري في اللاذقية، صفّ طويل من الرجال والنساء، أغلبهم، في العقد الخامس أوالسادس من أعمارهم، يقفون بانتظار قبض رواتبهم التقاعدية. طابور طويل لدرجة اضطرتني لإرجاء قبض راتبي إلى فرصة أخرى. الساعة 7 مساء اليوم ذاته، لم يكن هناك أحد أمام الصرّاف، لكنّه كان خارج الخدمة. تتكرر محاولاتي غير الموفقة، حتى أتمكن بعد يومين أو ثلاثة، من سحب مبلغ 25 ألف ل.س، الحدّ الأقصى المسموح بسحبه في يوم واحد، والذي إن رغبت برفعه، لأتمكن من سحب راتبي دفعة واحدة، يستوجب علي دفع مبلغ شهري بحدود 500 ل.س. أجابتني الموظفة مبررة ارتفاعه، بأنه أقل من أجرة سيارة التكسي التي سأستقلها إلى البنك جيئة وذهاباً.

تستطيع أن تشاهد، أمام هذا الصرّاف وسواه، فيلماً قصيراً عن منعكسات ما يجري في كلّ سوريا على مدينة كاللاذقية، يبدأ بعرض صور أوراق النعيات التي تغطّي واجهة البنك الرخامية، بعد أن باتت أحد الأمكنة المفضلة لإلصاقها. شهداء من كلّ المناطق والطوائف والطبقات، حتى «الأرمن». فليس صحيحاً أن هناك طائفة محددة لشهداء الجيش السوري، يزدحم الشهداء إلى درجة يبدو بها الموت

الطبيعي، شاذاً، في غير مكانه، وغير وقته، طُبع عليها، في زاويتها اليسرى من الأعلى، أو في وسطها تماماً، صور أصحابها، الذين حرصوا جميعهم، قبيل رحيلهم، أن تؤخذ لهم صور بهذه المواصفات، يحتفظون بها عند أهاليهم، خشية أن تخلو منها نعياتهم، يبدون بها رافعين أسلحتهم، بابتسامات عريضة لا تنجح غالباً في إخفاء حزنهم وقلقهم. ولن تتوقع أن ترى بجانبها نعيات شهداء الطرف الآخر، وإن كانوا من المدينة ذاتها والحي ذاته، كما دون جنازات أو تعزيات. وأظنها لقطة سينمائية جيدة، أن تنتقل الكاميرا من صور الشهداء إلى الأحياء الواقفين في الطابور، وبصراحة أقول لكم، سيتبين للجميع أن أحوال الشهداء مع تلك الابتسامات، أفضل بما لا يقاس من أحوالهم، على اختلاف انتماءاتهم ومواقفهم ونظرتهم إلى ما يجري، التي تتبدّى في ما يقولونه، مازحين أم جادين، لبعضهم، وإن دون سابق معرفة:

-[والله دولتنا كريمة، لا نعمل ولا نقدم شيئاً، وهي، رغم ضائقتها، تعطينا رواتبنا].

-[يقولون سقط النظام منذ أربع سنوات، وهو لم يقطع الرواتب شهراً واحداً].

-[صدقاً، لا نستحقّ هذه الرواتب، أجمل شباب سوريا يموتون، ونحن نشكو إذا تأخرت رواتبنا يوماً واحداً].

-[والله، لو صار الراتب 10 دولارات، أشرف من 1000 دولار يشحدها السوري في الخارج].

أقوال كهذه تُردّد كثيراً، فلا شيء فيها محظور أو وخيم العواقب، ولكن إذا صادف أنه لم يكن أمام الصرّاف سوى شخصين أو ثلاثة، فإنّ من الممكن أن تسمع:

-[يسمونه راتباً، ماعاد يكفي لدخّان شخص واحد، فما بالك بعيش عائلة!].

-[ماعاد للنقود معنى، راتبي على ارتفاعه، لا يزيد عن 80 دولاراً، في الوقت الذي خفض راتب اللاجئ السوري في ألمانيا إلى 650 يورو، أي عشرة أضعاف راتبي].

-[فوق الموت عصّة قبر].

أمّا ما يمكن أن تسمعه من كلا الطرفين فهي أقوال غير محدّدة، لا تدلّ على اصطفاف سياسي، تظهر بطريقة مباشرة استسلام الجميع لواقعهم:

-[الحمد لله، نعمة، شيء أفضل من لا شيء].

-[لولا هذا الراتب لشحدنا].

-[لتخلص، وكلّ شيء يتصلح].

-[بتهووون].

وإذا كان ما سبق يصلح كنهاية سعيدة للفيلم، فإن الواقع الذي لا تصرّح عنه هذا الأقوال على تنوّعها واختلافها، هو أن ما يزيد عن 60% من عدد مستحقي الرواتب في سوريا قد حُرموا منها، بسبب انقطاعهم الاضطراري أو غير النظامي عن عملهم، وبالتالي توقّفت الدولة عن صرفها لهم، مطبّقة العديد من الإجراءات التدقيقية في عمليات قبض الراتب، وتجديد بطاقات السحب، التي باتت تحتّم وجود صاحب الشأن مع بطاقة هويته الشخصية، في كل عملية مالية، أي ما عادت تنفع قرابة الأب أو الأم أو الزوج، كما ما عادت تُقبل الوكالات العامة أو الخاصة في هذه الأمور. أمّا الوفر الثاني الذي تأمّن للدولة نتيجة انخفاض قيمة العملة السورية مقابل العملات الصعبة، فهو انخفاض

قيمة كتلة الرواتب للباقين من الموظفين والمتقاعدين إلى الربع أو الخمس، رغم الزيادتين الطارئتين عليها في السنتين الماضيتين، بلغت الأخيرة 2500 ل.س، أي ما يعادل 8 دولارات أمريكية.

ليس حديث الرواتب حديث تفكّه، ولا مجرد حديث عن جانب من جوانب الأزمة السورية، فالشعب السوري، منذ ابتلائه بالاشتراكية، تلك الاشتراكية أعني، صار شعباً يحيا على الراتب، شعباً من الموظفين والعمّال والمعلّمين والجنود الذين يرضعون من ضرع الدولة، فالسوري الذي لا يقبض راتباً شهرياً من الدولة، يحصى رسمياً، ضمن العاطلين عن العمل، حتّى وإن كان صاحب محل تجاري أو مالك أرض زراعية. نعم، الراتب مقدس في سوريا، مثله مثل جناسه، التراب، وربما أكثر، وبسبب قداسته المعترف بها من قبل الجميع، فإن «داعش»، مثلاً، تسمح للموظفين الرسميين بمغادرة «الرقة» كلّ أوّل شهر، لقبض رواتبهم، شرط أن يقصدوا «حماة» وليس سواها من مدن الكَفَرة. وأيضاً بسبب هذا الراتب، نعمة كان أم لعنة، سوريون كثيرون لم يغادروا بلدهم.

اللاذقية 19/ 11/ 2015

الطائرة الروسية.. كلما لاح في الأفق بصيص

ما إن يلوح للسوريين أن هناك، في نهاية النفق، بصيص أمل، حتى تأتي يد، ضخمة، وسخة، علق عليها دم يابس ودم لم ييبس بعد، وتطفئه، بل تسحقه.

يصغي السوريون، لأي صوت، لأي صدى، لأي نأمة؛ خبر من هنا، تصريح من هناك، تسريب خافت من تحت الطاولة، بيان بنقاط وتوصيات، يصعب عليهم حفظها، رغم تكرارها في كل البيانات.

يشخص السوريون، بعيونهم الزائغة، بأرواحهم الرخيصة، بكيانهم المهدود، لكل صورة، لكل خيال؛ مؤتمرات جنيف، اجتماعات موسكو، لقاءات ثنائية ورباعية ثم موسعة، موضوعها الأزمة السورية، وغايتها إيجاد حل لها.

وعلى مدى الخمس سنوات العجاف التي تكاد تقارب سنوات الحرب العالمية الثانية، في انتظار الخلاص، انتظار الحل السياسي الذي كثيراً ما لوّح لهم به الآخرون، تُرك السوريون لمصيرهم، لموتهم وتشردهم وضياعهم، وتُركت سوريا، لخرابها، ومأساتها.

قلت: تُركت سوريا، وربما الأصح، استُدرجت، دفعت، سيقت، صلبت.

ومن جديد، من بين أعمدة الغبار والدخان التي تصنعها القذائف والبراميل والصواريخ، لاح للسوريين، وميض، بريق، يشع لحظة ثم ينطفئ ثم يعود ويشعّ، نعم، صدّق السوريون، أن اجتماعات فيينا، هي بداية الحل، هي وضع القطار على بداية السكة، كما راح يعبّر المتفائلون، ومعهم بعض المتشائمين، منهم، وذلك لأسباب بدت للجميع واضحة، يمكن تلخيصها بأن العالم قد وصله لهيب الحريق السوري فعلاً، وبأن الدول التي صالت وجالت في الشأن السوري، نددت وهددت وعاقبت وأغلقت سفارات، تكاد تغرقها اليوم سيول بشرية من النازحين، ليس بالآلاف بل بمئات الآلاف، وربما بالملايين، في واحدة من أكبر موجات النزوح في العصر الحديث، والتي يبدو واضحاً أنها تفوق قدرة أوروبا على استيعابها، لا سياسياً ولا اقتصادياً ولا حتى إنسانياً. في حين، ولأول مرة، توجد على الأرض السورية، قوة دولية، جيش دولة عظمى، يستطيع أن يضع حداً للحرب، وأن، إذا ما تحقق الاتفاق بين هذه الدول، وعلى رأسها روسيا والولايات المتحدة الأمريكية، قطبا الصراع السوري، يفرض الحل.

فإذ، لحسن حظ السوريين، الذي رافقهم منذ أول استقلالهم، إلى قيامتهم هذه، تحدث هجمات باريس، 13/ 11/ 2015، التي نتج عنها 128 قتيلاً ومئات الجرحى، قبل مؤتمر فيينا الثاني بيوم واحد، وتأخذ آمال السوريين بأي اتفاق وشيك على حل سياسي لمعضلتهم، وتأتي لهم بدلاً عنها بحاملة الطائرات الفرنسية «شارل ديغول» بكامل ترسانتها الحربية الضاربة.

وكالعادة، اختلف السوريون، في فهم المجزرة الباريسية وفي تحديد أسبابها ونتائجها، وبعضهم لم يصدقها، أو لم يصدق أن «داعش» قامت بها، من نفسها. كما اختلفوا في اتجاه تأثيرها عليهم،

وعلى فرص الحل الذي كانوا ينتظرونه من «فيينا»، فمنهم من رأى أنها قد أطاحت بكل الحلول، ما دام الهدف الذي يضعه العالم الآن أمامه، ليس سوى القضاء على «داعش». ومنهم من تابع تفاؤله، ورأى أنها سوف تقرّب الحل العتيد، ما دام توافق السوريين ومشاركتهم جميعاً في إنقاذ بلدهم، بالنسبة للحرب على الإرهاب الأعمى في سوريا، يماثل وضع الحصان أمام العربة.

وبينما هناك سوريون ينامون ويستيقظون على هدير الطائرات النفاثة فوقهم، القريب والحاد للطائرات الروسية، والعميق والرخيم للطائرات الفرنسية، تقول زوجتي، وسوريون آخرون لا ينامون ولا يستيقظون في سوريا المجاورة، يقع حادث خطير وجلل، الثلاثاء 24/ 11/ 2015، قاذفة جوية روسية، من نوع سوخوي 24، مصنّعة لضرب الأهداف الأرضية، كانت تقصف في المنطقة المتاخمة للحدود التركية السورية الشمالية الغربية، أسقطتها طائرتان مقاتلتان من السلاح الجوي التركي، نوع F16، فيقتل، إثر إطلاق نيران من قبل مسلحي المعارضة، قائد الطائرة الروسية، وهو يهبط بمظلته، وبعده يقتل أيضاً جندي من البحرية الروسية، من أفراد الحوامة الروسية التي أرسلت للبحث عن طياري القاذفة، التي اضطرت للهبوط بسبب إصابتها بنيران أسلحة خفيفة، في المجال المجدي للصواريخ المضادات للمدرعات التي يحملها المسلحون هناك. أمّا الطيار الثاني، الذي ادّعى المسلحون قتله، واعتبر مفقوداً، حتى ظهر في مطار «حميميم» جنوب اللاذقية، يتكلم أمام جمع من الأشخاص مديراً للكاميرا ظهره، فقد كتبت له النجاة، إذ هبط بمظلته خارج مناطق المسلحين، واختبأ في أحد بساتين التفاح، كما أشيع، إلى أن جاءت وحدات خاصة من الجيش السوري وأنقذته.

إذا كانت هجمات باريس، بالنسبة للسوريين داخل سوريا، بعيدة، وليس لديهم، الكثير ليتكلموا عنها، فإنه يجب أن يقلقهم أشد القلق، ليس جميعهم، أعترف، إسقاط تركيا، كدولة من دول حلف الشمال الأطلسي، لأول طائرة حربية روسية، منذ أكثر من نصف قرن، وخاصة أن الروس لم يستطيعوا على أي نحو بلع ما اعتبره رئيسهم فلاديمير بوتين طعنة في الظهر، مهدداً بالعقوبات الوخيمة. أي إن الاتفاق الذي عوّلوا عليه، بين الدول الكبرى، والدول المتورطة في الشأن السوري في المنطقة، بخصوص بدء حلحلة العقدة السورية، قد صار في مهب رياح رد الاعتبار والغضب والأخذ بالثأر. وإن ذلك الوميض، البريق، الذي لمحوه في سماء فيينا، وحسبوه نهاية للنفق، لم يكن سوى وميض القاذفة الروسية التي سقطت فوق رؤوسهم.

اللاذقية 30/ 11/ 2015

السوريون في الخارج خونة.. وفي الداخل موالاة!

لا أدري إلى أيّ مستوى يمكن أن تصل هذه الأزمة، المفتعلة برأي الكثيرين، التي بدأت تطفو على السطح، والتي أراها آخذة في الانتشار والتصاعد، بين السوريين الذين غادروا سوريا، والسوريين الذين ما زالوا باقين فيها، أو، على وجه الدقّة، السوريين الذين يحيون في داخل الحيز الجغرافي، الذي ما زال تحت سيطرة النظام؛ دمشق العاصمة، ومراكز عدد من المدن السورية وأهمها حلب وحماه وحمص والطرق المؤدية إليها، والشريط الساحلي من الحدود التركية شمالاً إلى الحدود اللبنانية جنوباً، وقد بات محروساً جيداً من قبل القوات الروسية، بعد أن جعلته قاعدة حربية لها. الحيز الذي لا تزيد مساحته عن 30% من الأراضي السورية، بناء على تقديرات العديد من المصادر، ومنها الرسمية، التي لا تجد ما تبرره، سوى بأنّ ما يقارب 50- 60% من الجغرافيا السورية فارغة وخالية من السكان.

حتّى إنّها راحت تُعمَّم، ليس فقط بين النخب السورية، بل أيضاً بين عموم السوريين، وكأنّ هناك من يدفع بها، فكرة بسيطة تقوم على منطق شكلاني، تقول: «إنه ما دام السوريون الذين خرجوا من سوريا معارضين للنظام، فإنّ السوريين الذين بقوا داخلها موالون له!». فإذا كانت الجهة

التي يصدر عنها هذا الحكم داخلية وموالية، يكون سوريو الشقّ الأول خونة وعملاء وانتهازيين، والسوريون الباقون مواطنين صالحين. أمّا إذا كانت الجهة خارجية ومعارضة، فإنّ الحكم يصير معكوساً، والتهمة ستكون موجهة للشقّ الثاني من المعادلة، ويصير السوريون الباقون موالين وأتباعاً للنظام. وغيرها من المساجلات والتنابذات المنتشرة بين السوريين أينما كانوا، والتي هي إحدى المظاهر الجارحة لأزمة الوجود السوري، بأشكالها المتنوعة والقاسية، إن على المستوى الفردي الخاص، أو على المستوى الجماعي الشامل.

ليس جديداً اهتمامي بهذا الموضوع، فأنا أزعم، أنني، على حسابي في الفيسبوك أو التويتر، أو ككاتب مقالات في الصحف والمواقع الإلكترونية، كنت من أوائل المنبِّهين لخطورة تفريغ سوريا من شعبها، وربما بالغت وقلت: «لا شيء يعادل مأساة موت السوريين سوى مأساة نزوحهم وهجرتهم». بل بالغت بالتأكيد، حين رحت، كردّة فعل عصبية، أفكّر بمقاطعة كلّ من في الخارج، حتى إخوتي وأصدقائي، إلى أن بات الأمر، كما وصفه البعض، وكأنه هوس مرضي يتملّكني على نحو شخصي. ولم يكن جوابي، سوى الموافقة الكاملة على هذا التشخيص، ووعدي لهم، ولنفسي في الوقت ذاته، بعدم تناول المشكلة، مهما كانت عاطفية بالنسبة لي، إلّا بطريقة موضوعية ومنصفة.

ما أريد التنبيه له، تاركاً لكم الحكم عليه، سلباً كان أم إيجاباً، أن هناك شعوراً جمعياً بدأ ينتشر بين السوريين الباقين في سوريا بأن من غادروها أداروا ظهورهم لهم وهجروهم، وبأن من بقي، معارضين كانوا أم موالين، هم شركاؤهم الحقيقيون في الحياة والوطن والمصير.

وبقدر ما هو ليس صحيحاً على الإطلاق، بل يكاد يكون من العيب مجرد طرحه، أنّ السوريين الذين اضطروا بأغلبيتهم للخروج من

سوريا، للنجاة بحياتهم وحياة أطفالهم، أو حتى الذين آثروا الخروج دون أسباب اضطرارية للبحث عن حياة أفضل، وهذا حق معترف به لأي إنسان، خوَنة وعملاء وانتهازيون، لدرجة أن آخر من تهمّه مشكلتهم، كما يبدو، هو النظام السوري الذي يجب أن يكون المسؤول الأول عنهم؛ فإنه ليس صحيحاً أيضاً، ومن الغباء الشديد أيضاً أن يقال: إن 12 مليون سوري الذين ما زالوا يحيون داخل سوريا، هم برمّتهم، أو بأغلبيتهم، أو حتى بأقلية معتبرة منهم، مستفيدون وموالون للنظام. أو أنهم، بتفسير أقلّ تحاملاً، لا يستطيعون، لأسباب قاهرة، أو شبه قاهرة، مغادرة سوريا. الصحيح أنّهم، بأغلبيتهم، باقون، لأنهم آثروا الاستمرار في الحياة بين أهلهم، داخل بيوتهم، وفي مدنهم و وطنهم، وأن يموتوا ويدفنوا قرب قبور آبائهم وأمهاتهم، وبعضهم قرب قبور أبنائهم. والصحيح أنهم لم يستطيعوا أن يتخلّوا عن كلّ ما حققوه وجنوه وجمعوه في حياتهم، مادياً كان أم معنوياً، وأنهم تشبثوا بما بقي لديهم. والصحيح أن فرص النزوح والهجرة، وإن ازدادت صعوبتها، ما زالت متاحة لهم كما كانت متاحة لسواهم، إلا أنهم صبروا واحتملوا العيش تحت وطأة الأحوال القاسية ذاتها التي لم يستطع إخوتهم وأصدقاؤهم البقاء بسببها. والصحيح الصحيح أنهم لم يرغبوا أن يقتلعوا أنفسهم من جذورهم، ويتشردوا ويتوسلوا ويموتوا في غير وطنهم. وإذا قاطعني أحدكم الآن، وقال إن من غادروا، لم يفعلوا هذا اختياراً، فقد تهدّمت مدنهم وبيوتهم وقُتل أو خطف إخوتهم وأبناؤهم، فلست أنا من ينكر هذا، ولا من يستخف به، كما يجب ألّا ينكر البعض، أن هناك أيضاً من لم يكن لديهم سبب قاهر للنزوح أو الهجرة.

كلا، لا ينقص الشعب السوري، ولا يلزمه على الإطلاق، فوق كل ما يفرقه، ويختلف ويتحارب لأجله، أن يضاف إلى ثنائياته الشائكة، إذا

لم أقل، القاتلة، الحقيقية والمفتعلة، ثنائية أخرى، وتضاد جديد، يتبدى في معركة بين الداخل والخارج. بين أهل وإخوة، أيّ مطب هذا؟ ماذا يدفعنا لننسى واحداً من أروع الشعارات السورية، التي هتفت بها الموجة الأولى الناصعة والمضيئة من المتظاهرين السوريين، وكأنهم كانوا يشعرون بأهميته المطلقة: «واحد واحد واحد، الشعب السوري واحد»؟

وعلى أمل أن تسلم البقية الباقية من المدن والقرى السورية من الخراب والدمار، وينجو الباقون من الشعب السوري من الموت والتشريد، لأنه، ليس من مصلحة أحد، سوى من هدموا سوريا وأحرقوها، وقتلوا الشعب السوري وشرّدوه، يتبعهم الحمقى والرعناء والمأفونون، ألّا يبقى في سوريا مكان يصلح أن يستمر فيه السوريون بالعيش، مهما ضاق عليهم، ومهما بلغت قسوة حياتهم.

نحن، السوريين جميعاً، في الداخل والخارج، نحيا بانتظار الفجر.

اللاذقية 26/ 12/ 2015

قصة خوف سوري عادي

لا أدري، أو ربما أدري، لماذا كنت دائماً شديد الميل، إلى تشخيص محدّد للمرض العضال الذي كانت تعانيه سوريا وشعبها بأنه: «الخوف». ففي سلسلة من المقالات بدأت بـ«شعبان عبود، أنا خائف – 2005» و«مسودة دفاع عن تهم جاهزة – 2007» إلى «عودة الابن الخائف – 2014»، لم أجد ما أشبّه به خوف السوريين سوى بأنه الجدار الصخري الثقيل الذي يُطبِق على صدورهم ويخنق أنفاسهم ويكاد يسحق أرواحهم. قلت: «يكاد»، لأني لا أؤمن أن شيئاً مهما تعاظم تأثيره يقدر على قتل روح الإنسان، سورياً كان أو غير سوري، وبالتالي، فقد كنت أرى أن مطالب السوريين بالعدالة والحرية والكرامة التي هتفوا بها عام 2011، المطالب المحقّة، حسب التعبير الذي قرأته وسمعته مراراً – أقسم – وكأنه اعتمد رسمياً في الصحف والمحطات التلفزيونية التابعة للدولة، كانت في عمقها رغبة بالشفاء من هذا المرض، محاولة لتحطيم هذا الجدار، ولو بنطحه برؤوسهم الدامية، ذلك لأنه، مواصلة لوجهة نظري هذه المستمدّة من تجربتي الحياتية كسوري كما من تجربتي ككاتب، لا ظلم أفظع، ولا سجن أضيق، ولا ذلّ أقسى، من أن أكون خائفاً وجباناً، اسألني أنا!

إلّا أن اللاذقية التي تنعم بحماية النظام، فتبدو وكأنها جزيرة سلام وأمان ضمن محيط عاصف من الحرب والقتل، هي أيضاً تحيا تحت رحمته، وتحت أساليبه وطرقه المعروفة ذاتها، فلا شيء تغيّر في «سوريانا»، بل إن ظروف الحرب (الكونية حقاً) التي يخوض غمارها النظام السوري، ما كان لها إلا أن تزيد وسائله قسوة، وقبضته إطباقاً وضيقاً، الخيار الذي لا يستطيع النظام اتباع سواه. حتى وإن، فرضاً، رغب بأن يقدّم مثالاً طيباً على معاملته لمواطنيه، مراهناً على أن وضعهم في مناطقه مهما بلغت صعوبته، لا يمكن مقارنته بالوضع الكارثي والمأساوي الذي يعانيه إخوتهم في المناطق الأخرى التي تحت سيطرة معارضيه، والذي يتجاوز كل هذا ليصل إلى الخوف من الموت تحت الأنقاض بسبب القصف، أو بالقنص، أو الذبح.

وهذا الخوف، الذي خُيّل للبعض أنه هُدم، أو على الأقل أُزيح، عاد واحتلّ السوريين، متمظهراً، بشكل مباشر وغير مباشر، في كل نواحي حياتهم، حتى إنه يصحّ وصفه، بأنه خوف حياتي، معيشي، يومي، يبدأ من استيقاظ السوري محطّماً، نتيجة السهاد والنوم المتقطع ورؤية الكوابيس العجيبة عن الحرب والقصف والحواجز، ثم فتح الأقفال الثلاثة للباب الحديدي الذي لم يبخل رب عائلة، مهما بلغ سوء حالته المادية على تركيبه، والخروج من البيت للبحث عن لقمة العيش في هذا الوضع الاقتصادي المأزوم، أو قل: المنهار، ومن ثم لا ينتهي بالسهاد والنوم المتقطع ورؤية الكوابيس ذاتها، مروراً بالحواجز الأمنية والعسكرية والشعبية والمشتركة، الثابتة والمتجولة والطيّارة، التي على الذكور من عمر 17 إلى عمر42 تجنّبها دائماً، حتى الطلاب المؤجّلين والأبناء الوحيدين والمعفيين من الخدمة، فقد تمّ بواسطتها سوق الآلاف منهم إلى الحرب والشهادة، والتي على المواطن العادي

أن يتحسّب لها ما أمكنه، فيحمل هويته الشخصية، الخالية من أي كسر أو خدش، وإلا أوقف وحُقّق معه و«نال نصيبه»، وألا يتجول بسيارته وحيداً في الليل، على أن يحمل أوراقها الثبوتية كاملة، مع وصل التأمين الإلزامي للسنة الجارية، وإلا احتجزت وصعب إخراجها، إن وجدت، كما على المرأة المتنقلة في ميكروباص أو سيارة أجرة، ألا تضع في حقيبتها ما يمكن أن يثير الريبة، حتى الهاتف النقال، الذي يحتوي على صورة، اسم، رسالة ملتبسة، يدخل صاحبه في ما ليس بالحسبان، والأخطر هو أجهزة الحاسوب الشخصية، التي كثيراً ما يقوم عناصر الحواجز بفتحها وتفتيشها، حتى ولو كان صاحبها عميد كلية في جامعة دمشق، وهذا ما حصل.

وعلى ذكر مواقع التواصل الاجتماعي، التي باتت الوسيلة العامة للتواصل بين الناس جميعاً، فإن هناك قواعد للاحتراز والأمان خاصة بسوريّ الداخل، منها: إلغاء تطبيقات هذه المواقع جميعها، في حال أخذه لهاتفه أو حاسوبه عند سفره خارج البلد أو داخله، ومحو الرسائل الخاصة والمحادثات والصور، الحميمة منها والعامة، وخاصة مع سوريين في الخارج، ربما تربطه بهم قرابة أو صداقة شخصية. كما يخاف سوري الداخل ليس من إبداء رأيه السياسي أو الثقافي في شأن ما، بل أيضاً من مشاركة رأي آخر، أو حتى وضع إشارة «إعجاب». أذكر «معارضاً صنديداً» اكتشف أن زوجته وضعت «لايك» على «ستاتوس» سياسي، فاتّصل بها يقرّعها ويطلب منها حذفه مباشرة. كما أني غالباً ما ألتقي بأصدقاء ومعارف يخبرونني بأنهم قرؤوا أحد مقالاتي، ولم يضعوا عليه إشارة إعجاب، تخوفاً! المقالات التي أحرص ألّا أتخطّى فيها أيّاً من الخطوط الحمر، حتى الوهمية، والتي أخضع نفسي لتحقيق أمني متخيّل في كل نقطة كتبتها قبل إرسالها للنشر.

لا يتوقف هذا على احتمال مصادرة الأجهزة وتفتيشها، بل أيضاً، على تصديق أن كل مواقع التواصل مهما كانت درجة أمانها المعلنة، هي تحت مراقبة، وأن من يهمهم الأمر يستطيعون الدخول على أي حساب لأي متصل ومعرفة ما يقوله، أو حتى من الممكن، ضمن الفوضى القائمة، أن يفعل هذا شخص همّه الابتزاز. أمّا إذا شكّك البعض في قدرة الجهات الأمنية على مراقبة الجميع، فإن هناك من جنّدوا أنفسهم، لتنبيه هذه الجهات، إلى تجاوزات هذا، وتجرؤ ذاك، فالتقارير الأمنية، باتت أيضاً أسهل بواسطة هذه المواقع، وبالسرعة الكلية.

قد يُخيّل للكثيرين، رغم وجود العديد من الأدلة الملموسة، أن كل هذا لا أكثر من «فوبيا» تبثّها الجهات الأمنية لتسوس الناس وتكبحهم، إلّا أنّي لطالما وجدت أن الأوهام أقوى من الوقائع، والإشاعات والدسائس أشد تأثيراً من الحقائق، وأن مرض الخوف لا يشفيه شيء، سوى، ربما، الموت.

اللاذقية 4/ 1/ 2016

الحوار.. الحلقة الضائعة في المسلسل السوري

أذكر خلال أوّل مؤتمر للمعارضين والمثقفين السوريين، في فندق سمير أميس في دمشق بتاريخ 27/ 6/ 2011، أن أحدهم اقترب مني وانحنى قائلاً بصوت يستطيع سماعه كل من يجلس بجانبي: «انتبهوا، ميشيل كيلو وفايز سارة يريدان تمرير فكرة الحوار مع النظام، ووضعها في البيان الختامي، وعلينا أن نقف بوجهيهما!» خرج المجتمعون وسط صيحات التخوين الصاعدة من الشارع المقابل: «يا خاين برا برا». بأنه لا حوار مع النظام إلّا بتأمين مناخ ملائم، وبيئة صالحة للحوار، وذلك بإخراج المعتقلين السياسيين، وسحب الدبابات من شوارع درعا وبقية المدن السورية، ووقف العنف بكل أشكاله من قبل قوات الجيش والأمن، الشرط الذي كان أقرب إلى المستحيل بالنسبة للنظام.

فالشائع بين المعارضين السياسيين وقتذاك، ولليوم، أن دعوة النظام للحوار تحت مظلته، أحد الفخاخ السياسية التي ينصبها لهم، لا غاية له منها سوى اكتساب الشرعية لاستمراره في الحل الأمني، وجرّ المعارضة للوقوف كغطاء له، لينهي الأمر كما أعلن منذ البداية: «ليس أمامنا سوى الانتصار».

أكّد هذا الواقع، النتيجة التي انتهى إليها اللقاء التشاوري الأول،

والأخير، الذي عقد في منتجع «صحارى» خارج دمشق 10-11-12/ 7/ 2011، بدعوة من هيئة الحوار الوطني وبقرار من رئيس الجمهورية، وتحت رعاية نائبه فاروق الشرع، فرغم تأكيد بيانه الختامي في مادته الثامنة: «إن المعارضة الوطنية جزء لا يتجزأ من النسيج الوطني السوري»، لم يؤخذ بأي من مواده، كما الخامسة والسادسة: «الإفراج الفوري عن المعتقلين السياسيين، وإطلاق سراح الموقوفين خلال الأحداث الأخيرة». وبعد ذلك، شيئاً فشيئاً، عُزل فاروق الشرع عن دائرة الحكم، إلى أن أُقيل من منصبه كنائب للرئيس أواسط عام 2013.

والأشد من هذا تواضعاً، كانت جلسات الحوار الوطني التي عُقدت في المحافظات السورية، بمشاركات نقابية وشعبية وشخصيات، فقد أظهرت الرفض القاطع، لأي نقد أو مطلب أو اقتراح، مهما بلغ اعتداله، يتقدم به مشاركون حياديون صدّقوا دعوة الحوار، وأنه في مقدورهم أن يدلوا بآرائهم حول ما يجري وسبل الخروج منه، فأخرجوا وهُدّدوا، وهي كانت تخلص، بمواجهة الكارثة، إلى: «إعطاء الأولوية لحاجة السوق المحلية من السلع قبل تصديرها للخارج»، و«تشجيع المشروعات الزراعية الصغيرة والاهتمام بالاستثمار السياحي»!

أما أهمّ تجمّع للمعارضين السوريين في الداخل «هيئة التنسيق الوطنية»، التي أصدرت بيانها في 6/ 10/ 2011، بلاءاته الثلاث الشهيرة: «لا للطائفية/ لا للعنف/ لا للتدخل الخارجي»، وأيضاً: «لا للحوار مع السلطة»، فقد حرصت أن تبرّئ نفسها من قبولها الحوار مع النظام، الذي كان يعتبر بمثابة تهمة، وحتى خيانة لتطلعات الشعب السوري وتضحياته.

وإن كان هذا يصل بنا إلى حقيقة، أن فرصة الحوار في سوريا، لم تكن يوماً سانحة، وبتعبير أدق، لم تكن حقيقية ومجدية، فإن البعض

يقول إنه في النهاية لا بدّ أن يجلس الطرفان، أو، الأطراف، على طاولة الحوار، ويتحاوروا. وقد حدث هذا مرّة أو مرّتين، الأولى في جنيف 22/ 1/ 2014، تحت إشراف دول «مجموعة العمل من أجل سوريا»، وعلى رأسها روسيا والولايات المتحدة الأمريكية، عملاً باتفاق (جنيف – 1) المعلن في 30/ 6/ 2012، والذي وافق عليه النظام والمعارضة، كلّ منهما بفهمه الخاص، والذي حدّد بصريح العبارة أن حل الصراع لن يكون عسكرياً، بل بواسطة حوار سلمي بين السوريين، وعن طريق التفاوض حصراً، مؤكّداً وجوب أن يكون الحوار مجدياً، أي أن تنفذ نتائجه. غير أن هذا الحوار، رغم الضجة الإعلامية الكبيرة التي أثيرت حوله، لم يخرج بأي نتائج، وخاصة بحلّ عقدة الرئيس، وصلاحية الحكومة الانتقالية التي يفترض تشكيلها، لتعبر بسوريا إلى دولة ديمقراطية تعددية بحقّ، كما عبّر البيان حرفياً. أمّا فرصة الحوار الثانية، الأقل أهمية بما لا يقاس، فقد كانت في بداية العام المنصرم في موسكو بدعوة وزارة الخارجية الروسية لـ28 معارضاً سورياً في الداخل والخارج، أهمّهم لم يذهب، فشلت في أن تكون بالحد الأدنى من الجدوى.

الآن، وبعد خمس سنوات، من انحدار سوريا للخراب والدمار والموت، خمس سنوات من صراع الدول العظمى على مصالحها ومواقعها الاستراتيجية، ودول المنطقة على مصائرها، كأنظمة وكيانات وتحالفات، وبعد مؤتمر (فيينا – 2) وقرار مجلس الأمن 2254 في 18/ 12/ 2015، القاضي بعقد مفاوضات رسمية بين ممثلي الحكومة والمعارضة السورية، في الشهر الأول من السنة الحالية. وكأنه ما زال العمل سارياً بشعار المعارضة السورية: «لا حوار مع النظام»، فقد صرح رئيس الائتلاف السوري المعارض، بأن وفد المعارضة:

«ذاهب إلى جنيف للمفاوضة وليس للحوار مع النظام»، وذلك بعد أن أقامت الولايات المتحدة الأمريكية دورات تدريبية لأعضاء هيئة العليا للتفاوض، على مهارات التفاوض!

ورغم تواتر المصطلحين «الحوار» و«التفاوض» دون تفريق شديد، في أغلب التصريحات المتعلقة بالجولة الثالثة من «المحادثات»، كما جاء في بيان البيت الأبيض 15/ 1/ 2016، بأن أوباما وبوتين اتّفقا على رعاية حوار مثمر بين المعارضة السورية والنظام، فإن هناك خلافاً جوهريا بين العمليتين؛ فالحوار عموماً غير مؤطر، يتمّ بين أطراف لا يشترط اعترافها ببعضها، تتبادل الآراء دون حتمية الوصول إلى قناعات أو نتائج. بينما التفاوض مواجهة بين أطراف متنازعة لتحقيق مكاسب محددة مقابل تنازلات، حسب توازن القوى. غير أن سؤالي: «إذا كان كل شيء متوقفاً على توافقات الدول ذات القرار في الحالة السورية، التي ترعى وتملي وتفرض، فما دور المهارات التفاوضية في الوصول إلى أي نتيجة؟».

ولكن، مهما كانت النتائج، ومهما كان الحل السياسي الذي ستمضي إليه سوريا، قريباً أو بعيداً، فإن الحوار بين السوريين، باعتبارهم طرفاً واحداً، شعباً واحداً، الحوار لا التفاوض ولا التنازع، الحوار على خلفية الماضي المشترك، والمستقبل المشترك، لا على خلفية الخصومات والعداوت، يكتسب من الأهمية ما يجعله الطريق الوحيد لاستمرارهم في العيش المشترك والحياة الآمنة والحلم بمستقبل أفضل، على أرضهم، وفي وطنهم.

اللاذقية 25/ 1/ 2016

السؤال: على ماذا نراهن؟

«مساهمتي في ملف مجلة الهلال المصرية، عدد شباط (فبراير) 2016، عن مستقبل الشعر العربي المعاصر»

وكأنني أخالف، جملة وتفصيلاً، كل الأطروحات الفكرية التي تضمنها تقديم الملف أعلاه. ليس لأن قاعدة «خالف تُعرف» التي كان يعيّرني بها أبي، وأناس كثيرون جاؤوا بعده، كانت وما زالت الأساس الذي تقوم عليه تجربتي الشعرية والحياتية معاً، بل لأني، وهذا ما وجدت نفسي عليه، منذ البداية لليوم، على الضفة الأخرى من النهر، أو لأقل، على الرصيف المقابل للشارع، إن لم أقل وسط الشارع نفسه، ما دمت أريد أيضاً، أن أبدي عدم موافقتي على أن الشعر هو ابن الطبيعة البدائية، وعلى أنه هاجس رعوي في مواجهة المدنية الحديثة، كما يوماً قرأت وأحببت ولكن لم يقنعني، ما كتبه الشاعر الإنكليزي ويستان هيو أودن (عن محنة الشاعر في أزمنة المدن)، لأنه، بعرفي، ليس للشعر بنية ثابتة مؤبدة، بل هو كسواه، ككل شيء، خارج الجمادات والأشياء، ذو بنية متحولة ومتغيّرة، بتحول وبتغيّر الواقع والمحيط والسياقات. فإن كان الشعر هاجساً رعوياً يوماً، فلماذا عليه، وكيف بمقدوره، أن يبقى كذلك أبداً؟ وبالنسبة لي، أنا ابن مدينة، وابن حي، الشعر، بالنسبة لي، هاجس مديني، هاجس شارعي، وهاجس غرفوي، ليس مصادفة

أن أحد أقسام مجموعتي الشعرية الثانية «بشر وتواريخ وأمكنة» الذي ظنه البعض كتاباً في الجغرافيا، كان «قصائد من الغرفة»، وبالتالي، قد يغدو هاجساً نوافذياً، وربما جدارياً:

[طويلاً أقمتُ في هذا البيت
طويلاً مكثتُ في هذِه الغُرفة
على هذا المقعد
فوقَ هذا السَرير
تحتَ هذا السَقف.
/
طويلاً أقمتُ في هذا البيت
طويلاً مكَثتُ في هذِه الغُرفة
عِندَ هذِه النافذة
وراءَ هذا الباب
بينَ هذِه الجُدران.
/
وعِندما حزَمتُ حقيبتي وخرجت
ما إن أدرتُ ظهري
حتّى سمِعتُ جِداراً يُنادي اسمي.]

إلّا أن ذلك، ولا أدري إن كنت أبسّط الأمر إلى حد البداهة، لا يعني مجافاة الطبيعة وكرهها، المدن الحديثة تحتوي حدائق كبيرة، بأزهار وحشائش، وصفوفاً من الأشجار على الأرصفة. وبعضها تخترقه أنهار، أو على سواحل بحار، كما أن الشمس والغيوم والقمر والنجوم، تقوم باستعراضاتها وألعابها النارية في سمائها، ليلاً ونهاراً، مما يبقيها تحت

رحمة الأمطار والعواصف والأعاصير، وأيضاً... الزلازل. لذلك أرى أن الاستشهاد بما قاله «يوهان فولفغانج فون جوته» عن أن المجتمع الراقي عدو للشعر، يكاد يكون، من أي جانب نظرت إليه، لا معنى له اليوم. فأولاً؛ إن تعبير المجتمع الراقي لا يتلاءم مع مفهوم المدنية الحديثة، حتى يكاد يكون غريباً عنها. وثانياً، أظن أن «جوته» نفسه ومعاصريه من شعراء وموسيقيين، كرفيقه شيللر مثلاً، كانوا جزءاً من النظام الأرستقراطي، الذي يصح تفريق المجتمع فيه إلى راقٍ ومتخلف، والذي هو بالذات كان الراعي، ولو لدوافعه الخاصة، للموسيقيين والأدباء، أليس صاحب «آلام فارتر» هو القائل: «الكلاسيكية صحة، الرومانسية مرض»، فيرد عليه «بيتهوفن»: «جوته يؤدّي دور رجل البلاط باستمتاع لا يليق بمثقف». وثالثاً، لماذا على الشعر أن يبقى أسير المجتمع الراقي؟ لماذا لا يكون طليقاً بين الناس؟ لماذا لا يكون هدفه إلغاء الفروقات بين طبقات المجتمع؟ أهذا برأينا يوتوبيا؟ ولكن أليس الشعر يوتوبيّاً، يُكتب ويُقرأ ويُغنى ليقاوم المستحيل؟ لماذا لا يكون عمله جعل الجميع (راقين) متحضّرين؟ بالتأكيد هذا واجبه، لأن هذا ما ينجيه من المصير الذي نخاف أن يصل إليه، ولم يكن يتوقعه، حسب تعبيركم، أشد المتشائمين، الذين لحسن الحظ لست واحداً منهم! لا أقصد هنا، ما درج البعض على استدراكه، وإن كنت أصدقه، بأن للشعر أوجهاً وأشكالاً متعددة ومتنوعة، يستمر ويبقى حياً فيها، خذ الأغنيات مثلاً، التي قال يوماً عنها «بيتس»: «لا أطمع لقصائدي أكثر من أن يكون لها تأثير الأغاني»، نعم لا أظن أشعار (Paul McCartney) التي نشرها في كتابه (Black bird singing–1999) أهم من أغنية (Yesterday)، وبالتأكيد لا أظنها تقارن بـ(Eleanor Rigby). ولا أدري إن كنتم تعلمون أن مغني الفولك الأمريكي (Bob Dylan) مرشح لجائزة نوبل

للشعر، كأحد أكبر المؤثرين في ثقافة القرن العشرين. كما أن المغني والشاعر الكندي (Leonard Cohen) في ألبومه الذي أحضرته لي أختي مرام من فرنسا (Various Positions–1984) أقوى مؤثر شعري (أعلم أن هذا شيء يخصّني وحدي) في كتابي (الشاي ليس بطيئاً–2004). لا بل إنني أعني الشعر المكتوب والمطبوع والمقروء ذاته، الذي خبرت وشاهدت بأم عيني كيف يستمر في البقاء والحياة، حتى في بلد منكوب كبلدي سوريا، الذي رغم هجرة أغلب شعرائه، يفاجئك ببزوغ شعراء شباب، ذوي أصوات جديدة ومختلفة، يتابعون كتابة القصيدة السورية، بجرأتها المربكة، ونكهتها اللاذعة، ونبرتها الحزينة بآن. فما بالك كيف يحتفى بالشعر والشعراء في اليونان وفرنسا وبريطانيا والسويد، وأسبانيا وبقية بلاد العالم (الراقية)، حيث عرفت هناك بلدات شعرية، تسمي شوارعها وساحاتها بأسماء شعراء، ولدوا فيها، أو قطنوا لفترة، أو فقط حدث أن مروا بها!

ولكن، في الوقت ذاته، علينا أن نفهم، ولا أدري ماذا يدفعني إلى هذا الحد من التبسيط مرة أخرى، أن جماهيرية الشعر والشعراء، لا يمكن أن تكون مثل جماهيرية المغنين، أو الممثلين السينمائيين، أو لاعبي كرة القدم. ذلك أن نوع التقدير والإعجاب، بقدر ما هو منتشر وعام وصاخب بالنسبة لهؤلاء، هو مكثف وخاص وصامت بالنسبة لأولئك. وهذا ما أراه في منتهى الطبيعية، لأنه يعود أصلاً لنوعية النتاج نفسه، الشعر والأدب عموماً. لذا لا مجال للمقارنة، بين نجيب محفوظ، الأشهر بين الأدباء العرب، والأكثر شعبية، وأم كلثوم، أو عبد الحليم حافظ، أو عمر الشريف، على سبيل المثال.

وما دمت شاعراً سورياً، وعلى معرفة، ليست بقليلة عن الشعر السوري، ناتجة عن معايشته وخوض معاركه، منذ أربعة عقود، على

الأقل، والتي سمحت لي بكتابة الجزء الثالث من أنطولوجيا الشعر السوري بعنوان «انعطافة السبعينات»، ومن ترصدي لمظاهر الرفض وعدم الرضا والثورة التي كانت تسري كالدم الأحمر الفائر في أوصاله، فأنا لا أجد أنه من الإنصاف اتّهامه بعدم المساهمة في إنجاز الثورة المجتمعية، وأنه وقف ضد حق مجتمعه وإنسانه في التطور وفي محاولته للصعود إلى السلطة، وأنه كان مدافعاً عن اللا مساواة، ومحتقراً للتقدم كقيمة إنسانية ومجتمعية. لا يضير الشعر السوري أن يقف بعض شعرائه موقف المتردد أو المشكك، من ثورة الشعب السوري، لأجل الحرية والعدالة والمساواة، لأنه برمته، وبكل أجياله، وأنواعه، كان يدعو للثورة وينتظرها، وليس هنا المجال لإعطاء أمثلة، ولكن ولكن كيف لا أذكر ذلك المقطع من شعر أبيهم «الماغوط» الكبير:

[مذ كانت رائحة الخبز شهية كالورد – كرائحة الأوطان على ثياب المسافرين – وأنا أسرّح شعري كلّ صباح – وأرتدي أجمل ثيابي – وأهرع كالعاشق في موعده الأول – لانتظارها، الثورة التي يبست قدماي بانتظارها].

أو من شعر وعلهم الذبيح «رياض الصالح الحسين»:

[اعتدتُ – أن أعدّ القهوة كلّ صباح لاثنين – أن أضع وردةً حمراء في كأس ماء – أن أفتح النوافذ للريح والمطر والشمس، أنتظركِ أيتها الثورة].

ذلك أن الشعراء السوريين، كماً ونوعاً، ناصروا الثورة السورية بتجلياتها الأولى، وساندوها، منذ البداية إلى اليوم. فكان أن اتهموا، بعكس ما ذُكر هنا، بالتخلي عن موقف الشاعر واتخاذ موقف الشارع. وغالباً ما لم يكتف باتهام كهذا، مما اضطر أغلبهم للنزوح والسفر خارج وطنهم، وهنا أيضاً ليس المجال لإعطاء أمثلة.

أمّا عن مشكلة حلول السرد محل الشعر، وعن فشل الشعر الحديث، في الوقت ذاته، في إنتاج سرديات تاريخية كبرى، فأنا في الحقيقة لا أضع هذا ضمن مشاغلي على الإطلاق، لأني لا أدري لماذا يجب على الشعر مواجهة ذلك، ما دام الأمر بات خارج فعاليته، وخارج سياقه الخاص والعام. ولكن إن كان الأمر يتعلق بالمنافسة مع أنواع الفنون الأخرى، كالرواية مثلاً، بما أنها نتاج سردي مسيطر، فيمكن، من هذه الزاوية، اعتبار ذلك نوعاً من أنواع التحدّي، الذي يرى البعض أنه من المحتم على الشعر مواجهته. إلّا أن التحديات التي تطرحها اليوم آليات التواصل والانتشار ما بعد الحداثية، تكاد تشكل أزمة لجميع أشكال كتابة وانتشار الآداب والفنون.

في الخاتمة... هناك دائماً، كان وما زال، أنواع عديدة من الشعر، وأنواع عديدة من الشعراء، دون أي حكم بالقيمة أو الأهمية بين بعضهم، لمجرد أنهم من هذا النوع من الشعراء، ويكتبون هذا النوع من الشعر. ولكن بالنسبة لي، حتى ولو كان رهاني على الحصان الذي يعرج الآن في نهاية السبق، لطالما كان الشعراء الذين أحببتهم، وتأثرت بهم، هم أولئك الذين يتجهون بأبصارهم إلى حيث تشرق الشمس، وإلى حيث يبزغ الأمل، الشعراء الذين وضعوا أنفسهم، ووضعوا مواهبهم وفنهم، في خدمة أبناء أوطانهم ومن ثم أبناء جنسهم، وعاشوا وكتبوا وماتوا في سبيل حياة أفضل للناس حولهم وبعيداً عنهم، وإلى مستقبل أفضل للبشرية جمعاء، والعالم برمته.

اللاذقية 1/ 2/ 2016

الأقليات من المتحول إلى الثابت

إلى صديقي عبد القادر هلال (1931–2015) الذي سألني، عندما عرضت أمامه فكرتي هذه: «لماذا لا تكتب هذا الكلام؟».

1- شرط الخروج عن القبيلة

لم أكتبه لأني ما كنت يوماً دارساً «سوسيولوجياً»، أو «ديموغرافياً»، وما زلت أبعد ما أكون عن كليهما. لهذا لن يتجاوز ما سأكتبه حدود النظرة الشخصية، لفكرة، كثيراً ما شغلتني، كشاعر (حديث إلى أبعد الحدود)، أكثر مني كخريج كلية العلوم الاقتصادية، وعامل لمدة 32 عاماً في مجال التخطيط الاقتصادي، أنتمي، بحكم الولادة، إلى جماعة، صادف أن كانت «أكثرية» عددياً، وليس فعلياً، أي بالمعنى السياسي والثقافي والاجتماعي، وفي الحيز «الزمكاني»، الذي يجعل مستغرباً أن يخرج منها هذا النوع من الشعراء. فمنذ بداية عقد السبعينيات من القرن المنصرم إلى نهايته، كان أغلب أبناء جيلي من الشعراء والفنانين، من الجماعات، الفئات، الأخرى، الذين، بوعي منهم لهذه المفارقة أو دون وعي، راحوا يزورونني في بيتي دون سابق معرفة، ليشهدوا هذه الظاهرة العجائبية، حتّى وقع في روعي كلام نُسب مرة إلى شاعر سوري كبير، أنه لا يمكن لأمثالي أن يكونوا شعراء دون خروجهم عن «جماعتهم»،

بينما لا يسري هذا الشرط على شعراء الجماعات الأخرى، لكونهم من جماعات خارجة أصلاً.

2- تعريف الأقلية

تعرّف «الأقلية» بكونها الجماعة الأقلّ عدداً، وذات هوية خاصة (قومية أو عرقية أو مذهبية أو...)، تميزها عن محيطها العام، الذي تشكّله، عموماً، الجماعة الأكبر عدداً، والتي يطلق عليها (الأكثرية -الأغلبية)، والتي، كما يبدو، من المحتّم، في المجتمعات ما دون المواطنة والحكم الديمقراطي الحقيقي، أن تتسلط على الأقليات وتحرمها من ممارسة حقوقها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، سامحة لها فقط بما هو هامشي وعرضي؛ ما يولّد لدى الأقليات، شعوراً بالمظلومية وعدم الرضا، يولّد، كردّ فعل طبيعي، دافعاً للتصدّي لهذا العسف الظاهري منه والخفي، والعمل على خلق واقع اجتماعي متغاير، لا يسمح للأكثرية بمتابعة عسفها، ولكن من دون المواجهة المباشرة، وبالوسائل غير العنفية غالباً، وذلك لأنها خاضعة لمعادلة غير متكافئة في ميزان القوى، عدداً وقدرات. من هنا يأتي الدور التاريخي المميز للأقليات، بنشرها للثقافة المخرّبة، بالمعنى الإبداعي للكلمة: (جاء العصفُ الجميلُ، ولم يأتِ الخرابُ الجميلُ - أدونيس) للثقافة السائدة، وإنشاء الأحزاب السياسية الهادفة للتغيير، ودفع المجتمع على طريق محو الفروق والتمايزات بينها وبين الغالبية. وليس من دليل أنصع على هذا، من الدور الذي لعبته الأقليات في تحديث مجتمعات المشرق العربي، ونشر الفكر التقدمي، القومي واليساري، فيها.

3- حكم الأقلية

غير أنه يحدث، في البلدان التي لم تتثبت فيها آليات الحكم

الديمقراطي بعد، والتي تتحكم بمصائرها النخب العسكرية، والسياسية الانتهازية، أن تصل، بواسطة الثورات والانقلابات، إلى سدّة الحكم، أقلية ما، طبقة، طائفة، حزب، عشيرة، ما يطلق عليها «أرسطو»، منذ ألفين وأربعمئة سنة، اسم «أوليغاركية»، المشتقة من كلمتي «أوليغوس» وتعني «أقلية» و«أرغو» وتعني «حكم»، وكيف أنه، على حد تعبيره، تعمل هذه الـ«أوليغاركية» على الاستئثار بالسلطة، برفضها أي مشاركة حقيقية للآخرين في اتخاذ القرارات، وإصرارها على عدم تداول السلطة وعدم التنازل عنها إلا بالوسائط ذاتها، العنفية غالباً، التي حصلت بها عليها. من هنا، عند هذا المفصل، برأيي يتغيّر دور الأقلية، من كونها جماعة مغبونة وناقصة الحقوق، إلى جماعة مسيطرة ومهيمنة، ومن كونها عاملاً إيجابياً للتغيير، ورافعة عضوية لتقدم وتطور المجتمع، إلى عامل سلبي، قيد، أو رسن مشدود على عنق المجتمع لإبقائه تحت سيطرتها، وسوقه للوجهة التي تضمن استمرارها واستمرار مصالحها.

4- انقلاب الأدوار

وبقدر ما كانت الأكثرية تزدري الأقلية، وتعتبرها عنصراً زائداً عن الحاجة في المجتمع، يصير الخوف من الأكثرية كابوس الأقلية المسيطرة، ويصير إضعافها، وتهشيمها، شغلها الشاغل، وذلك بالعمل على كسر قشرتها من الخارج، واختراقها والتأثير عليها من داخلها، بهدف الحفاظ على امتثالها وخضوعها لها، ومحو أي قدرة كامنة فيها لتجميع قواها واسترداد حقوقها، وذلك باستخدام الترغيب (الإفساد) للبعض من أفرادها، بالمناصب والامتيازات، التي تأتي بالثروة والسلطة، ولو المحدودة، لدرجة قد يخال هذا البعض أنهم

جزء منها، وذلك لأنه لا مانع لديها من تقريب هذا أو حضن ذاك، مهما كان انتماؤه المذهبي أو السياسي، ما دام يقبل بها، ويعمل معها، ويخدم أهدافها. وفي المقابل الترهيب الجماعي لهذه الأكثرية، الذي من طبيعة الأمور أن يعمم، مع الوقت، وتبعاً للحاجة، على كل فئات الشعب، دون تفريق.

بهذا تفقد الأقلية، ليس فقط دورها التاريخي الشديد الأهمية والتميز، بل أيضاً أهم وأجمل خاصياتها، هي الحاملة لقيم الحداثة والتغيير والانفتاح، والملجأ الذي يجد به ملاذهم الخارجون من جمود الأكثرية وتشددها، فتغدو الأشد تعصباً، والأشد رفضاً للآخر، والأشد انغلاقاً على نفسها من الجميع، تخاف، أشد ما تخاف، من العالم الخارجي، مصعدة نحوه مشاعر العداء والكره. وما أظن هذه الحساسية الفائقة، في ما يتعلق بمفهوم السيادة، سوى جزء من الانقلاب الذي تصير الأقلية عليه، في حال تفردها بالسلطة.

5- الحل

لا، ليس حكم الأكثرية (المذهبية - القومية - العرقية)، هو المخرج الأمثل لمجتمعاتنا من معضلاتها المستعصية، وخاصة، نحن - السوريين - الذين دفعنا الثمن غالياً، ونحن نتخبّط بدمائنا في لجّة هذه الثنائية القاتلة، بل الحل الوطني، العادل الشامل، ودولة القانون، التي تضمن المواطنة للجميع، وتحفظ حقوق الأفراد والجماعات، على حد سواء، وتعيد الحياة السياسية للمجتمع، ليقوم الشعب، مصدر السلطات، باختيار ممثليه وحكّامه، بإرادته الحرة، وبالطرق الديمقراطية السليمة، تبعاً لمصداقيتهم الأخلاقية والوطنية، ولبرامجهم السياسية والاقتصادية، التي تحقق آماله بوطن آمن وحر وكريم.

وهذا ما بات، بظنّي، حقّاً مؤكداً للسوريين، دفعوا ثمنه بدمائهم وأرواحهم... فماذا أكثر؟

اللاذقية 5/ 2/ 2016

القاموس اللغوي الضيق للنظام والمعارضة السورية

مرة، وصفت اللغة التي يستخدمها النظام السوري، في خطابه السياسي والإعلامي والثقافي، بأنها ذات قاموس ضيق، محدد، شديد الحساسية، لدرجة العصابية، لا يقبل من خارجه أي مفردة أو تعبير مهما بلغت حياديته، وكان مثالي حينذاك، كلمة «إصلاح»، ذلك بإعلانه وقتئذٍ، أنه لا شيء معطّل ومتوقف عن العمل في المحرك السوري، والحافلة السورية تمضي صعداً وإلى الأمام في طريقها المعبّد والمرصوف بكلّ سلاسة وكفاءة، فإن كان هناك ما يستدعي الصيانة، بسبب بعض الظروف والأحداث الطارئة، فليس أكثر من إجراء بعض «التطوير والتحديث» الذي اعتبر شعار المرحلة، وربما، تبديل بعض الأجزاء (الحرس الجديد بالحرس القديم) مثلاً، لأداء أقوى وأفضل. أمّا مفردة: «التغيير»، فقد اعتبرت كفراً صريحاً، تغيير ماذا يا رجل؟

إلّا أن الحدث السوري، الذي بدأ أول عام 2011 ولم ينته إلى اليوم، قد كشف مفارقات لغوية كبرى في قاموس الجيب هذا، فمفردة «حرية» مثلاً، ثاني كلمات شعار حزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم في سوريا منذ الثامن من آذار 1963 حتى اليوم: «وحدة، حرية،

اشتراكية»، الذي ما زال يُهتَف به كلّ صباح في المدرسة الابتدائية التي تطل عليها نافذة بيتي، وذلك بالرغم من إلغاء المادة الثامنة من الدستور السوري الذي عُمل به منذ عام 1971، التي نصت على أن: «حزب البعث العربي الاشتراكي هو الحزب القائد في المجتمع والدولة»؛ تلك المفردة اضطرّت السلطات السورية لمحوها، والطلس بالزفت فوقها أينما كُتبت، فتحوّلت إلى ما يشبه رسماً لغول أو حيوان غامض مخيف، ولكن مرة رأيته كطائر العنقاء.

ثم تأتيك مفردة المفردات، كلمة الكلمات، جوهرة التاج: «ثورة». المفردة التي كان النظام يطلقها على واحدة من ثلاث صحفه، والتي كان يحتفل بها سنوياً بأكثر من مناسبة، ها هو ذا يقصيها من قاموسه، بوضع علامة (إكس) حمراء فوقها. وليس فوقها فقط بل فوق من يلفظها مهما كان السياق، مما اضطرّ بعضنا، ومنهم أنا، في حال اضطراره لكتابتها، لوضعها بين قوسين دائماً. أمّا المعارضون، فقد تحولت لديهم إلى ما يقارب المقدس، وبات كل من يوصف الحدث السوري بكلمة سواها، كما فعلت لتوي، وأسميته «الحدث»، أو «المأساة»، أو «الأزمة»، وخاصة «الأزمة» فهو، لا أقل ولا أكثر، من شاهد زور، ملفّق، خدّاع، ستحلّ عليه لعنة الشعب السوري إلى أبد الآبدين!

لكن بيت القصيد في مقالي هذا هو مفردة أخرى أشد التباساً، وربما أشد خطورة، وهي «النظام». الكلمة التي لا تتضمن في معناها اللغوي، المباشر، أيّ عيب، أو أي سلبية. فعندما تقول: «نظام»، فهذا يعني القانون، والتراتبية، والاتساق، أي بنية ذات هيكلية، موصوفة ذات عناصر مترابطة يمكن استجلاؤها والعمل ضمن محدداتها وشروطها. كأن تقول مثلاً: «نظام السير» أو «النظام الداخلي لحزب»، أو «النظام الدولي»، أو ما كنا نتدرب عليه في معسكرات «الفتوة»

وبعدها في الجيش العربي السوري: «نظام منضم». عكسها كما يعلم الجميع: «الفوضى»، شيء يتعذر تأطيره وتحديده وفهمه، كما أنه يفتقر إلى البنية والهيكلية والترابط. وأفضل مثال عليها «الفوضى الخلاقة» السيئة الصيت، التي ابتدعتها السيدة غونداليزا رايس، وزيرة خارجية الولايات المتحدة الأمريكية في منتصف العقد الأول من هذا القرن، والتي ترى أن وصول المجتمعات إلى أقصى درجات الفوضى متمثلة بالعنف والرعب والدم، يخلق إمكانية إعادة بنائها بهويات جديدة.

ورغم أن المفردة، راحت تردّد، لا من قبل معارضي النظام فحسب بل أيضاً من قبل مواليه والمدافعين عنه، ففي أيام حرب الكتابات على الجدران بمواجهة اللافتات والشعارات والصور العملاقة الملونة في الشوارع وعلى واجهات الأبنية الرسمية، رُفعت لافتة قماشية كبيرة على واجهة أحد المستشفيات الحكومية تقول بكل بساطة وموضوعية: «بديل النظام هو الفوضى». في حين يعتبر الطرف الآخر أن وصف الحكم في سوريا بالنظام هو أقرب إلى المديح له من الذم، إلّا أنه ظل هناك من يقاطعك، إذا حدث أن لفظتها: «لا أقبل منك أن توصف الحكم في سوريا بكلمة (نظام)»، وأحسب أن هذا ما زال قائماً إلى اليوم، واللفظة ما زالت ممنوعة، ويعاقب عليها، كما حصل لأحد الأساتذة الجامعيين، عندما أوقف عن التدريس لمدة ثلاثة أشهر، بسبب ترجمته لتعبير «جيش النظام» من مقال مكتوب باللغة الفرنسية!

ما يظهر أن الجميع على معرفة، ولو شعورية، بأن المعنى اللغوي لمفردة «النظام» شيء، ومعناها السياسي شيء آخر. ففي موسوعة «ويكيبيديا» يرد: «الاستخدام الحديث لكلمة (نظام) يضفي معنى سلبياً، فهو يشير إلى حكومة متسلطة.. ديكتاتورية». ولكن كما للنظام قاموسه اللغوي الضيق، ككل شيء هو عليه، كذلك بات لمعارضيه،

الراغبين في مجاراته، وكأنه نموذجهم الأمثل، كما قد يتهمهم البعض، إلّا أنهم، حقاً، لا يتورعون عن الحكم بأن كل من يتردد بتسمية ما حدث في سوريا، ويطلق عليه لسبب ما، اسماً آخر غير «الثورة»، هو عدو للشعب وموالٍ للنظام، وكل من يتلفظ بعبارة «الجيش العربي السوري»، شبّيح وعميل للنظام، أمّا كلمة «الدولة السورية» فهي بعرفهم، بأي سياق جاءت ما عدا إنكار وجود دولة في سوريا، خدعة مكشوفة غايتها تجميل النظام وبقاؤه الأبدي، كما حدث في مقالي «لا يا سيدي، الشعب السوري لا يستطيع الاستمرار أكثر»، عندما أبدى أحدهم، اعتراضه الشديد لتسميتي ممثلي الحكومة السورية، على نحو مطابق لما ورد في القرار 2254، بوفد الحكومة السورية، الاسم المتداول في جميع التقارير والمتابعات لمفاوضات (جنيف – 3)، فيا لها من سقطة!

وبينما هي محظورة ومحرمة في قاموس النظام، فإنها الكلمة الدارجة الأشد تفشياً في قاموس المعارضة، فلا يخلو خطاب الواحد منهم، ولو كان جالساً عند بائع أراكيل ومعدات شوي اللحم، في سوق الخضار، على ذكرها عشر مرات متتالية، بادئاً كلامه بـ«هااذا النظام»، وخاتماً إياه بـ«هذا النظاااام». والآن الآن، يصلني على بعد خمسة أمتار كلام ثلة من المتحدثين عن الوضع السوري، في إحدى القنوات التلفزيونية الأجنبية الناطقة بالعربية، فلا أميز سوى كلمة «النظام»، تتردد كل خمس ست كلمات مرة على الأقل، أصغي جيداً فأسمع أحدهم يقول: «أمريكا اللاعب الأساسي...».

فيقول آخر: «هذا النظام هو آخر من...!».

لا.. الشعب السوري لا يستطيع الاستمرار أكثر!

إلى «نجوى قاسم» وهي تعبر، أمام أعيننا،
السنين والثورات والأكاذيب.

يجيب السيد (أ. ع. ز) رئيس وفد المعارضة السورية للتفاوض مع النظام في محادثات (جنيف – 3)، التي تم البدء بها حسب المواعيد المقررة، رغم تردد الوفد بالحضور والمشاركة، على أن تستمر لستة أشهر، قابلة للتوقف أو التمديد، على أحد أسئلة المذيعة اللبنانية الشهيرة «نجوى قاسم»، في برنامجها الإخباري على قناة «الحدث» العربية: «حدث اليوم»، بما معناه، لأني، للأسف، لا أستطيع استعادة ما قاله حرفياً: «إن الشعب السوري الذي أودعهم قضيته، وأمّنهم على مصيره، لا يقبل منهم أيّ تنازل أو تهاون في تحقيق مطالبه وأهدافه، وإن الشعب الذي صبر خمس سنوات على القصف والصواريخ والبراميل والحصار يستطيع أن يصبر سنوات أخرى». مباشرة، علّقت «القاسم» بذكائها وتهذيبها المعروفَين، بأن هناك من سيتوقف عند هذه النقطة بالذات، منبّهة السيد (أ. ع. ز) إلى الخطأ الواضح في قول هذا الكلام، الذي بكل بساطة يظهر تقبّله، وتقبّل المعارضة التي يمثلها، للمزيد من الموت والدمار والتشريد والحصار الذي ينتظر الشعب السوري خلال السنوات القادمة. وقتئذٍ، بدل أن يظهر السيد (أ. ع. ز) تأثره الشديد لما ذكرت، لمحت نظرته تزوغ ولو قليلاً،

هذه النظرة التي زاد من زوغانها اضطراره للاعتراف، بأن الولايات المتحدة الأمريكية، وعلى لسان وزير خارجيتها السيد كيري، في ما نقله وأعلنه السيد رياض حجاب رئيس الهيئة العليا للتفاوض، تمارس الضغط على المعارضة للقبول بحكومة وطنية، برئاسة بشار الأسد، وقبول ترشيحه لدورة رئاسية جديدة، وذلك خلافاً لبيان (جنيف 30/ 6/ 2012) الذي أقرّه مجلس الأمن، وقبلت به الأطراف كلها، وإنْ كلّ منهم حسب فهمه الخاص.

بعد اللقاء أذاع البرنامج ثلاثة أخبار عن سوريا، في تاريخ 26/ 1/ 2015:

1- انفجار شاحنة مفخّخة يقودها انتحاري، قرب مركز لتنظيم «أحرار الشام» في حي السكري في حلب، وموت 19 عنصراً من التنظيم، و4 مدنيين، وبعض سجناء التنظيم في ذلك المكان - نعم، لديهم سجونهم - ورغم أن الخبر يقول إن 5 أبنية دمرت بالكامل، وتضرر 15 مبنى آخر، إلّا أنك وأنت تنظر إلى الصور المتتابعة تستطيع أن ترى أن حلب ليست سوى حرائق وخرائب.

2- وفاة سورية بعمر 64 عاماً في مضايا نتيجة الحصار، رغم ورود اسمها في قوائم الصليب الأحمر.

3- تحقيق مصور، يظهر فيه أطفال سوريون أقرب إلى الهياكل العظمية المكسوّة جلداً، عن عدم قدرة أجسام أطفال مضايا على تقبّل الطعام بعد طول جوع.

وهذه ليس كل أخبار المأساة السورية في ذلك اليوم. فقد ورد في مواقع الأخبار:

4- مقتل 22 سورياً على الأقل، وعدد كبير من الجرحى، في شارع

الستين في حي الزهراء في حمص، بسبب تفجير مزدوج استهدف حاجز تفتيش للجيش السوري.

5- مقتل 471 مواطناً سورياً، منهم 125 طفلاً و52 امرأة، ونزوح ما يقارب 40 ألفاً، أغلبهم من الأطفال والنساء والرجال المسنين، إثر المعارك الدائرة في بلدات الغوطة الشرقية منذ بداية هذا الشهر، يعانون الجوع والبرد الشديد، رافق هذا الخبر مقاطع فيديو تظهرهم يقتاتون بالأعشاب وأوراق الشجر، وهم متكومون فوق بعضهم حول جذوع الأشجار درءاً للرياح الباردة.

6- يصل عدد السوريين المحاصرين في 18 موقعاً، إلى ما يقارب المليون ونصف مليون إنسان، جميعهم يعانون الجوع والبرد وضروباً شتّى من الأمراض، وهم بأشد الحاجة، إلى جميع أشكال وأنواع المساعدات الإنسانية العاجلة.

7- وقبل هذا بأيام، في 18/ 1/ 2016، قام تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) بهجوم دامٍ على مدينة دير الزور، قُدّر عدد ضحاياه، حسب مصادر متنوعة بـ 300 قتيل من مدنيين وعسكريين، كما تم اختطاف أكثر من 400 مواطن.

فكيف، كيف، يستطيع الشعب السوري أن يستمر في هذا الجحيم لسنوات أخرى قادمة؟ كيف له أن يصبر أكثر يا رئيس الوفد المفاوض؟ إلّا إذا كان السوريون، بظنّكم، ليسوا بشراً، بل عفاريت، أو مجرد أرقام وصور ولقطات فيديو.

لا يا أخي، لا يا صاحبي، الشعب السوري، لن أقول، لم ينتخبك، فهذا من نافل الكلام، بل سأقول، لم يقم هو باختيارك، لم يعيّنك، لا

أنت ولا سواك من أفراد المعارضة الداخلية أو الخارجية، كما أني لن أتطرّق إلى من قام بهذا، فأنا أستطيع أن أتفهّم كيف ولماذا أنت رئيس لهذا الوفد، حتى وإن لم أعرف التفاصيل، فأنت بنفسك حين سألتك «القاسم»، حول ما إذا كنت ستذهب تحت هذه الضغوط والشروط إلى المفاوضات، أجبت وبكل صدق، بأنك أداة، ولا أقصد هنا أي إساءة، بل ربما أحترمك لصدقك هذا، فلقد شرحت بنفسك، أنك عُيّنت بهذا الموقع، واخترت للقيام هذا الدور، من قبل الهيئة العليا للتفاوض، التي، ذكرت أيضاً، بأنها ستجتمع في اليوم التالي وستقرر ما إذا سيذهب الوفد أم لا.

لا يا سيدي، الشعب السوري داخل سوريا وفي المخيمات ما عاد يستطيع الاستمرار في الجوع والتشرد والموت أكثر، وأنا، كأحد أفراد هذا الشعب، أطالبك وأطالب المعارضين السوريين كافة، كما أطالب الوفد الحكومي أيضاً، إذا كان لمطالبتي له أي معنى، بتخطّي كلّ الصعوبات، أيّاً كانت، والدخول في حلّ سياسي، سلمي، وطني، إنساني، لمأساة شعبنا، والعمل على وقف القتل والتشريد بأسرع ما يمكن، إن لم يكن فوراً. وأرجوك، لا تسألني كيف، فأنا، حقيقة، لا أدري كيف، ولكن أنتم، الذين أنشأتم المجالس والمنابر والائتلافات باسم الشعب السوري، ومن ثم عيّنتم وكلّفتم أنفسكم، مشكورين، تنكّب قضيته، أنتم من يدعونكم لتمثيل هذا الشعب في المؤتمرات والمباحثات والمفاوضات، أنتم من يجب عليه أن يعلم. أنتم من يجب عليه أن يجد طريقاً.

اللاذقية 26/ 12/ 2015

«المكدوس» و«الثورة» السورية الجائعة

راقبت السيدة المصرية باندهاشٍ بالغ، جارتَها المهاجرة السورية، وهي تحشو بطن الباذنجانات الصغيرة المسلوقة، بتبلة ربّ الفليفلة الحمراء، مع الثوم المدقوق، والجوز المكسّر، ثم تستّفها بعضها فوق بعض في قطرميز، وتغمرها بقدرٍ وافٍ من زيت الزيتون. وسألتها مستفسرة: «إنتو كنتو تاكلو الطعام ده في سوريا؟». فأجابت السيدة السورية: «نعم، المكدوس أكلة شعبية في سوريا». هنا لم تستطع الجارة المصرية منع نفسها من الصياح: «أُمّال عملتوا ثورة وخربتوا بلدكم ليـــه؟».

في البدء، أول ما يخطر على بال المرء، إذا رغب في أن يجيب السيدة المصرية، أن «الثورة» السورية، لم تقم بسبب جوع الشعب أو فقره. وهذا ما أوضحه السوريون، منذ بداية تظاهراتهم، عندما هتفوا في درعا واللاذقية وحمص ودمشق رداً على وعد السيدة بثينة شعبان بحزمة الإصلاحات، وعلى رأسها زيادة الرواتب: «يا بثينة يا شعبان، الشعب السوري مو جوعان». وليس بسبب جحوده لتلك القائمة الطويلة من النِّعَم، التي أعدّها شاعر سوري، وأي شاعر! شاعر عاش حياته كلها يدعو للحرية المطلقة في الشعر والفكر والحياة، والتي يتساءل فيها:

- كيلو الخبز بـ 15 ليرة، مو كرامة؟

- خروج مرتك أو أختك أو بنتك، أي ساعة في الليل، مو كرامة؟

- ليتر العرق الريّان بـ 65 ليرة، عند جارك، مو كرامة؟

فيعترض أحد أصدقائه معلّقاً: «نعم، ولكن عندما يشحطونك من بيتك أو الشارع أو الوظيفة أو الدكان، بسبب أو دون سبب، ثم تختفي أخبارك؟». فيردّ عليه شاعرنا: «أنا ضد الشحط العبثي المجاني!»، ليعقّب صديق آخر مؤيّداً: «عرب البعير خنازير الأرض الأنجاس». إلّا أني أجد الآن المناسبة لأردّ عليه، بكل الاحترام والتقدير الذي تستحقه تجربته الإبداعية، دون ذكر اسمه، حرصاً على عدم شخصنة الموضوع:

لا، يا صديقي، قائمة النِّعم هذه، لا تعني الكرامة، لأنها القائمة ذاتها التي كانت تلصق على ظهر الشعب الروسي والبولوني والمجري والتشيكي و... حيث الخبز والفودكا واللحم، وخاصة البشري منه، رخيص، والتعليم والتطبيب، مجاني، والنقل الداخلي على علاته، رخيص! ووو... ما لا تستطيع إخفاءه بين سطورها من إهانات ومذلات، يعرفها أصدقاء كثيرون مشتركون بيننا، ذهبوا للدراسة، فعاشوا هناك، رغم تواضع رواتبهم الدراسية، كأبناء الملوك، القائمة التي مزقتها هذه الشعوب وداستها بأقدامها.

ولا، يا صديقي، من يسأل لماذا تعرضت للشحط؟ وما نسبة المشحوطين قياساً لتعداد السكان العام؟ ليس ضد الشحط العبثي والمجاني، ليس ضد شحط «الطيب تيزيني»، دكتور الفلسفة في جامعة دمشق، الذي قارب الثمانين عاماً، في ساحة المرجة، مقابل وزراة الداخلية، لأنه شحط مبرر وأخلاقي.

ذكّرني هذا بقصتين، أولاهما حدثت معي، عندما أُوقفت عند

أحد الحواجز، بسبب تشابه في الاسم، واقتدت إلى أحد فروع الأمن، أن العنصر الذي أعاد لي أغراضي ومن بينها مفتاح سيارتي، قال لي: «يا للغباء، مَن يصدق، إنسان لديه سيارة كهذه، يمكن أن يكون ضد الدولة؟». والثانية ذُكرت لي، أثناء رويي للقصة الأولى، أنه أثناء التحقيق مع شاب معتقل، كانوا يصيحون به: «وْلاه..عند أبوك سيارة (سوناتا) وطالع مظاهرة؟».

إلّا أنه، إذا أمعن المرء التفكير في الأمر، يستطيع أن يجد أن استنكار السيدة المصرية، له مبرراته، وربما، في محله! وذلك بطريقة، قد تبدو شكلياً وكأنها تناقض التفسير السابق، غير أنها في الحقيقة تكمله. وهي، أن هناك سوريين كثيرين لا يعرفون ما هو «المكدوس»، وإن عرفوه، فهم لا يقدرون على شرائه وأكله، فالجوز وزيت الزيتون ما كانا يوماً رخيصَي السعر إلى هذا الحد. ويوماً ما، كان «المكدوس» بسعر الخبز، المدعوم من قبل الدولة، كما هو معروف، والذي كان وما يزال الطعام الوطني للسوريين ومالئ بطونهم الأول. نعم، خرج آكلو «المكدوس» في المظاهرات وهتفوا، أولئك الذين ضاقت سوريا على طموحاتهم وأحلامهم، ورغبوا أن يكملوا صورة سورياهم الجميلة، بحياة أفضل، أكثر حرية وكرامة، وأكثر شبهاً بهم. ولست أنا من ينكر تقدماتهم وتضحياتهم، إلّا أن كثيرين منهم، عندما وجدوا أن الرياح تجري بما لا تشتهي سفنهم، أداروا ظهورهم لها، مضطرّين غالباً ومختارين أحياناً، ولاذوا بالسفر والهجرة إلى بلاد غنية ومتقدمة فتحت حدودها لهم، يستطيعون فيها تحقيق هذه الطموحات والأحلام. أمّا آكلو الخبز، الخبز المُرّ، سكان الأحياء المخالفة، الباطلون عن العمل، عمال الجهد الجسدي، الذين يعملون يوماً وخمسة أيام لا يعملون، أهل الريف المهمل، الفلاحون المفقّرون، المغبرون والمنسيون، الذين

لم يجدوا منفذاً، فقد تابعوا ومضوا، حيثما قادتهم الأحداث، وهم مَن حملوا السلاح، وحاربوا واحتلّوا الأمكنة التي كانت محظورة عليهم، ودخلوا المدن السورية كالمحرِّرين، إذا لم أقل كالفاتحين، وتسلطوا على الباقين من أهلها، وفرضوا عليهم أحكامهم، آخذين ما يظنونه حقاً لهم، سواء أعجبنا هذا أم لم يعجبنا، فذلك آخر ما يبالون به.

وأخيراً، ولأنك أغفلت يا صديقي، يا شاعري، يا مَن كان سعدي يوسف لا يعتبر ما تكتبه شعراً، بينما يحبه مصطفى عنتابلي، عدداً من النقاط التي تدل على الكرامة والرفاهية، حسب وجهة نظرك، رغم حرصك على ذكر كل منّة وعطية، صغيرة أو كبيرة، كان يتمتع بها الشعب السوري برمّته، دون أدنى تمييز، فقد رغبت بشدة أن أذكّرك ببعضها، ولكن بسبب خلل أعانيه منذ خمس سنوات في البنية العقلية والنفسية، وهو ما أشرت إليه بنفسك في خاتمة قائمتك، وطلبت من أحدهم، خاطبتَه يا دكتور، أن يعيد النظر ببنيته الشبيهة ببنيتي كما يبدو، وليس بسبب أي نعمة أخرى، أقسم إني لن أفعل!

اللاذقية 9/ 3/ 2016

سوريا مغلقة بسبب الإصلاحات

سيأتي من سيقول لي: «سوريا مغلقة بسبب اللا إصلاحات».

شيئاً فشيئاً، تناقصت دور السينما في اللاذقية، كما راح يتناقص كل شيء جميل فيها، من حجر وبشر وذكريات ومشاعر، خلال الأربعة عقود الأخيرة الماضية، حتى كادت تختفي هي نفسها. فمن 15 صالة، يختص بعضها بالأفلام العربية، وبعضها بالأفلام الهندية، وبعضها بالأفلام الأمريكية والأوربية، شتوية مغلقة على جدرانها الإعلانات وصور الممثلين والممثلات، أو صيفية مفتوحة على السماء يضيئها القمر والنجوم والكواكب، إلى صالة واحدة، هي سينما «الكندي» التابعة للمؤسسة العامة للسينما، والتي كانت في الأصل سينما خاصة تدعى «الأمير» استولت عليها الدولة، في السبعينيات. ولكن ما إن بدأت الأحداث، حتى سارعت هذه السينما الوحيدة الباقية بالإغلاق، ولليوم أقرأ وأنا أعبر ببوابتها، ما كُتب على لافتة ورقية بيضاء أُلصقت على واجهتها اليمنى: «مغلقة بسبب الإصلاحات». فيا لها من إصلاحات لا تنتهي! ويا لها من إصلاحات تتطلب كل هذا الزمن!

لن أعود وأتكلم عن إغلاق دور السينما، وتحوُّلها إلى أبنية ومتاجر، كسينما «دنيا» و«دمشق» و«شهرزاد» و«اللاذقية - فاروق سابقاً»، وأمكنة مهجورة وخرِبة، كسينما «الأهرام»، و«أوغاريت» أجدد وأفخم

دار سينما في اللاذقية، رغم أنه من زاوية ما، يمكن اعتباره مؤشراً على المسار الاجتماعي والثقافي، وربما السياسي أيضاً، الذي مضت به مدينة كاللاذقية، كذلك المسار العام لبلد يُفترض أنه كان يمضي في طور التنمية والتقدم، بل سأتكلم عن قضيتين أساسيتين يتضمنهما العنوان ذاته، وهما، أولاً، واقع أن سوريا اليوم، وفي الأمس أيضاً.. بلد مغلق. وثانياً، عن الإصلاحات التي ينبغي أن تنفّذ لتستطيع سوريا، والشعب السوري، بعد هذه السنوات الست المهلكة، أن يتلمسوا طريقهم إلى العيش المشترك، والمستقبل الآمن.

سوريا المغلقة

ليس بالنسبة لي ولأبناء جيلي فحسب، بل لأجيال عديدة بعدنا، لم تكن سوريا سوى بلد مغلق. ففي مدينة ساحلية كاللاذقية، المرافئ، تلك البوابات البحرية، تكاد تكون أرضاً محرمة على عموم أهلها، فلا يسمح بعبور بواباتها المحروسة من قبل الجهات الأمنية والجمركية والعسكرية، إلّا للعاملين المصرَّح لهم بدخولها. أعرف (لوادقة) عاشوا وماتوا، ولم يصعدوا سفينة نقل تجارية في حياتهم، فما بالك بسفن الركاب، التي لم تنشط بتاريخ المدينة سوى مؤخراً، عند السماح لإحداها، ولفترة عابرة، بنقل الركاب، ذهاباً وإياباً إلى تركيا. أمّا رؤية البحّارة والسُّيّاح يتجولون ويتبضعون في أسواق المدينة، فقد كان دائماً أشدَّ ندرة من رؤية الملائكة يلعبون كرة القدم في «استاد» يسوع بن مريم السماوي.

رافق كل هذا، الريبة والحذر من كل أجنبي دفعته رغبة ما للقدوم إلى سوريا (الوطن الثاني لكل إنسان في العالم)... كما كانوا يرددون، حتى كدت، أنا نفسي، أصدق! أذكر (وكيف أنسى؟) أن كاتباً وصاحب

دار نشر جاء من أمريكا إلى اللاذقية، لمقابلة بعض مثقفيها، أحدهم أنا، فأمضينا ما يقارب النصف ساعة في مرسمي، نتحدث عن كل شيء ولا شيء محدد، وقد راعته مجموعة أسطواناتي الموسيقية، وخاصة عدد أسطواناتي وكتبي عن مغني الفولك الأشهر، بوب ديلان. بعد ذلك أمضيت ما يقارب الثلاثة شهور، أزور، بناء على دعوات متكررة، أحد فروع الأمن في اللاذقية، ومن ثم أحد مراكز الأمن في دمشق، يسألونني عنه، وكأنني أعرفه منذ دهر، وعما دار بيننا من حديث عن كل شيء ولا شيء. وكان أكثر ما أثار استغرابهم؛ كيف، وأنا مواطن مثقف، لم أبلّغ أي جهة أمنية عن شخص أجنبي التقيت به.

حتى يخال للمرء أن فكرة السيادة في سوريا مرتبطة بفكرة هذا الانغلاق، الذي تعدّدت أشكالُه وأنواعه، أمّا اليوم فإن الأشد استفحالاً، برأي الكثيرين، هو انغلاق الحلول كلها، والانفتاح على الحل العسكري، رغم إعلان جميع الأطراف، بأنه لا حلَّ هناك سوى الحل السياسي، الذي أُغلق عليه طوال السنين السابقة.

الإصلاحات العتيدة

أنا أحد السوريين، الذين صدّقوا، لو أن النظام السوري، قام بالإصلاحات التي أعلن عن الشروع بها، منذ عام 2000 وما بعد، لاستطاعت سوريا تجنُّب المصير الكارثي الذي تعانيه اليوم، ما أوصل الجميع، وربما أهل الحكم قبل سواهم، إلى التصديق بأن بنية النظام لا تسمح بأي نوع من الإصلاحات. فسرعان ما ظهر واضحاً فشل الإصلاح الإداري، وتبعته فوضى الإصلاح الاقتصادي، الذي أدّى، برأي البعض، إلى إفقار 45% من الشعب السوري، وخاصة سكان الأرياف. والذي برأي البعض أيضاً؛ كان السبب المادي،

والواقعي، الأشدّ عيانية، لانفجار البركان السوري. فهناك من اعتبر ما حدث في سوريا ليس إلّا «ثورة» الريف الفقير على المدينة الغنية. أمّا إصلاح الإصلاحات كلها، الإصلاح السياسي، تعديل بعض مواد الدستور، إيقاف العمل بقانون الطوارئ، إصدار قانون الأحزاب، فصل السلطات... فقد أرجأه النظام، وتركه طيّ النسيان سنين عديدة، إلى أن اضطرّ مجبراً لإخراجه من الأدراج، وتبنّيه، ولو جزئياً، استجابة للمطالب الشعبية المُحقّة للسوريين، باعترافه هو نفسه. ولكن، للأسف، حصل ذلك، بعد أن بدأت كتلة الثلج النارية بالتدحرج والتضخم، بحيث ما عاد يوقفها ويطفئها إصلاح أو إعادة إنتاج.

اليوم، وبعد هذه السنوات الخمس الدامية، ليس سوى التغيير الجذري الحقيقي في بنية الحكم وآلياته وغاياته، السياسية والاقتصادية والاجتماعية، كفيلاً بأن يضع سوريا الممزقة، والشعب السوري الشَّقيّ، على الصراط الصحيح.

اللاذقية 18/ 3/ 2016

«داعش» تحيي تقاليد قتل الشعراء

جاء خبر إعدام الدولة الإسلامية في العراق والشام، والسعودية ومصر وليبيا و... العالم «داعش»، للشاعر السوري بشير العاني (56 سنة)، وابنه إياس (20 سنة)، وكأنه دخول جمعي وسط كابوس، فقد تداول الجميع أخباراً غير مدققة، وكأنها سرد مقتضب لمجريات حلم غامض، حول خطف الشاعر وابنه وإعدامهما، بتهمة ماذا؟ الردّة! أمّا لماذا أعدموا الابن أيضاً، فإنّ أحداً لم يسأل. قيل، كما في بيان رابطة الكتّاب والصحفيين الكرد السوريين، إنه اختطف مع نجله «إياس» من بيته في دير الزور. علماً أنه كان يحيا في حيّ «الجورة» الواقع لليوم ضمن المناطق المتبقية تحت سيطرة النظام. وقيل، قُبض عليهما خلال محاولتهما الخروج من المدينة، التي بات البقاء فيها انتحاراً، بكونه خياراً مفتوحاً للموت خطفاً وجوعاً ومرضاً. وذكر أيضاً بقاؤه قيد الاعتقال لدى داعش، مدة ثلاثة أشهر أو أربعة. منذ أن انقطعت عن الجميع أخباره، نهاية السنة الماضية، حتى يوم إعدامه، الخميس 10/ 3/ 2016. إذ بدا غيابه طبيعياً في الظروف التي رهن بشير مصيره بها. حتى إن من عرفوا باعتقاله من قبل داعش، ظنوا أنه لن يواجه سوى أن يطبّق عليه حكم الاستتابة، وبعد شهر أو شهرين سيطلقون سراحه.

لم يُثِر أحدٌ قضيّتَه، لا على صفحات الشعراء في الفيسبوك ولا روابط الكتّاب السوريين أو سواهم، ولا حتى على الصفحات الشخصية لأصدقائه الكثيرين، الذين بعد إعدامه، أظهروا لوعتهم عليه عارضين صورهم وساردين ذكرياتهم القليلة معه. وقد يذهب سوء الظن إلى تفاسير عديدة لهذه الظاهرة، فبشير كان رئيس فرع اتحاد الكتاب العرب في بلدته، وهذا منصب شبه رسمي، إلّا أنه، في الواقع، قد يُعطى، وخاصة في مدينة كالدير، دون حسابات حزبية وسياسية كثيرة. كما أنه لم يكن، بسبب ملازمته زوجته طوال فترة مرضها واحتضارها، وربما بسبب طبعه الشخصي المعروف، أحد الناشطين بكثرة، على صفحات التواصل الاجتماعي. وذلك حتى آخر ظهور له في دمشق، نهاية عام 2014 قبيل مغادرته بيته في جديدة عرطوز، وعودته إلى دير الزور، حاملاً معه جثمان رفيقة دربه. أيّ عزاء لشاعر أن يهيل على «جسدها الجميل» التراب، وهو يرى جثثاً برؤوس وبلا رؤوس، مرميّة في العراء، ليقول لنا: «لا حقّ لحيّ، إن ضاعت في الأرض حقوق الأموات».

ثلاثة أشهر، أقل أو أكثر، وبشير وابنه إياس في سجن داعش، يتلوان القرآن، ويصومان ويصليان الخمس صلوات، ويركعان السبع عشرة ركعة، ويعملان ما خلا هذا، بالسخرة، إلى أن أصدرت المحكمة الشرعية لداعش حكم إعدامها بتهمة الردّة. الأب، ربما لكونه ذات يوم شيوعياً، أو بسبب أشعاره وما تحتويه عنه «الإنترنت» من مقالات ومعلومات، ألا يكفيهم ما وصفهم به في وداعه لزوجته: «حجّاجي العصر»؟ والابن، بسبب كونه نبتاً فارعاً من هذه البذرة الفاسدة، بذرة الشعراء، الذين: [لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً، خير من أن يمتلئ شعراً]، أو ربما بسبب رفضهما اتّهام الردّة ومعاملتهما كعبيد، من يعلم؟

إذاً، لنتصور المشهد: الأب وابنه بجانبه، ملتصقان أحدهما بالآخر، أيّ أسىً، يُعدَمان رمياً بالرصاص، كما نأمل، لا حرقاً، ولا قطعاً لرأسيهما بالسيف. أين؟ في «الرشدية» حيّ أهل بشير ومرتع طفولته وصباه، ثم يرميان جثمانيهما في إحدى المقابر الجماعية الكثيرة في «ولاية الخير»، هكذا يسمّي الدواعشة محافظة دير الزور، كما نأمل أيضاً، وليس في جورة جهنّم التي يعدّها التنظيم للمرتدين والكفرة.

لم أسمع، بحدود متابعتي، وأعترف أنها ليست بهذه الدقة، أيّ تبرير لجرائم داعش، من قبل أطراف المعارضة السورية الرسمية (اسمحوا لي بالصفة)، ولا بقبولهم بها في أي تصريح أو مقابلة مع أحد شخصياتها. فداعش استولت على الرقة ودير الزور وغيرها من المواقع، بمعارك مع الجيش الحر، أو جبهة النصرة، أكثر من معاركها مع الجيش السوري. إلّا أنه، في الوقت ذاته، لم تعتبر المعارضة السورية بكامل أطيافها، السياسية والإعلامية والثقافية، أن «داعش» عدوّها الأوّل أبداً، معتبرة وضع الأمر هكذا، ليس سوى محاولة لقلب المشهد، وحرف الصراع، هدفها الأساسي، الإبقاء على النظام، الذي ما إن يسقط، بعرفهم، حتى ستتلاشى هذه «الداعش» كالدخان! وذلك بإصرارهم على أنها، أو على الأقل أن جزءاً منها، من صنيعة النظام نفسه. رافق هذا تفسير بعضهم لظهورها وانتشارها السريع بكونها تعبيراً عن المظلومية السنية، القديمة في سوريا، والحديثة في العراق، ليصلوا في النهاية، إلى ما يشبه الاعتراف قسراً، بأن عدو الشعب السوري هو النظام وداعش على السواء، ولاحظوا هنا الأولية، وإيران وروسيا و.. أمريكا. فأي حرب غير متكافئة يمكن لسوريّ واحد النجاة منها إلّا بأن يولي الأدبار؟

تصرّ المعارضة السورية، على عدم جواز المفاضلة بين آليات

وأساليب داعش وجبهة النصرة التي تحكمان بها المناطق التي تسيطران عليها، وحكم النظام وتعامله مع السوريين في المناطق التي استطاع حمايتها وإبقاءها تحت سيطرته، وبضمنهم ملايين النازحين من المناطق الأخرى، كما تصرّ على رفضها ثنائية النظام أو الإرهاب، باعتبارها الخيار الذي يريد النظام أن يضع الشعب السوري والعالم كله أمامه. إلّا أنه، وبكل بساطة، لا الشعب السوري بواقعه المأساوي، قتلاً وتشريداً وتجويعاً، ولا العالم معه، بأزماته ومصالحه، تحت إمرة، منظّري المعارضة السورية، أو عند مشيئتهم. وأظنه من العماء، ألا يعترف الجميع بأن النظام السوري، وبالتأكيد ليس بفضله وحده، قد نجح في أن يجعل هذا الخيار وكأنه الخيار الواقعي الوحيد، خاصة أمام السوريين في مناطقه. فإلى أن يهبط من السماء الحلّ العتيد، يصبر ويعاني ويكافح السوريون جميعهم صعوبة البقاء والاستمرار، بانتظاره.

وبالعودة إلى إعدام «داعش» شاعراً وابنه بتهمة الردّة، أنه في ثمانينيات القرن الماضي، وهذا أمر لا يعرفه سوى القليلين من السوريين، أن الشاعر «فايز خضور» الحاصل على جائزة الدولة التقديرية للشعر عام 2012، قد أودع السجن فترة، ربما تقارب السنة، بتهمة سبّ رئيس الجمهورية، أمّا ما خفف من جرمه، فهو واقعة أنه كان في إحدى خمّارت دمشق عندما تلفّظها، فانظروا، يا رعاكم الله، كيف اختلفت الدنيا! ولكن حديثي هنا عن الشعراء، أمّا معاملة النظام وأحكامه على سواهم، فهي قصة مختلفة تماماً، لها رواتها الخاصون بها.

اللاذقية 21/ 3/ 2016

وثيقة دي ميستورا.. تعديلان وإضافة

إلى «مصطفى زغلوط»... صاحب جلسة «الخميس»، وإلى كل أعضاء الجلسة، الذين يدين لهم هذا الكتاب بالكثير، مع أمنيتي أن نكون جميعنا أحياء عند صدوره.

يضحك السوريون عندما يسمعون، أن هذا الموضوع أو ذاك، شأن يخصُّهم وحدهم، وأنه متروك لهم ليختاروا ويقرروا، كانتخاب رئيس الجمهورية مثلاً، أو ما إذا كانت ستبقى سوريا دولة موحدة، ذات حكم مركزي، أو فيدرالي، أم أنها ستقسم لدويلات قومية أو طائفية، أو دويلات الأمر الواقع، أي حسب التوضّعات الجغرافية للقوى على الأرض.

يضحك السوريون، وربما يبكون، ذلك أنهم كالجميع، يعرفون أن الحل العتيد في أيدي القوى الدولية التي تتصارع، على الساحة السورية، لتحقيق مصالحها. وبالتحديد الولايات المتحدة الأمريكية، بهيمنتها المفترضة على العالم برمته، فلا شيء في القارات الخمس يحدث، إلّا بأمرها، أو بموافقتها، أو بغضّ طرفها، كما يصدق الكثيرون، وروسيا الاتحادية، التي وجدت الفرصة سانحة للعودة بقوة كدولة عظمى إلى المسرح السياسي العالمي، بدعمها النظام السوري كل أنواع الدعم، وخاصة بعد دخول قواتها العسكرية الأراضي السورية، في أشد

المراحل حرجاً بالنسبة للنظام، وبالتالي تأثيرها، إن لم أقل، تحكّمها بالقرار السوري، كما يفترض الكثيرون أيضاً.

ولكن في النهاية، لا بدّ أن يكون صحيحاً، أن السوريين، كشعب، كبشر، هم الذين سيقررون طريقة عيشهم مع بعضهم، أي مستقبلهم، لأنه إذا كان قرارهم العكس، أو أن الشرخ الذي صنعته الخمس سنوات من الحرب (الأهلية)، أعمق من أن يسمح لهم بذلك، عندئذٍ، لن ينفع معهم أي حلٍّ مرتقب، ولو اجتمع عليه الإنس والجن. لذا، كما هناك سوريون يتظاهرون في المناطق خارج سيطرة النظام، لا يعدم وجود سوريين في مناطقه، ليسوا محسوبين على أي من الأطراف المتنازعة سياسياً، وبالأحرى عسكرياً، يرون أنه عليهم، بطريقة أو بأخرى، أن يكونوا فاعلين، ولو بالحد الأدنى، ويدلوا بدلائهم، في الاستجابة، لدعوة المبعوث الأممي إلى سوريا، الموجهة لهم برسالته في 28/ 1/ 2016، التي أنعش فيها آمالهم، وحفزهم، تأكيده أن المفاوضات غير مسموح لها أن تفشل، وأن الوقت قد حان ليرفعوا أصواتهم، وليخاطبوا من سيحضر مؤتمر (جنيف – 3)، من داخل سوريا أو خارجها. فكان أن اطلع بعض هؤلاء على مجريات (جنيف 2–3)، كما نقلها لهم معارض مستقل حضرها بناء على دعوة ديمستورا، وناقشوا الاثني عشر بنداً التي تضمنتها وثيقة مبادئ الحل السياسي التي قُدِّمت لوفدي المعارضة والنظام في جنيف، كأرضية مشتركة لتقدم المفاوضات باتجاه بحث الانتقال السياسي. وبما أن المعضلة السورية قد وُضعت على سكّة الحل السياسي، باتفاق الجميع، حتى النظام نفسه، الذي لا يستطيع، برأيهم، مهما بلغت درجة ممانعته، إلا الاستجابة للاتفاق الروسي الأمريكي، وللقرارات الدولية التي صدرت والتي ستصدر، الأمر الذي يصدقه البعض، لدرجة أن الناطق الإعلامي باسم أهم تشكيلات

المعارضة الداخلية، أعلن بالأمس انسحابه من العمل السياسي، إيفاءً لوعده بذلك عندما يحصل الحل السياسي، وبرأيه، إن الحل السياسي قد حصل، مما دعا الكثيرين من متابعيه لمطالبته بالتمهّل قليلاً، فالأمر ليس بهذا الوضوح، ولا بهذه العجالة، فإن كان صحيحاً أن الولد قد حُبل به، إلا أنه لم يولد بعد، ومرحلة الولادة والرعاية، ستتطلب نضالاً وجهوداً سياسية أكثر بكثير مما سبقها!

ورغم أنها جلسة صداقة وسمر واحتساء شاي عموماً، فقد توصل الحاضرون، ليس بفضلي، أعترف، إلى ملاحظتين رئيسيتين، واقتراح ثالث، أحسبه على قدر من الأهمية، وخاصة أنه يغطي نقصاً واضحاً في الورقة في ما يتعلق بدور السوريين، الذي، كما ذكرت، يردده الكثيرون، وكأنه كلام – مستعيراً مزحة برتراند راسل بصدد الرياضيات – لا يراد أن يُعرف ما يُقصد منه:

1– «شرعية» بدل «سلمية»

ورد في آخر البند الأول: «وما زال الشعب السوري ملتزماً بأن يستعيد مرتفعات الجولان المحتلة بالوسائل السلمية». وقد اعترض على كلمة: «السلمية»، واقترح إبدالها بكلمة «الشرعية»، لأنه يحق بالشرع الدولي لأي دولة أن تستخدم كل الوسائل المتاحة، ومنها العسكرية، لاستعادة أراضيها المحتلة من قبل دولة خرى.

2– «هوية وطنية واحدة» بدل «هويات وطنية»

ورد في بداية البند الرابع: «تعتز سوريا بتاريخها وتنوعها وبما تمثله من جميع الأديان والتقاليد والهويات الوطنية...» وكذلك اعترض على تعبير: «الهويات الوطنية»، لأنه، برأيهم، مثله مثل تعبير «مكونات»،

يكرس التفرقة بين السوريين، في الوقت الذي يجب التركيز على الهوية الوطنية الواحدة، التي تستوعب كل الاختلافات المذهبية والقومية والعرقية.

3- «مؤتمر وطني سوري»

لا يمكن للبنود الاثني عشر في هذه الوثيقة، سوى أن تكون خطوطاً عريضة، وحسب التعبير الوارد في المقدمة: «عناصر استرشادية لنقاط التوافق الموجودة بين الطرفين المتفاوضين». إلا أن هناك غموضاً زائداً عن الحد، برأي الكثيرين، في ما يتعلق بالمرحلة الانتقالية، ومحاور الانتقال السياسي وخطواته، كتلك التعابير العمومية: «الحكم الرشيد»، و«حكم ذو مصداقية»، و«انتخابات حرة ونزيهة»، ولم يحدد بدقة انتخاب ماذا؟ كما يلف الغموض عملية إعداد الدستور الجديد، الذي ستجري بمقتضاه الانتخابات تحت إشراف الأمم المتحدة؛ كيف؟ ومن سيقوم بإعداده؟ وأي دستور سيكون؟ ونتيجة لكل هذا، تبرز الحاجة إلى اقتراح إضافة الدعوة إلى مؤتمر وطني عام، إلى بنود الوثيقة، يشارك فيه ممثلون حقيقيون عن الشعب السوري (من ذوي العلم والشأن)، وذلك أسوة بالمؤتمر السوري الأول 1920 الذي أعلن استقلال سوريا بحدودها الطبيعية (بما يشمل لبنان وفلسطين والأردن والأقاليم السورية الشمالية التي أعطيت لتركيا من قبل الفرنسيين والإنكليز في معاهدة لوزان... ولواء إسكندرون)، علماً أنه لا يوجد أي ذكر للواء السليب في وثيقة دي ميستورا هذه!

تكاد فكرة المؤتمر الوطني، أن تبدو هاجساً سورياً بامتياز، فقد سبق أن دعت إليها قوى وتشكيلات سياسية معارضة منذ بداية تسعينيات القرن الماضي، وعادت وظهرت في بداية القرن الحالي،

بدءاً من دعوة الإخوان المسلمين 2001، إلى دعوة التجمع الوطني الديمقراطي، ولجان إحياء المجتمع المدني، وإعلان دمشق للتغيير الديموقراطي 2005، وصارت لازمةً في كل برنامج، أو تصور مستقبلي لسورية. ثم صارت تتكرر وبكثافة ملحوظة منذ بداية الحدث السوري 2011، من قبل هيئات وتجمعات وأفراد، وبتسميات وعناوين من الصعب حصرها وتصنيفها. ذلك أنه، لا ريب، لكل دعوة غاياتها، المعلنة والمبطنة، ولكل طرف دوافعه السياسية وغير السياسية، لكن ذلك لا يلغي مشروعية الفكرة، فيما إذا جاءت في السياق الذي يؤدي إلى تمكين الشعب السوري من تحقيق آماله في حياة حرة كريمة في وطن حر كريم.

اللاذقية 8/ 4/ 2016

انتخابات مجلس الشعب:
ثبات على المبادئ.. وسنابل قمح لا تنحني

صحيح، نعم صحيح، «افهموها بقى!»، أن مفتاح فهم النظام السوري، كبنية وكآليات حكم، هو الثبات على المبادئ. وهذا ليس شعاراً من شعاراته الكثيرة فحسب، بل حقيقة واقعة. فالنظام، بعد مرور خمس سنوات على أزمته الطاحنة، ما زال يقدم الدليل تلو الدليل على ثباته على مبادئه، ليس فقط بالأقوال والتصريحات الكثيرة والمتكررة، بل أيضاً بالأفعال والوقائع.

1- الأقانيم الثلاثة

ويمكن، بنظرة ثلاثية الأبعاد، تحديد الأقانيم الثلاثة لهذا الثبات على المبادئ:

أولاً- ما يقوم به على الأرض، أي متابعة الحل العسكري الذي أعلنه وانتهجه منذ بداية الأحداث، وما قال وما يزال يقول إنه لم يكن أمامه في مواجهة المؤامرة أي حل آخر سواه.

ثانياً- ما يقوم به على صعيد المفاوضات، كما في (جنيف - 1) و(جنيف - 2) وكما يحدث الآن في (جنيف - 3)، برفضه أي بند يمس

بالسيادة الوطنية، حتى ولو تضمنته القرارت والاتفاقات الدولية التي يعلن قبوله بها، كالانتقال السياسي، أو مصير الرئيس وصلاحياته، وبأنه، كما أكّد مراراً وتكراراً، لا مجال لأي حل سياسي إلّا بعد القضاء على الإرهاب.

ثالثاً- إجراؤه لانتخابات مجلس الشعب في موعدها المحدد، رغم كل التشكيكات والإشاعات حول إلغائها أو تأجيلها، وذلك لكونها استحقاقاً دستورياً لا يمكن تجاهله، وكما عبّرت أكثر اللافتات انتشاراً: [انتخابات الثبات على المبادئ].

2- عرس الديمقرطية

هذا ما أُطلق على انتخابات مجلس الشعب السوري للدور التشريعي الثاني، التي أعلنت اللجنة القضائية العليا للانتخابات نتائجها، بفوز مطلق لقوائم «الوحدة الوطنية»، بدل ما كان يسمى «الجبهة الوطنية التقدمية»، ما قبل دستور 2012، دون أن يشوبها أي تغيير يذكر، لا في المضمون ولا في الشكل، فهي ما زالت تخرج من كواليس الحزب «القائد»، في جميع محافظات القطر السوري، رغم إشكاليات (الرقة، وإدلب، وريف دمشق، ودير الزور، والحسكة)، لأن أغلب بلداتها وقراها خارج سيطرة الدولة، دون أي اختراق لأيّ من هذه القوائم المدعومة رسمياً، والتي توزع على العاملين في مؤسسات الدولة في جميع قطاعاتها، وأحياناً يرغمون على انتخابها كما حدث في جامعة اللاذقية، حين أغلقوا على الطلاب الأبواب، ولم يسمحوا لهم بالخروج إلا برؤية الحبر على أصابعهم، حتى إن البعض، سارع وهنأ الفائزين قبل انتهاء العملية الانتخابية بزمن، ملحقاً بها أسماء المرشحين الموصى بهم، من قبل لا أحد يدري من.. أو لماذا.. أو

كيف.. كما في قائمة اللاذقية، ممّا أثار احتجاج بعض المرشحين المستقلين، لأنه، ببساطة، يلغي فرصتهم بالنجاح.

قلت مرة، إني لست ممن يجدون في السخرية الطريقة اللائقة للتعبير عمّا يحدث في سوريا اليوم، لأن وراء هذه المشاهد الهازلة هنا وهناك، كتلك الملصقات واللافتات وما خطّ عليها من شعارات، سوريين كثراً فقدوا أعزَّ من لديهم وما لديهم، وكذلك غايات ونتائج سياسية، من الحُمق التعامي عنها وتسفيهها. إلّا أنه لا بأس، أظن، محاولة نقل صورة واقعية لها، ولبعض المفارقات التي أثارت استهجان المواطنين، بغضّ النظر عن انتماءاتهم ومواقفهم السياسية. فأي «عرس للديمقراطية» يمكن أن تشكّله هذه الانتخابات لأناس، غطت صور المرشحين المبهرجة، نعيات الشهداء من أبنائهم وإخوتهم، أو حتى للمواطنين العاديين الذين راح الغلاء يهدد بالجوع حياة أطفالهم؟

3- رجال تنجب سنابل قمح لا تنحني

ما استجدّ في هذه الانتخابات، هو أن اللاذقية صارت مدينة كوزموبوليتية، فصور مرشحي المحافظات وإعلاناتهم، غطت جدرانها وملأت سماء شوارعها، وخاصة مرشحي حلب، بملاءتهم المادية، فقد طغت لافتات قائمتي «الشهباء» و«الأصالة»، مع صورهم الفردية، وخلفهم قلعة حلب، كعلامة فارقة، على صور قائمة اللاذقية ذاتها وجميع مرشحيها، مع الانتباه للإضافة النوعية التي قدمها مرشحون استثنائيون كنقيب الفنانين السوريين، الذي، كما عبّر البعض على مواقع التواصل الاجتماعي، يطمح إلى متابعة دوره الناجح كمختار «ضيعة ضايعة»، ويصير عضواً هاماً في مجلس الشعب. وكذلك كاتب معروف بكونه صحفياً مشاغباً، لم يجد صفة «الكاتب» كافية فوضع

فوقها «المفكّر». نعم، صديقي... الكثيرون يكتبون ولكنّ القليلين يفكرون، فمن غير المفكّر يستطيع اجتراح شعار: «المواطن هو الأكثرية»؟

تنوعت الشعارات المرفوعة من قبل مرشحي اللاذقية، إلّا أني أشعر بإشفاق حقيقي على المستقلين منهم. الذين لولاهم لما ارتدى هذا العرس الانتخابي حلته البهيجة بالتأكيد، ولولاهم لما تزيّنت جدارن اللاذقية بهذه الملصقات المبهرجة، ولا لوّنت اللافتات، بوعودها وتهديداتها، سماء شوارعها وأزقتها، فبقدر ما كان مرشحو قائمة الوحدة الوطنية، متعالين عن التعابير والوعود الطنانة، كونهم واثقين من فوزهم، بقدر ما أظهر المستقلون الحماسة، وأحياناً الاستماتة، للفوز بشرف تمثيل الشعب السوري، مستخدمين كل الأوراق الوطنية المسموح بها، والتي أبرزها في هذه المرحلة كان «الشهادة»، فقد كثرت الشعارات التي تتضمنها، منها: «الشهداء أمانة في أعناقنا»، و«نعم.. دم الشهداء صراطنا المستقيم»، و«لا مساومة على دماء الشهداء»، و«مع القائد الأسد.. إخلاصاً لدم الشهداء». كما نال الجيش نصيبه من هذه الشعارات: «الجيش العربي السوري طُهر الأرض، ونقاء الروح، وهامات تشامخ الجبال»، و«وطن واحد.. شعب واحد»، و«الوطن لا يحتاج مساومين ولا مزايدين». غير أن شعارات معينة نجحت في إثارة انتباه المواطنين، مثل: «ورحمة ترابك يا أخي.. لنمحيها»، فلم يفهم أحد ماذا سنمحو، إلّا عندما تبيّن أن للمرشحة أخاً استشهد على يد «داعش». ومرشحة أخرى اعتمدت أسلوب المواجهة بشعارها «معاً ضد فقراء الضمير»، غير أن أغنياء الضمير للأسف لم يقدروا على إنجاحها. مختتماً عيّنتي هذه، بشعار مميز، أعتبره شعراً رائعاً بكل معنى الكلمة، خاصة أنه يصدر عن سيدة: «جنباً إلى جنب.. مع رجال

تنجب سنابل قمح لا تنحني»، علماً أن سنابل القمح التي لا تنحني هي السنابل الفارغة، وسنابل القمح المنحنية الرأس هي السنابل الممتلئة.

وصلني، أنه تقدم 1400 مواطن لاذقاني للترشيح، قُبل منهم 760 مرشحاً، وانسحب 414 قبل بداية العملية الانتخابية، ليصير العدد النهائي 346، نال 16 منهم صوتاً واحداً، و67 أقل من 10 أصوات، و140 مرشحاً أقل من 100 صوت، وفاز في النهاية 17 مرشحاً لا غير، وهو العدد الكامل لأعضاء قائمة الوحدة الوطنية مع المرشحين المستقلين الأربعة الموصى بهم.

في اليوم التالي للانتخابات، استيقظ أهل اللاذقية، من دانيها إلى قاصيها، ليجدوا جميع اللافتات والملصقات الانتخابية، قد أزيلت، وكأن شيئاً لم يكن، أو كأنه صحيح أن منظرها كان يؤذي عيونهم ويجرح مشاعرهم.

اللاذقية 22/ 4/ 2016

أين ذهب كلّ صبيان اللاذقية؟

يتوزعون على الرصيفين المتقابلين لشارع «شكري القوتلي» المزدحم بالمحلات وباعة البسطات والمشاة، من المدخل الشرقي لسوق الصاغة، إلى تقاطع ساحة «أوغاريت»، مشكّلين ما يشبه صندوقاً مغلقاً. فإن بدافع الفضول، أو الخوف، أو الجرأة، صوّبت نظرك باتّجاه النقطة التي تشخص باتجاهها عيون الناس حولك، ليس جميعهم، ستجد ثلاثة آخرين، يرتدون الثياب ذاتها ويحملون الأسلحة ذاتها، إلّا أنك لا تقترب أكثر لترى ماذا يجري على وجه الدقة، لا أحد يفعل، لكنك تستطيع أن تخمّن أن عملهم تفحّص وجوه المارة، واعتراض مَن هم ما بين عمر العشرين وربما أقلّ، والخامسة والثلاثين وربما أكثر، ومطالبتهم بإبراز هوياتهم الشخصية، أو بطاقاتهم الجامعية، وإذا تطلّب الأمر، دفاتر خدمتهم العسكرية، مدقّقين بتواريخ ميلادهم، وسني دراستهم، وصلاحية بطاقاتهم، وما إذا كانوا قيد الخدمة الإجبارية، أو مطلوبين للخدمة الاحتياطية. ومن ثم يسوقون المخالفين منهم، والمشكوك في أوضاعهم أدنى شكّ، إلى ميكرو باص متوارٍ في العتمة عند المنعطف.

ما عادت تكفي الحواجز الثابتة، ولا الحواجز الطيارة، التي عندما

يرى عناصرها أنك كبير في السن، كأن تكون شائب الشعر، أو أصلع، مثلاً، فإنهم يدَعونك تمرّ دون تدقيق يذكر. ذلك لأن مهمة الحواجز باتت التقاط الشبان المطلوبين للجيش، أكثر من التفتيش عن الإرهابيين والأسلحة والمتفجرات. كما ما عادت تكفي مداهمات الأزقة والبيوت بحثاً عن المتوارين والفارّين من الخدمة العسكرية، الذين، إذا حدث وأن جرى الإمساك بهم، لا يعاقبون ولا يحاكمون، كما كانت تجري الأمور منذ زمن ليس ببعيد، وكما ما زالت تنص القوانين، بل، هناك تفهّم لطبيعة المرحلة، وتجاوب عملي مع مقتضيات الوضع، التي أشدّها أهميةً الآن، هي الحاجة إلى المزيد من الجنود والمقاتلين، لإلحاقهم بأسرع ما يمكن بالقطعات العسكرية المحاربة. وذلك بأقل تدريب عسكري، وتهيئة نفسية، لازمين للجندي في زمن الحروب عموماً، فما بالك بحرب تجري بين السوريين أنفسهم، بغضّ النظر عن وجود الأغراب، من هذا الطرف وذاك، حيث تحتَلّ وتحاصَر وتحرّر مدن وقرى ومطارح ليست سوى مدنهم وقراهم ومطارحهم.

أوراق ارتقاء، لا أوراق نعيات، الشهداء، ملازمي الشرف، والضباط من مختلف الرتب، بعضهم عقداء وعمداء، تنتشر على جدران المدينة كافة، دون استثناء. إلّا أن نعيات شهداء الأحياء الجديدة والمحيطة، وشهداء ريف اللاذقية، تستطيع، إن رغبت بمتابعتها، أن تراها تتلاصق وتتزاحم على جدران شارع المغرب العربي، في الطرف الشمالي من المدينة، حيث باتت تتوضع أغلب الدوائر الرسمية وأهمّها، كالقصر العدلي، ومديريات المالية والزراعة والتخطيط، ومؤسستي التأمين والمعاشات، فما إن تُلصق نعية شهيد، حتى سرعان ما تُلصق فوقها نعية شهيد آخر، أجدّ. أمّا نعيات شهداء المدينة وأحيائها القديمة، فتتوزع على جدران الشوارع والأسواق، وبوابات المدارس والجوامع،

طبعاً، الشهداء الذين أتكلم عنهم، هم شهداء الجيش العربي السوري النظامي، وميليشيات الدفاع الوطني بأنواعها، وليس شهداء الطرف الآخر، الجيش الحر والفصائل المسلحة المحاربة ضد النظام، وأحياناً ضد بعضها، الذين، غالباً لا تصل أخبارهم، وإن وصل بعضها إلى أهلهم، فلا نعية ولا تعزية، ولا حتى قبر.

كتب صاحب صفحة «نعوات لادقانية» في الفيس بوك، كتعريف بصفحته: «لو أتيح لأهالي حي مشروع الصليبة أن يقيموا مسلّة لشهدائهم، لفاق طولها مسلّة معرض دمشق الدولي»، نعم ليس شهداء الجيش وحتى ما يطلق عليه القوات الرديفة، من فئة محددة أو منطقة محددة حصراً، وهذا، ما يتغاضى عنه الشامتون والمصفقون للموت، من الموالين والمعارضين على السواء.

في المقاهي، خلال متابعة مباريات كرة القدم، أو إذا صادف أن مررت بالقرب من أحد الجوامع بعد صلاة الجمعة، أو حين تشقّ طريقك بصعوبة في شارع «المتنبي» في حي «الأمريكان»، فأنت لا ترى من الشباب سوى الذين تقلُّ أعمارهم عن 18 عاماً، سنَّ الاستدعاء إلى الخدمة الإلزامية، أمّا من يزيد عن ذلك، فهم المؤجّلون دراسياً، ومعهم المُعفَون من الخدمة، إمّا لأنهم وحيدو أحد آبائهم، أو لأسباب مرضية، أو الذين دفعوا بدل الاغتراب بالعملة الصعبة، بعد تخفيضه من 15000 دولار إلى 8000 دولار أمريكي، التي لا يهمهم من أين أتى بها دافعها، بل يشترط ألا يشوب أوراقها خدش أو حتَّ أو أي أثر من آثار القدم، المبلغ الذي يعادل اليوم 4 ملايين ليرة سورية، فقط، أي ما يقارب 400 راتب تقاعدي لقريبتي «أمّ إبراهيم»، وأدعها لكم حساب كم سنة، التي تكلفني بسحبه لها من الصراف الآلي كل شهر. ورغم هذا، فإن دافعي البدل العسكري معرّضون أن يُستوقفوا على الحواجز، وربما يسمعون

بعض عبارات التجريح في أنهم دفعوا مالاً بينما أقرانهم دفعوا دماً وأرواحاً، وقد يأخذونهم إلى مقر الشرطة العسكرية، حيث يمكثون لساعات، أو لأيام، أو لأسابيع، أو لأشهر، وإذا سأل عنهم أهلهم، يخبرونهم بأنه جرى في الفترة الماضية تزوير دفاتر عسكرية وأوراق ثبوتية كثيرة، ولا بدّ من التدقيق والتأكّد.

قالت لي صديقة لادقانية، إنها قبل عودتها بأيام من الولايات المتحدة الأمريكية، قرأت مقالي «سنبقى»، وقد شجّعها كثيراً على العودة، ولو لزيارة مؤقتة، ولكنها أردفت: «أنتم بقيتم، ولكن أين ذهب كلّ صبيان اللاذقية؟».

لا شباب في اللاذقية، جميعهم، إمّا خرجوا من البلد، ليس بسبب الحرب فحسب، بل، ربما أكثر، لانعدام سبل العيش، ولانعدام المستقبل، وإمّا يمضون خدمتهم العسكرية، ذلك أنه لم يُسرَّح أحد، جندياً كان أو ضابط صف، أو ضابطاً مهما كانت رتبته، منذ نصف عقد من السنوات، إلّا لأسباب فوق القاهرة، أو استشهدوا وباتوا غصّة خانقة في قلوب أهلهم وأحبتهم. لا شباب في اللاذقية، مدينة وريفاً، ولا شباب في دمشق وحلب وحمص وطرطوس وجبلة والسويداء ودير الزور و... لا شباب في سوريا كلها، والحرب ما زالت تعمل عملها في نهش البقية الباقية منهم، وهنا يبرز السؤال: «عندما ستنتهي، وتستقر الأحوال، بطريقة أو بأخرى، من أين ستأتي سوريا بمن يعيد إعمارها، ويبني مستقبلها، بعد كلّ هذا الدمار؟».

اللاذقية 16/ 6/ 2016

الدبابة الإسرائيلية..
الهدية لا تُهدى سيدي الرئيس «بوتين»!

«من غير اللائق ألّا تنزع بطاقة السعر عن الهدية، وخاصة إذا كانت رخيصة!».

صدقاً، أريد أن أفهم. أنا مواطن سوري عادي، بسيط، من شعب يعاني، طوال الخمسة أعوام الماضية، الموت والدمار والتشريد والجوع، ما لا يعانيه اليوم أي شعب في العالم، فقط أريد أن أفهم. فليتطوع أحد ما ويفهمني، أحد أولئك الذين صدقوا، وجعلوني أصدّق أيضاً، ذلك لأن لدي حاجة للتصديق، بالنيات الطيبة لروسيا الصديقة في تدخّلها العسكري في سوريا، وبأنه، حتى ولو كان ذلك تحقيقاً لمصالحها، لماذا لا؟ فإنه يصبّ في مصلحة بلدي وشعبي.

أحد ما، أيّ أحد، لا فرق عندي، يُفهمني هذه الواقعة البسيطة، هذه القصة العابرة التي تناولتها بعض الأقلام وبعض الألسن، ثم نستها وصمتت، إلّا أنها، بالنسبة لي، منذ أن سمعتها، كانت لغزاً محيّراً، مبهماً، أشبه بدوامة ذهنية وأخلاقية ووطنية، وهي: «إعادة روسيا الدبابة الاسرائيلية التي غنمتها سوريا في حرب لبنان 1982، إلى الكيان الصهيوني».

روسيا، الحليف الاستراتيجي التاريخي لسوريا، وسندها

الدبلوماسي والسياسي والعسكري، منذ دهر، منذ كان يطلق عليها «الاتحاد السوفييتي»، إلى اليوم الذي تحلّق فيه ميغاتها وسوخوياتها، على ارتفاع منخفض، كل يوم وكل ساعة وكل خمس دقائق. وها هي ذي الآن، تصدر زئيرها الأجوف المخيف، فوق بيتي. وروسيا التي إذا مرّ بعض جنودها الشقر ذوي الأنوف الحمراء في شوارع مدينتي يجدون من يعانقهم ويقبّلهم، وربما يجدون أيضاً من ينظر إليهم شزراً ويخافهم في سره، لكن ذلك خارج سياق ما أكتبه الآن، والتي يلصق الجنود السوريون صورة رئيسها بجانب صورة رئيسهم، تصديقاً لنواياه الطيبة تجاه بلدهم، هذا ما أراه وأعيشه في حيّزي الجغرافي، أمّا في بقية المدن والقرى السورية فأنا أدعها لمن يحيا هناك، مكرمة توصيف دورها الوطني في قصفها وتدميرها وتحريرها من الثوار والإرهابيين، مع التذكير بالحفل الموسيقي الذي قدمته أوركسترا مسرح «مارينسكي» الروسية، بمشاركة عازف التشيلو الشهير «سيرغي رولدجين»، صديق الرئيس «بوتين» المقرّب، على مدرج مدينة تدمر الأثري.

وافق الرفيق «فلاديمير لينين» رئيس الاتحاد السوفييتي، عفواً أقصد السيد «فلاديمير بوتين» رئيس روسيا الاتحادية، نعم، ما زال بعض السوريين، وأنا منهم، يلفظون سهواً: «الاتحاد السوفييتي» بدل «روسيا الاتحادية»، وأصدر بنفسه، دون العودة إلى أحد، مرسوماً رئاسياً، بالموافقة على طلب رئيس وزراء إسرائيل السيد «بنيامين نتنياهو» إعادة الدبابة (Magach-3) المصنّعة في إسرائيل على نموذج الدبابة الأمريكية الشهيرة (باتون ت 48) والتي كانت تعتبر وقتذاك آخر مستجدات صناعة الدبابات، المزودة لأول مرة بنظام الحماية «كشف وإنذار وصدّ» النشطة.

ولكن ما هذا؟ ما هذه إسرائيل؟ ألا يموت لها ميت؟ تطالب برفات

جاسوس لها أُعدم في دمشق، منذ 50 سنة؟ وتعتبر ملف جنودها الثلاثة المفقودين منذ عام 1982 ما زال ساخناً؟ ما هذه إسرائيل؟ تطلق سراح 4700 أسير فلسطيني ولبناني مقابل 6 من جنودها، وتقايض 427 أسيراً، بـ3 جثث لجنود إسرائيليين، أحدهم غير يهودي؟ يذهب رئيس وزرائها في زيارة رسمية إلى الدولة التي كانت تزود أعداء بلده بجميع أنواع السلاح الذي يهدد وجودها، وفي بال هذا الرئيس الوزراء شيء واحد، لا يخطر على بال أحد، وهو إعادة دبابة قديمة، يعلم أنها موجودة في متحف الدبابات في موسكو، غنِمَها الجنود السوريون في معركة مرج السلطان يعقوب، التي جرت في منطقة البقاع اللبنانية، بتاريخ 10 و11 حزيران 1982، بعد 6 أيام من بداية الاجتياح الإسرائيلي الأول للبنان، والتي تمثل إحدى الذكريات الحربية الأشد إيلاماً بالنسبة للإسرائيليين، ذلك أنه، عكس مجريات تلك الحرب ونتائجها عموماً، وعكس ما أشيع وقتذاك عن أن الدبابات الروسية التي كان يستخدمها الجيش السوري كانت أشبه بدبابات «كرتونية» من الورق المقوى، فقد ألحقت القوات السورية هزيمةً نكراء بسلاح الدبابات الاسرائيلي، مدمِّرة 40 دبابة ومدرعة، ويقال أكثر، ومستوليةً على 8 دبابات أخرى، واحدة منها مع طاقمها، كما قتلت 30 جندياً، وجرحت المئات، والأكثر من كل هذا إيلاماً وإحراجاً لإسرائيل، فقدان 8 من جنودها، لا يُعرف إلى اليوم مصيرهم.

يا لها من صور يقلّبها السوريون في ذاكرتهم، وهم يشاهدون السيد «نتنياهو» في متحف الدبابات في موسكو يستعرض تلك الدبابة، التي انتزعوها بلحمهم الحي في حمى تلك المعركة، وأرسلوها كدليل على عرفانهم بالجميل، إلى حليفٍ ورفيق سلاح، وأقسم إني رأيت، في اللقطات المقربة لتروسها وجنازيرها، بعضاً من تراب أرض البقاع

عالقاً بها، ثم يقوم السيد «نتنياهو» باعتلائها مع بعض صحبه، وكأنه الجنرال غورو (الذراع المبتورة)، واقفاً على قبر صلاح الدين في دمشق، بعد انتصار جحافله على ثلة من الفدائيين السوريين على رأسهم يوسف العظمة وزير دفاع سوريا، في معركة ميسلون الخالدة، فيركله ببوطه العسكري ويصيح: «استيقظ يا صلاح الدين، ها قد عدنا!». إلّا أن «نتانياهو» بدل أن يركل الدبابة، وقف وألقى كلمة قال فيها: «إن موافقتكم على طلبنا إعادة الدبابة لإسرائيل، لفتة إنسانية فائقة، وبادرة حسن نيّة نثمّنها عالياً». وأنا إذا فهمت، ولو بصعوبة، كيف أنها بادرة حسن نية، رغم أني في الحقيقة لا أعرف ما إذا كان السيد «بوتين» قد أظهر سابقاً أي نية سيئة تجاه إسرئيل، ولماذا يفعل؟ وإسرائيل بالنسبة له غيرها بالنسبة لنا نحن السوريين والعرب. كما أن اللوبي اليهودي في بلد «ستالين»، الذي عرف عنه كرهه لليهود، حتى لرفاقه الشيوعيين منهم، بات، كما يتردد، لا أقل قوة، ولا تأثيراً من نظيره في بلاد العم سام. ولكن، أن تكون إعادة دبابة حربية، أداة القتل والتدمير، لفتة إنسانية فائقة، فهذا ما لا يمكن لأحد، لا فهمه، ولا قبوله!

ماذا لو، ماذا لو، ولو في الخيال، استغل «نتنياهو» كرم الرئيس «بوتين» الزائد، وطالب بإعادة البندقية الإسرائيلية التي قدّمها السيد «حسن نصر الله» للّواء «رستم غزالة» عشية خروج الجيش السوري من لبنان عام 2005؟ بالتأكيد، ودون أدنى شك، ليست سوريا، وليس السوريون، من يفرّط بالأمانة، ويفعل هذا مقابل أيّ شيء في العالم.

ولكن، يا للمفاجأة! وأنا أقلب ما كتب عن هذا الموضوع في صفحات الإنترنت، فإذ بي أقرأ، بأن الدبابة التي أعادتها روسيا إلى إسرائيل، ليست دبابة المفقودين الثلاثة ذاتها، أي أن السيد «نتنياهو» كان إمّا مخدوعاً وإمّا خادعاً وهو يقول: «إن عودة هذه الدبابة ستكون

بمثابة ذكرى ملموسة لعائلات زخريا بوملي وتسفي فيلدمان ويهودا كاتس»، الذي انفجرت أخته صائحة: «هذه ليست دبابة يهودا».

لا أعرف شيئاً عن معنى الهدية عند الشعب الروسي، ولكن عندنا، عند السوريين، عند شعبي، الهدية لا تُهدى، سيدي الرئيس «بوتين».

اللاذقية 1/ 7/ 2016

«بدوي الجبل»: لم يغادر إلى جنّة الغرباء

«أقدّم إلى العربيّة ديوان شاعرها بدوي الجبل».

بهذا افتتح «أكرم زعيتر» مقدمته لديوان «بدوي الجبل». لم يقل أقدّم إلى محبّي شعر «بدوي الجبل»، لم يقل أقدم إلى قراء الشعر العربي، حتى لم يقل أقدم إلى الشعب العربي، قال: «أقدم إلى العربيّة»، كلّ العربيّة، لغة، وشعباً، وأرضاً، وتاريخاً، وقيماً، يقدم لها ماذا؟ «ديوان شاعرها... بدوي الجبل».

رحمك الله يا أكرم زعيتر (1909–1996)، يا نابلسي يا فلسطيني يا عروبي، يا معلم، يا وطني، يا مناضل، يا أديب. من هذا نبعت ثقة «بدوي الجبل» بك، وأيّ ثقة! وعهده إليك، وأيّ عهد! عهده بديوانه، عصارة أيامه، وكنز حياته، وتاج كيانه، ومعنى وجوده، كي تشرف وتصحّح وتجيز طباعته. أنت، وبعد طول تشرّد في أمصار وعواصم، من نابلس إلى بغداد إلى دمشق إلى عمان، حططت رحالك، في بيروت. وهو، بعد طول شقاء، وغزير أذى، وعميق خيبة، رهين وطنه «سوريا»، سجين بيته في اللاذقية. أنت يا من عرف حقّ قدره، ويا من استطاع بسطر أن يوفيه هذا الحق، نعم، كان يكفي هذا السطر، يكفي ويزيد، ولكنك، تعلم أن مقدمة لديوان كهذا، لأثرٍ كهذا، لا بدّ أن تكون

مستحقة له، لائقة به، فجهدت، وأغدقت، وأفضت. ستون صفحة، من الكلمات والأفكار والشواهد والقصص، عن «بدوي الجبل» ومنه وإليه، ما جعل من مقدمتك مشهداً ملحمياً لمسيرته المتسامية، وتأريخاً وطنياً وقومياً وإنسانياً، لمعلم وطني وإنساني، وتتويجاً شعرياً، ما دام الشعر هو إكليل الغار الخالد على رأس الشاعر.

ولد «ديوان بدوي الجبل» بأبهى حلّة، في بيروت بتاريخ 1/ 10/ 1978، بعد فترة حمل طويلة، وبعدها مخاض أليم، قاساهما صاحبه، هو الذي لم يصدر سوى «البواكير»، سنة 1925، بإهداء: «إلى الشهيد الراقد في ميسلون، الروح الكبيرة التي تمرّدت على العبودية». بينما كانت الحرب الأهلية تطحن برحاها بيروت، لكن هذا لم يمنع أن تنفد 5000 نسخة مطبوعة من الكتاب، وسنة 1978 لم تنته بعد. بيعت المئات من النسخ في لبنان والأردن والعراق ومصر، أمّا الآلاف فبيعت في سوريا، وطن «بدوي الجبل»، ووطن أهله وشعبه. لكن شيئاً في الكتاب كان مستهجناً في سوريا حينذاك، فاستقبل حدث صدور ديوان شاعرها الكبير، الذي اعترفت بعلو كعبه المنابر والقامات الشعرية والأدبية العربية كافة، بردة فعل غير راضية وغير معلنة في آن، ذلك الكتمان، والتجاهل، والتنكر. فلم ينوّه بصدوره خبر صحفي، ولم يُكتب عنه مقال، لم يُشِد بمضمونه أحد، وكذلك، لم يهاجمه أحد، ولهذا دلالته العميقة... «بدوي الجبل» لا يمكن مهاجمته في سوريا! دخل الديوان وطن «البدوي»، واقتنى مواطنوه نسخه، التي نفدت بأيام معدودات، ووضعوه بجانب ديوان المتنبي وديوان أبي تمّام، وهذا كلّ شيء.

أنا أيضاً، ابتعت نسختي وأهديتها لأبي، وعمدت أن أزور «بدوي الجبل»، في بيته، أو بيت أحد أبنائه، المطل على حديقة «البطرني» في

اللاذقية، بصحبة صديق أدين له بلقائي الشاعر وتكحيل عيني بمرآه، أذكر ترحيبه وتباسطه معنا، ومبادلتنا المزاح، يا لتلك الروح البسيطة والعظيمة بآن! وفي المقابل، أذكر أنّني التقيت بعدها، بشخصية مقرّبة من الحكم، فسألني إن كنت اطّلعت على ديوان «بدوي الجبل» وعن رأيي بإهدائه، أجبت مستدركاً ما خمنت سبب سؤاله: «نعم، وظنّي أن البدوي كان صديقاً للملك فيصل، وتأثر كثيراً باستشهاده»، عندئذٍ قال وكأنه ينهرني: «ولماذا، أنتم، الشعراء التقدميين، لا تقومون بدوركم في التصدّي للشعراء الرجعيين، كـ«بدوي الجبل» وأمثاله؟».

أعود الآن وأقرأ الإهداء، في طبعة الديوان الأولى، التي لم أفاجأ بوجودها في مكتبة جاري في الطابق الثاني، وسأنقله بكامله هنا، كوثيقة أدبية:

[إلى الملك الشهيد فيصل بن عبد العزيز آل سعود. لقد حرمك استشهادك أن تصلّي في المسجد الأقصى، ولكن استشهادك سيكتب في لوح القدر أن يصلي المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها في المسجد الأقصى. وستكون ذكراك وأحزانك وإيمانك النغمة السمحة الساجية عندما يؤذّن المؤذّن فيه: الله أكبر. الله أكبر. وعندما يتابع المؤذن: وأشهد أنّ لا إله إلّا الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله].

وهنا يصح ترداد: «بان السبب وبطل العجبّ»، لقد تمّ اعتبار الإهداء، نكراناً لجميل الرئيس حافظ الأسد، الذي، يروى أنه، عندما اعتُدي على «البدوي» أثناء قيامه برياضته الصباحية في دمشق بتاريخ 27/ 4/ 1968، واختُطف لثلاثة أيام من قبل ملثّمين، لم يجر الكشف عن هويتهم والجهة التابعين لها، رغم مرور كل هذا الزمن، أنّه، بصفته وزيراً للدفاع آنذاك، قد وجّه إنذاراً صارماً للخاطفين، أجبرهم على إطلاق

سراح الشاعر ورميه فاقد الوعي أمام أحد المشافي. وذلك، كما يروى أيضاً، عقاباً على قصيدته «من وحي الهزيمة» التي يهاجم فيها الحكّام العرب، دون أن يستثني، كما تقتضي الحكمة وقتذاك، حكّام بلده. وقد بقي «البدوي» متأثراً بهذا الاعتداء، جسدياً ومعنوياً، حتى وفاته.

ويا لها من مفاجأة، بعد 38 سنة من ولادة «ديوان بدوي الجبل»، و35 يسنة من رحيل صاحبه (1903–1981)، أن تقوم وزارة الثقافة – دمشق، بإصدار الطبعة الثانية منه، وبحلّة لا تقلّ عن الأولى، فخامة وأناقة، إلّا أنّها تزيدها سعراً، بستة وعشرين ضعفاً، وكأنه علينا حتى مع الكتب أن نأخذ بالحسبان ما آلت إليه قيمة صرف الليرة السورية بالعملات الأجنبية، وبسبب هذا السعر، رغم حسم: 50% منه، كما أخبرني الموظف المسؤول عن صالة بيع الكتب في المركز الثقافي، ما زال هناك عدد كبير من النسخ مكدّسة على الطاولات والرفوف. نعم، الكثيرون من مشتري الكتب السوريين، لا يملكون، اليوم، هذا الوافر من النقود، ليبتاعوا ديواناً شعرياً، حتى وإن كان صاحبه شاعرهم الكبير «بدوي الجبل».

سعر النسخة الجديدة 2600 ل.س. ولكن، خلافاً لما اعتادت وزارة الثقافة في تاريخها طويل، لم يكتب: «داخل القطر»، ومقابلها «في الأقطار العربية / ...../ ل.س أو ما يعادلها». فمنذ ست سنوات تقريباً، ماعادت كتب وزارة الثقافة ذات السمعة الطيبة في البلاد العربية، تخرج من حدودها. لذا، أعتقد، لم يطبع من الكتاب سوى 1500 نسخة، ولذا أيضاً، هذه المرة، «أكرم زعيتر» لا يقدّم إلى العربية ديوان شاعرها «بدوي الجبل». فيا للحسرة!

غير أنّ مفاجأة أخرى كانت تنتظرني، وأنا أقلب صفحات الطبعة الثانية، إذ وجدت مقدّمتين إضافيتين، أو لأقل استهلالين، لأنّ مقدمة

«أكرم زعيتر»، لحسن الحظّ، ما زالت تحتل مكانها في الكتاب، الاستهلال الأول، بتوقيع السيد وزير الثقافة (السابق)، وفيه توضيح هام، أنّ الوزارة قد عملت على تدقيق الطبعة الجديدة وتنقيحها، وفق التصويبات التي أوردها الشاعر العربي الكبير بخطّ يده على نسخة الطبعة الصادرة في بيروت، كما تمّت إضافة أبيات لعدد من القصائد وردتنا من عائلته، فضلاً عن قصيدة رثاء كتبها الشاعر في مطلع شبابه. الأمر الذي استهجنه البعض، لأنّ القصيدة ليست بسويّة شعر «البدوي»، ولأنّه لو رغب الشاعر بإضافتها إلى ديوانه، لأضافها بنفسه ضمن جملة تصحيحاته، ولكن من يعلم؟

الاستهلال الثاني، جاء إهداءً، إهداءً بديلاً، مذيلاً باسم «آل بدوي الجبل» مما أثار استغرابي، فأنا أعرف أن «بدوي الجبل» من «آل الأحمد» وهم لا يُختصرون باسم «بدوي الجبل» مهما علا شأنه بينهم، فالأب الإمام العلامة «سليمان الأحمد» وصاحب المقام، هو بحدود معرفتي، من تنتسب له وتكنّى به العائلة، لكنّ هذا ليس وحده اللافت، فقد رأى «آل بدوي الجبل» بإحساس عال من الوطنية، وسورية، وطن «بدوي الجبل» الذي اختار الموت فيه، رافضاً خيارات وعروضاً كثيرة، أحدها من الرئيس جمال عبد الناصر، رغم أنه هجاه يوماً، ولقّبه بـ«كافور» و«فرعون»، قائلاً: «مهما حدث لي في وطني أخفّ علي من جنّة الغرباء»، رأوا أن يجزموا أنه: «لو كان البدوي حياً ورأى البطولات والتضحيات التي يسطّرها رجال الجيش العربي السوري، وأبناء شعبنا الأبي، الذين ظلوا أوفياء لقيم الإباء الوطني والعزة القومية واستقلال سوريا ووحدتها – هذه القيم نفسها التي بذل بدوي الجبل عمره منافحاً عنها – لما أهدى ديوانه إلّا للشهداء الأبطال...».

وهكذا بات طبيعياً – بغضّ النظر عن استحالة إبقاء إهداء كهذا،

على كتاب تصدره جهة رسمية في سوريا، بتوجيه من رئيسها وشكر له، كما ختم الاستهلالان، إلى ملك دولة متّهمة اليوم بالضلوع في المؤامرة الكونية على سوريا – أن يُنسخ، تلاوة وحكماً، الإهداء الأول لـ «بدوي الجبل»، الذي جعلوه يبدو وكأنه عاد معتذراً وتائباً، ويصحّح التاريخ كما يريد من يعيدون كتابته على النحو الذي يهوون.

اللاذقية 16/ 7/ 2016

ليلة القبض على «أردوغان» في اللاذقية

الجمعة 15/ 7/ 2016، الساعة الحادية عشرة والنصف مساءً، وأنا أتابع أحداث الحلقة الأخيرة من مسلسل انقطاع الكهرباء اليومي: «العيش في الظلام»، التي نادراً ما يحدث خلالها شيء ذو بال طوال الأربع ساعات غير المنقوصة دقيقة واحدة، من العتمة والصمت، فإذ برنين الهاتف الأرضي الذي بات نادراً ما يُسمع رنينه خلال اليوم كله، والصوت الهادئ لجاري: «منذر.. هناك محاولة انقلاب في تركيا». فما كان مني، أنا الهلوع، بعد إجراء بعض الاتصالات الأرضية، وإخبار هذا وذاك من الأصدقاء، إلّا أن أوقظ زوجتي، وأهبط بها، على عجل، رغم الظلمة الشديدة، الدرج النازل من منزلي في الطابق السابع إلى منزل جاري في الطابق الثاني، لنتابع الأحداث معاً، كما يحدث عادة في الخطوب والملمّات، وكما حدث، منذ زمن غير بعيد، عشية تهديد الولايات المتحدة الأمريكية بقصف سوريا.

لا أظن الإجابة عن سؤال: «لماذا الانقلاب في تركيا بالنسبة لنا، نحن السوريين، داخل سوريا وخارجها، حدث خطير لدرجة تسمح باعتباره حدثاً سورياً بامتياز؟»، بخافية على أحد، كان يكفيني رؤية القلق الشديد الذي يعتري زوجة جاري على عائلة ابنتها المقيمة

في «أزمير» منذ 3 سنوات، ويجعلها غير قادرة حتى على الجلوس والاستماع لتطمينات زوجها، بأن ما يحدث يقتصر على «إستانبول» التي علمنا بإغلاق الجسر الذي يربطها مع الجزء الآسيوي من الأراضي التركية، والعاصمة «أنقرة» حيث شاهدنا على «السكاي نيوز» العربية، القناة التي كان لها السبق في نقل تصريح رئيس الوزراء التركي «بن علي يلدريم» بوجود محاولة انقلابية، صوراً ولقطات «فيديو»، لدبابات وعناصر من الجيش التركي يغلقون الشوارع، دون أي مقاومة، لا بل بوجود بعض المهللين. غير أنه سرعان ما انقلب المشهد، عندما نزل إلى الشوارع جموع من المدنيين، استجابوا لدعوة الرئيس «أردوغان»، دعمتها نداءات صدحت بها المآذن، وهم يلوحون بعلم الدولة التركية، فلا صور لأردوغان ولا لافتات أو رايات دينية، وراحوا يتسلقون أبراج الدبابات، ويخرجون من داخلها طواقمها، مظهرين المشاعر الأخوية، وهم يقتادونهم كأسرى. وكأن هؤلاء الجنود ما كانوا أكثر من مأمورين لتنفيذ مهمة من قبل قادتهم الانقلابيين، وذكر أنه شابت هذه المظاهر أحياناً قسوة زائدة، وصلت في حالات معينة إلى القتل.

إلا أن موجات إطلاق نار كثيفة ومتواصلة، آتية من أطراف المدينة، ومحيطها، أضاءت سماء اللاذقية المطفأة، المشمولة ببرنامج التقنين الكهربائي. وكالعادة، كي يعرف سكان حي ما، ماذا يحصل في حي آخر بعيد في جهة أخرى من المدينة، اتصلت بصديق لي، وسألته عمّا يحصل في حيه، وكأنه كان ينتظر سؤالي لينفجر: «ماذا يحصل؟ اسألني ماذا لا يحصل. قيامة وقامت، احتفالات وتجمعات لم أر مثيلها منذ أيام المسيرات المليونية، عشرات وربما مئات من السيارات والميكروباصات والمركبات ذات الدفع الرباعي، تتدافع في مواكب طويلة صاخبة، ولكن بما أن زعيق الأبواق وصداح الأغنيات الوطنية

والنضالية، لا يصل إلى أسماع إخوانهم سكان الأطراف الأخرى من المدينة، القابعين في بيوتهم وعيونهم شاخصة بما يحدث، ولا للأقمار الصناعية التي تراقب وترصد كل شيء في سوريا، فهم يفجرون القنابل الصوتية ويطلقون الأعيرة النارية من مختلف أنواع الأسلحة التي يحملونها أينما ذهبوا، أو التي أخرجوها من الخزائن احتفالاً بالمناسبة. الرصاص الطائش في كل اتجاه، لدرجة أننا أغلقنا كل النوافذ، ولا أحد منا، سوى ابني على غفلة من أمه، تجرأ على الوقوف والنظر من الشرفة للحظات. لماذا كل هذا؟ ليس أنت من يسأل هذا السؤال، ما يحدث يا صديقي هو ما كانوا ينتظرونه ويحلمون به منذ خمس سنوات وربما خمسين وربما خمسمئة. فهذا الـ«أردوغان» يا صديقي، عدوهم الأول، إن لم يكن الأوحد، خليفة السلطان سليم الثاني، سارق مصانع حلب، ومؤجّج الحرب في سوريا، والداعم والمسلّح للإرهابيين الذين يقتلون إخوتهم وأبناءهم. أمّا قبوله بمليونين ونصف مليون لاجئ سوري، فليس إلا لسرقتهم وسرقة ممتلكاتهم في سوريا، من جهة، ولاستخدامهم كرهائن من جهة ثانية! نعم، تقتضي المصلحة الوطنية، والمشاعر الوطنية الجياشة، ليس فقط زوال حكم «أردوغان» وحزبه الإخواني، بل قيام حرب أهلية في تركيا – من ساواك بنفسه ما ظلمك – تؤدي إلى تقسيمها وزوالها كدولة قوية موحدة، ضمانة لزوال خطرها الدائم والمسلط على رقابنا كالسيف الباتر!».

خلال ذلك توالت أنباء سيطرة الانقلابيين على مبنى التلفزيون الرسمي، ومقر هيئة الأركان، وقصفهم وحصارهم للبرلمان، دعمتها مواقف وتصريحات ملتبسة، بوجوب تجنب إراقة الدماء، واحترام المؤسسات الشرعية والحكومة المنتخبة، التي أعلنها بحياء بعض المسؤولين في الدول الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية، لا بل إن

سفارة الأخيرة وصفت الانقلاب بأنه «انتفاضة»، مدعية أنها لا تعني لفظتها سهواً! والتي من المفترض بها كأنظمة ديمقراطية، وكدول صديقة لتركيا، وشريكتها في «الناتو»، أن تكون رافضة للانقلاب العسكري بكل صراحة ووضوح. الأمر الذي جعل أغلب التحليلات تذهب إلى إن حدوث انقلاب كهذا لا بدّ أن يكون بمعرفة هذه الدول، أو بموافقتها، وربما بدعم منها. مما أوصلني إلى ما يقارب القناعة بأن الانقلاب لا بدّ أنه سينجح، وأن سقوط «أردوغان» قضية ساعات لا أكثر، أكّد هذا ظهوره الباهت، ودعوته الشعب للتصدي للانقلابيين، الأمر الذي فهمته وكأنه استغاثة غريق، خاصة أنه على الشريط الإخباري لإحدى القنوات التلفزيونية، ظهر نبأ طلب «أردوغان» اللجوء إلى ألمانيا، مسرّباً عن مصدر أمريكي، كما قيل.

أمّا جاري الهادئ، فقد كان واثقاً من فشل الانقلاب.

رافق تتابع أنباء استسلام الانقلابيين في مبنى الأركان، وعودة التفزيون الرسمي للبث، والظهور الثاني للرئيس التركي «أردوغان» مهدداً ومنتصراً، خمود تدريجي لأصوات إطلاق النار، أتاح لنا سماع إنذارات سيارات الإسعاف وهي تمضي مولولةً باتجاه المشافي الحكومية، وقد تناقلت وسائط التواصل الاجتماعي خبر العديد من الإصابات، ووفاة طفل بعمر التاسعة، كان نائماً على أحد أسطح البنايات، بطلقة نارية ساقطة من السماء على رأسه. واستيقظ أهالي تلك الأحياء صباح اليوم التالي، على صمت شديد يعمّ الساحات والشوارع، وقد انتشرت على أرضها آلاف الفوارغ، فوارغ الطلقات النارية، وفوارغ الآمال الخلبية، على حد سواء.

اللاذقية 21/ 7/ 2016

الكتابة في درجة الصفر السوري

سألته، عما إذا كان قد قرأ «ليلة القبض على أردوغان في اللاذقية» مقالي الأخير في موقع «هنا صوتك»، فأجاب مبتسماً وكأنه ينتظر مني هذا السؤال منذ دخولي لمكتبه ورؤيته منحنياً يحملق بنظارته المكبرة في شاشة «الكومبيوتر» المكتبي: «نعم، وأعجبني، مثل سابقه عن الدبابة الإسرائيلية. ولكني، كما تعلم، لا أجرؤ على التعليق، ولا حتى وضع إشارة إعجاب عليه، والله يا أخي يحيرني كيف تكتب هذه المقالات وتنشرها على الملأ، وأنت تحيا هنا، بين ظهرانينا، كواحد منا. ولكن وفي الحقيقة، لدي تفسيران: الأول؛ أنك مدعوم، وظهرك محمي، أي أن هناك صفقة ما، لا أعرف تفاصيلها، بينك وبين من يعنيهم الأمر، أو أنك إنسان شجاع على نحو لا مثيل له!».

ضحكت، يوماً لم يبخل عليّ صديقي بالإطراء الذي يبدو وكأنني أزوره من حين لآخر لأسمعه منه، ثم أجبته: «سأبدأ أولاً بتبديد تصورك الجميل عني، وهو تفسيرك الثاني لما تراه جرأة في كتابتي، بالتأكيد يا صديقي أنا لست إنساناً شجاعاً إلى ذلك الحد، ولا للأدنى منه بكثير، حتى يكاد يمسح الأرض، كما وصف مرة صديقنا (ك – م) السقف الذي حدده النظام لنشاط المعارضين وكتاباتهم، في منتصف العقد

الماضي. بل ربما العكس، وربما أكون أخوف الجميع، ألم تنتبه لوصفي نفسي: «أنا الهلوع»، وربما لأني أخاف إلى هذه الدرجة، أكره الخوف وصانعيه إلى هذه الدرجة، أكرهه وأكرههم حتى العظم، وكل ما أفعله، أنني أحاول ألّا أفوت فرصة المحاربة ومحاولة الانتصار، ليس عليهم، فهذا ما يفوق قدراتي كافة، بل على خوفي منهم وخوفي على نفسي».

كتبت كثيراً عن خوف السوريين وحقهم الشرعي أن يخافوا، من قبل الزمن الفاصل الذي خرجوا فيه وحاولوا هدم جدار الخوف الجاثم على صدورهم، ومن بعده. وكي أعطيك دليلاً سريعاً على خوفي الشخصي، هو أنني بعد أن أرسلت مقالي هذا للنشر، تنبهت إلى جملة فيه، أدل بها على عنوان بيتي، وإن ليس بدقة، بل فقط اسم الحي الذي أسكنه، فقمت سريعاً بحذف الجملة وأرسلت نسخة معدلة، وذلك تحسباً من أن تدفع مشاعر الإعجاب أحدهم فيأتي لزيارتي مع بعض أصحابه! نعم، إلى هذا الحد من التدقيق أُخضع كتاباتي، فأحذف وأبدّل وأعدّل تفاصيل، لو عرفتها لبدت لك صغيرة وتافهة، وربما لوصلت إلى قناعة بأني أخاف أكثر منك. ومرة أخرى أعود وأقول لك، إني، منذ بداية إقدامي على هذا النوع السقيم من الكتابات، لا أرسل أي مادة للنشر، حتى القصائد، إلا بعد أن أستدعي نفسي من قبلي أنا بالذات، وأخضعها للتحقيق، في كل جملة وكل كلمة، إلّا أنني أعترف بتساهلي معها، من حين إلى آخر.

أحسب، من مضمون ما ذكرته، أنه يمكن لك أن تعرف أن ظهري بارد كالثلج، وشائك كالعلّيق البري، فلا اتفاق ولا صفقة، خطية أو شفوية أو مضمرة، لأن أصحاب الصفقات يا صديقي، ليس عملهم هذا النوع من الكتابات، بل التأييد، والمديح، والتبرير، والتبشير... وإن

كان بعضهم قد يخلط الأشياء ببعضها، بحيث يبدو وكأنه يعارض ولا يعارض، إلّا أنه، مع الوقت، ومع تتابع كتاباته، لا بدّ أن ينكشف مهما خاتل أو مارى.

ومع ذلك أعترف، يبقى لدى الكثيرين الحق في الظن بشبهة ما، لأن إنكاري هذا، لا يجيب عن أسئلة المشككين والمرتابين، مثل: «كيف يسمحون لك بهذه الكتابات؟ لماذا لا يستدعونك ويفهمونك حدودك؟ لأي غاية يدعونك تصول وتجول وتظهر للناس بأنك معارض يحيا بين ظهرانيهم؟»، ثم يأتي ذلك السؤال الأشد أذية: «لماذا لم تغادر كسواك من أدباء وفنانين لهم الميول ذاتها؟ ما الذي تفعله هنا؟»، وبالتأكيد أستطيع أن أقدم عدداً لا بأس به من الأجوبة عن جميع هذه الأسئلة، إلّا أن كل جواب منها، مهما كانت درجة وضوحه، يستولد هو أيضاً المزيد من الأسئلة، كأن أجيبك: «ربما لأني شاعر معروف، ولي اسم داخل البلد وخارجها، فلا مصلحة لهم الآن، لأن يجعلوا مني وصمة أخرى في سجلهم الحافل بالوصمات»، فيكون سؤالك التالي: «وهل تظنهم يقيمون لشيء كهذا أي اعتبار؟». وإذا قلت لك: «إنني، مهما كتبت، لا أشكل هذا الخطر المحدق الذي يستدعي منهم محوه وإزالته»، فيأتي سؤالك: «وهل تصدق أن كل الذين اعتقلوا وحوكموا أو نفّذ بهم الحكم دون أن يحاكموا، وكل الذين خرجوا من البلاد ناجين بأرواحهم، كانوا يشكلون هذا الخطر المحدق الذي تقول عنه؟». ثم إذا نقلت لك، تفسيراً آخر سمعته مراراً: «يهم النظام بقاء أمثالك في البلد، فأنتم بمثابة شهادة براءة له، تثبت تسامحه وديمقراطيته أمام الآخرين»، فأقوم أنا وأسألك: «وهل تصدق حقاً أن مثل هذه الشهادات ما زالت تجديه نفعاً؟». وهكذا تتسلسل الأسئلة والأجوبة إلى ما لا نهاية.

جوابي الأخير يا صديقي، ربما يتجاوز كل هذه الأسئلة والأجوبة،

الهام منها والتافه، الصادق منها والملفّق، ليصل إلى ما أسمح لنفسي باعتباره جوهرياً ومصيرياً، هو أني أستمر في الكتابة لأستمر في الحياة، لأثبت لنفسي أني ما زلت موجوداً، لأني أصدق أن هذا الوجود والاستمرار يقوم على التواصل مع الآخرين والكتابة عنهم ولهم. الذين، بالدرجة الأولى، أراهم حولي، الذين لسبب أو لآخر، بقوا معي، والذين غادروا ويريدون أن يعودوا يوماً، إذا أتيح لهم ذلك، وإذا وجدوه أفضل لهم، وإذا وجدوا في العودة الخيار الذي يقدم الحل الأكثر سعادة ومعنى لحياتهم. لأنه كما يوقفني البعض ويقول لي: «ما لك وهذا الكلام؟ الأفضل لك، لنا جميعاً، الخرس». فإن آخرين يقولون لي، ويكتبون ويرسلون رسائل تكاد لا يخلو يوماً منها صندوق بريدي، أن أستمر، وأن أبقى معهم، فهم يجدون بي معنى ما، وأملاً ما، وسبباً للبقاء وربما للعودة، ولا أدري أي عزاء أن يقول لي أكثر من شخص عائد، إنه حزم أمره بالعودة، بعد قراءته لمقالي «سنبقى». فإن كان من حقي، وربما واجبي، أن أشك في نفسي وأكذّبها، فإنه لا يحق لي أن أكذّب الآخرين وأشك بكلمة واحدة مما يقولونه عني. نعم، أكتب لأني أصدق أن كتابتي يمكن لها أن تساعد أهلي وشعبي في عبورهم هذا النفق المظلم إلى آخره، حيث، لا ريب، سيشعّ في عيونهم ذلك الضوء، وكأنه الفجر الأول.

اللاذقية 10/ 8/ 2016

اقتراح غير سياسي للحلّ السوري

«إلى ماهر أبو ميالة، صاحب الفكرة،
وصاحب القلب، وصاحبي».

لا أحد يجادل في أن الوضع الذي آلت إليه سوريا، مأساة إنسانية متعذّرة على الوصف. كما لا أحد يجادل في أن الحرب التي تدور رحاها بلا رحمة، منذ خمس سنوات ونصف، تطحن الحجر والبشر، والماضي والحاضر والمستقبل في سوريا. كما لا أحد يجادل، فيما لو أن هذه الحرب استمرت، والكثيرون يؤكدون أنها كذلك، سنة أخرى، ثلاث سنوات أخرى، عشر سنوات أخرى، نعم، سمعت أحدهم يقول هذا قبل الجولة الأخيرة من مفاوضات (جنيف – 3)، فإنه لن يبقى شيء في سوريا، ومن سوريا، لا كياناً ولا أرضاً ولا شعباً، ولا حتى، اسماً. وإن كان لا شيء يعادل هذه الأحكام والتنبؤات إحباطاً ويأساً، فإنه يزيد عليها الذين يطلبون منّا، وبعضهم كان يطبّل ويزمّر لثورة الشعب السوري، أن: قولوا وداعاً لسوريا، سوريا ذهبت، ما عاد هناك سوريا.

فإذا وضعنا جانباً العدميين، الذين ما انفكوا يرددون: لن ينجو شيء، لن ينجو أحد، سوريا كلها، ذاهبة للفناء والعدم، مع احترامنا لهم، مع الذين من مصلحتهم اشتداد أوار الحرب واستمرار الدمار والموت، مع احتقارنا لهم، فلا أحد منا، نحن السوريين، الذين لا يريدون أن يرموا بأنفسهم إلى قاع اليأس، يجادل، في أنه، لا بدّ في النهاية من حل،

وأن الحرب، مهما كانت مسوّغاتها، ليست حلاً، وهذا ما أثبتته الحرب ذاتها، ليس فقط للمراقبين والمحللين، السوريين والعرب والأجانب جميعهم، بل حتى للطرشان والعميان والبله منهم. وأنه كلما تأخر الحل، وقد تأخر كفاية، بل تأخر أكثر مما ينبغي بكثير، فإن الكارثة تكبر والمأساة تتعمق والخلاص يقترب من الاستحالة. أي أنه علينا ألّا نكتفي بالصلاة ليأتي الحل بأسرع وقت، بل أن نعمل جاهدين لإيجاد حل، محاولين إزالة العقبات التي يمكن أن تعيق الحل، وربما تبطله، كل العقبات دون استثناء، يحتّم هذا مقدار حاجتنا إلى الحل، التي في حالتنا يصح وصفها «حياة أو موت»، «وطن أو مقبرة».

يعترض البعض: «لماذا تتعبون أنفسكم بالتفكير في الحل، وفي اقتراح حل على السوريين، وأنتم تعلمون أن الحل بأيدي (القوى –الدول) المتصارعة على مصالحها ونفوذها في سوريا والعالم، وأنه عندما تتفق هذه (القوى – الدول) على حل ما، لن يكون دورنا سوى أن نقبله صاغرين!». جوابي: «بغضّ النظر عما ذكرت، فهناك من يوافق عليه، وهناك من يرفضه، ولكن ما تقترحه، يعني الاستسلام الكامل لحالة انعدام الفاعلية، والعجز، وهذا مخالف لطبيعة البشر عموماً، والسوريين خصوصاً، ولولا هذا لما رأينا كل هذا يحدث. والواقع أن هناك آلاف السوريين يتحاربون ويتقاتلون، وملايين السوريون داخل وطنهم، وخارجه، لا يتوقفون عن التفكير والتداول في الحل، نوع الحل، وإمكانية الحل، وضرورة قدوم الحل، إلّا أننا نستطيع الادّعاء، أن جوهر فكرتنا، يزيد عن هذا بكونه يقترح حلاً حياتياً ومعيشياً، ويدعو لممارسة الحل، هذا اليوم، هذه اللحظة، على مستوى أفراد، أصدقاء، فرقتهم الأحداث، وقطعت كالسكين صلات حياتية كانت دهراً تربط بينهم، وعلى مستوى جماعات، فئات صارت تنظر إلى فئاتٍ غيرِها

كأعداء، وكأخطار تهدد وجودها، وهم في الحقيقة أهل وإخوة، لا خيار أمامهم في النهاية سوى العيش معاً».

قلت إن جميع السوريين، السوريين الذين ما زالت مصائرهم مرتبطة بمصير بلدهم، أي الباقين في سوريا ولم يغادروها، اختياراً أو اضطراراً، وكذلك سوريّي المخيمات والمنافي البعيدة الذين سيعودون ما إن تتاح لهم الفرصة ويعطى لهم الأمان، وهم ليسوا بقلة، مع أن «ماهر»، شريكي الغائب الحاضر في هذا المقال، يقول إن نسبة العائدين بعد نزوحات كهذه، وفي حالات أفضل من الحالة السورية، لا يمكن أن تزيد عن 20%! فليكن، إذاً، نحن، السوريين، هؤلاء وأولئك، الملايين، الذين نشكل الكتلة الرئيسية للشعب السوري، نرى حاجتنا أشد من ماسة إلى الحل، ونريد، وبأسرع وقت ممكن، حلاً، إلّا أننا نجد أنفسنا قاصرين عنه، عقبات كثيرة تعيقنا من الوصول إليه، ما نظنه أهمها، أسوأها، أشدها، حتى وإن فُرض حل ما على السوريين، تأثيراً سلبياً على حياتنا معاً، اليوم وغداً، هي خلافاتنا، كم مرة سمعنا آخرين، وسمعنا أنفسنا: «السوريون على خلاف حول كل شيء، السوريون لا يتفقون على شيء!»، خلافاتنا في فهم كل ما حدث وتقييمه وتسميته، ليس فقط منذ 18/ 3/ 2011، بل أيضاً ما حدث قبله بسنين، وبعقود، وربما بقرون.

نعم، الخلافات، أمر طبيعي، الناس جميعهم يختلفون، ولكن هناك طرق عديدة للتعامل مع الخلافات على أنواعها وأحجامها، وهذه الطرق، إن كانت على الصعيد الخاص، أو الصعيد العام، تخضع للظروف والسياقات التي تحيط بها، ما نراه اليوم بعد وصولنا إلى حالة الاستعصاء هذه، أن الحاجة الماسة إلى الحل، بل هي أكثر من ماسة،

تقتضي ألّا نتوقف عند هذه الخلافات، أن نحيد عنها، وكأنها، أو لأنها في الحقيقة، شراك وألغام، أن نتخلّى عن محاولة الاتفاق على هذه الخلافات، ولو مؤقتاً، للبدء في محاولة إيجاد الحل المنشود.

مثلاً:

- ثورة / مؤامرة.

- نزل الشعب السوري إلى الشوارع لأجل الحرية والكرامة / نزل بعض الرعاع مدفوعين من الخارج.

- النظام السوري نظام ديكتاتوري، دفع الشعب للثورة عليه / النظام السوري نظام مقاوم تكالبت عليه الدول الرجعية والاستعمارية، واستغلت فرصة ما يسمى الربيع العربي، للعمل على إسقاطه / النظام السوري، مثله مثل كل الأنظمة العربية، لا أقل ولا أكثر.

- الثورة طائفية / الثورة ضد الطائفية.

- العلم الأخضر ذو الثلاث نجوم / العلم الأحمر ذو النجمتين.

- تسلحت الثورة ردّاً على عنف النظام / الثورة بدأت مسلحة، ومخازن السلاح والأنفاق في درعا وحمص واللاذقية كانت مجهّزة / الثورة يجب ألّا تنجرّ إلى ميدان النظام.

- جبهة النصرة جزء من الثورة السورية / جبهة النصرة، كداعش، وكذلك أحرار الشام وجيش الإسلام و... اغتصبوا الثورة السورية ومثّلوا بجثتها.

- الائتلاف الوطني يمثل الشعب السوري / المعارضة الخارجية جميعها عميلة ومأجورة.

- الاحتلال الروسي / تدخّل الروس لمصلحة الشعب السوري / تدخل الروس لإنقاذ النظام.

- أمريكا تريد نشر الفوضى في سوريا والمنطقة / لا تنس إسرائيل.

قائمة خلافاتنا لا تنتهي، وهي ليست بين الموالين والمعارضين فحسب، بل أيضاً بين المعارضين والمعارضين، وبين الموالين والموالين، وبين من ليسوا موالين وليسوا معارضين، ضحايا الطرفين، لدرجة أنه بات مستحيلاً، مهما أحسنّا نيّاتنا، أن نصل إلى اتفاق حول أي منها، فما بالك حولها جميعاً.

ولكن، من يصدق أننا في الوقت ذاته، نتفق على قضايا كثيرة، وهي، لا ريب، الأصلح والأهم، القضايا التي ترسم مستقبلنا، وتحدّد أي حياة نريد، وأي سوريا نريد، فجميعنا نريد مستقبلاً آمناً، وحياة أفضل، وسوريا وطناً لجميع أبنائها. هل نريد سوريا دينية طائفية أحادية القومية والمذهب واللغة؟ بالتأكيد لا، أصلاً هي ليست كذلك، نريدها مدنية، الدين لله والوطن للجميع، تعددية، تضمن حقوق جميع «مكوناتها» الاقتصادية والسياسية والثقافية. من تراه يريدها مغلقة مسورة ومقيدة بسلاسل؟لا أحد! نريدها طليقة وحرة ومنفتحة، يحيا فيها مواطنون طلقاء وأحرار ومنفتحون. هل نريدها ظالمة لأهلها أو لفئة من أهلها أو لجيرانها؟ لا، نريدها عادلة ومتسامحة ومسالمة. هل نريدها أن تحكم تبعاً للأهواء والمطامع؟ وهل الأهواء والمطامع أسلوب حكم؟ بالتأكيد نريدها دولة دستور وقانون يخضع له الجميع ويحمي الجميع. هل نريد أن يحكمها أفراد، مطلقو الصلاحية يفعلون بها ما يرغبون، ويأخذونها إلى حيث يرغبون؟ لا، نريدها دولة ديمقراطية، دولة مؤسسات، تقوم على مبدأ تداول السلطة، واستقلالية السلطات واستقلالية القضاء، وتعبّر عن مشيئة مواطنيها، وهدفها مصلحة مواطنيها، وتحقيق آمال مواطنيها.

من لا يريد سوريا حرة وعادلة وآمنة، لا يريد لسوريا المنكوبة حلاً. ومن يريد سوريا دينية ومتحاربة وظالمة، يحكمها طغاة وأمراء حروب ورؤساء عصابات، ويسودها قانون المافيات والمليشيات، لا يريد لوطنه ولا لشعبه ولا لأولاده، الخلاص والمستقبل والحياة.

اللاذقية 24/ 8/ 2016

المحطة الأخيرة لمدينة ساحلية سورية

لا أحد يستطيع أن يتصور ما آلت إليه المدن السورية بعد خمس سنوات ونصف من حرب طاحنة لا تبقي ولا تذر، دمرت، حسب أقل التوقعات تشاؤماً 60% من العمار السوري الحديث والقديم على حد سواء، مطارح عريقة في القدم، حارات وأسواق وأسوار وبوابات أثرية، وجوامع وكنائس وخانات وقلاع وحصون وجسور تعدّ من التراث الإنساني، استطاعت النجاة عبر تاريخ طويل من الغزوات والاحتلالات والحروب، على مدى مئات وألوف السنين، لكنها لم تستطع إكمال رحلة نجاتها، للنهاية.

إلّا أن الخراب والدمار لا يتوقف عند دمشق وحمص وحلب ودرعا ودير الزور والرقة والقامشلي والحسكة والبوكمال ومدن وبلدات وقرى سورية من الصعب حصرها، بل يصل وربما يتخطى، إلى ما يطلق عليه البعض: «المدن الناجية». المدن السورية المحظوظة التي استطاعت، بطريقة أو بأخرى، ولسبب أو لآخر، أن تنجو من خراب الحجر الذي أصاب أخواتها، فحاق بها خراب من نوع آخر، خفي، لا يطفو على السطح، لذا لا تلتقطه النظرات العابرة، لكونه يغوص في الأعماق، خراب البشر، دمار الروح.

نعم، يحتاج المرء إلى أكثر من نظرة عابرة، إلى مدخل مدينة «جبلة»، حيث ينتصب ذلك البوط الأسود الكبير، أي رمز للبطولة هذا؟ لماذا ليس البندقية، أو الخوذة، مثلاً؟ أسأل لماذا وأنا أعلم! إلى أن تصل إلى كورنيشها البحري الجميل، عبوراً بجميع أحيائها وأسواقها، المغطاة باللافتات والصور الكبيرة والملونة للشهداء من أبنائها وأبناء البلدات والقرى المحيطة، الذين تختلط أسماؤهم ووجوههم بأسماء ووجوه أناس تعرفهم، أو تعرف، لا ريب، إخوة وأقارب لهم، لتشعر أيَّ نكبة حلّت بهذه المدينة، ولتهمس بصوت تتقصد أن يسمعه من جاء معك لأداء واجب العزاء لصديق من أهلها: «يا حرام يا جبلة، يا حرام يا جبلة!».

أمّا طرطوس، مدينة جدّي «رفعت مصري» وأبي «شكيب...»، خانة 153 البرانية، فقد اضطررت لزيارتها منذ ما يقارب السنتين، بسبب انتقال عيادة طبيب أسناني إليها، حيث أوقفني الحاجز الأمني عند مدخلها، وسألني، بعد تفتيش دقيق للسيارة، عن سبب قدومي لطرطوس، ثم سألني مستنكراً، بعد أن أخبرته السبب أعلاه، مضيفاً، لزيادة مصداقيتي، اسم الطبيب: «ألا يوجد أطباء أسنان في اللاذقية؟»، ثم فاجأني بعدئذٍ طبيبي ذاته بقوله: «ليتك لم تذكر اسمي، طرطوس يا أخي، فرع أمني كبير».

لكنّ موضوعي، اختصاصي، حبّي، أغنيتي، أمي، ابنتي، هي «اللاذقية»، وليس أي مدينة سواها، مهما بلغت معزّتها في قلبي، وأشهد أني أحبّ «حلب» وأهلها لدرجة أني يوماً فكرت بالسكن فيها. «اللاذقية» مدينتي، التي أشبعتها قصائد وحكايات وأقوالاً مأثورة، كالقصيدة التي يعتبرها البعض أفضل قصائدي قاطبة «لا أستطيع مغادرة الأغنية»، وذلك السطر الذي صدّرت به إحدى الباحثات

دراستها عن «اللاذقية» وتحولاتها خلال السنوات الأخيرة: «شرط الحب، أن تحب وأنت تعلم أن ما تحبه، يتغيّر، ويتبدل، ويوماً لا يعود هو هو»، وما عرّفت به نفسي على صفحتي في الفيسبوك: «شاعر ورسام سوري، ولدت وعشت وسأموت في اللاذقية، قرار لا رجعة عنه، مهما كانت الظروف، مهما كانت العواقب». «اللاذقية» التي بلّطوا، بغباء منقطع النظير، بحرها، وطمروا مسابح ومقاهي طفولتنا ومراهقتنا على كورنيشها الغربي، والتفتوا بعد ذلك وهدموا أقدم أحيائها، ثم أزالوا، وكأنهم مكلفون بمهمة مقدسة، بيوتاتها التي تصنع طابعها الجمالي المتوسطي: «قصر شريتح»، «بيت إسرب» الذي نزل فيه الزعيم أنطون سعادة، «بيت الطويل»، «بيت إلياس»، مقابل «كازينو اللاذقية» وقد بات نادي النقابات المهنية والعلمية، «بيت شدياق»، «بيت حبيشي»، و«فندق جمال» على اسم جمال عبد الناصر الذي نزل يوماً فيه، كما أزالوا بناء أشبه بالجوهرة البيضاء، كانت تحتله المحكمة العسكرية، ثم أحاطوا، بكتل حجرية بشعة تحجب الشمس والهواء، وربما الرحمة الإلهية، المشفى الوطني، المشاد على النمط الكلاسيكي للمشافي الفرنسية، حتى إنهم رفعوا ما يشبه قبراً عملاقاً فارغاً في حديقة «قصر سعادة».

نعم، «التغيير حقّ أكيد، ألا يتعب القضاة من آذانهم؟» يقول «أنسي الحاج».. ولكن أي تغيير هذا؟ أن لا يصدر فيها اليوم صحيفة واحدة، بعد أن كانت منذ نصف قرن، حين كان عدد سكانها لا يتجاوز 100 ألف نسمة، مدينة ذات 25 صحيفة ومجلة، أي تغيير هذا؟ إغلاق 14 دار «سينما» خلال فترة قياسية لا تتجاوز عقدي الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي، ثم أتت الأحداث الأخيرة، وأغلقت حتى سينما «الكندي» الحكومية، ماذا يعني أن تغلق 14 مكتبة ثقافية، وتنقلب بقية

المكتبات إلى تجارة القرطاسية والأدوات المكتبية، ما عدا ثلاثاً أو أربعاً منها؟ أي قحط حطّ في لاذقيتي؟ أي وباء دفع أجمل من فيها إلى هجرها؟ ماذا تعني اللاذقية من دون «غادة رباحية»، قالت لي مفسِّرة: «لم يبق شيء لي هنا!». و«مرام مصري»، «ندى منزلجي»، «هالا محمد»، أخواتي الشاعرات الثائرات، من دون الأربعائيين: «غازي أبو عقل»، و«سهل كومين»، و«ماهر أبوميالة»؟ ماذا تعني اللاذقية من دون «مصطفى عنتابلي»، و«رفعت مصري»، و«سهيل جازة»، و«فايز السيد»، و«دانيال شمالي»، و«محمد سلطان الغوري»، و«سبيرو عبد النور»، و«حسان زريق»، و«راتب شعبو»، و«دريد جبور»، و«بدر زكريا»، و«أسامة الفروي»، و«جورج مسرة»، و«شادي نصير»، و«مازن شمسين»، و«نجيب عوض»، و«إيلي عبدو»، و«عامر أبو حامد»، و«حسام جيفي»، و«محمد سالم»، و«محمد حبيب» الذي رفضتُ دعوته لحضور حفلة وداعه، وأخيراً وليس آخراً: «علي رحمون»، يالي من شرير، أتمنّى ألّا يعطوه إذن مغادرة، ويفقد فرصة السفر إلى السويد للأبد! ماذا تعني اللاذقية، والألوف من أبنائها وبناتها، من حملت بهم وولدتهم ليصنعوا مستقبلها، قد أداروا ظهورهم لها، وولّوا الأدبار، باحثين عن مستقبلهم في شتى أصقاع العالم؟ أي جرح نازف، أي دم مسفوك!

فإذا، بعد هذا النشيج، لم آسف على إغلاق أجمل مطاعم اللاذقية: «سبيرو»، «السراي»، و«موال»، و«مندلون» الذي أعيد افتتاحه كصالة ففراح!، فكيف لا أحزن حتى الحرقة على إغلاق مطعم «Last station» شارع المتنبي / حي الأمريكان، الذي اخترناه وهو اختارنا ليكون عرزالنا، نحن جماعة الأربعائيين، على مدار 25 سنة، وتزيد؟ هناك في الزاوية التي خصصت لجلستنا، حيث أصواتنا تنطح السقف وتلبط

الجدران، ونحن نتفق ونختلف حول كل القضايا التافهة والمصيرية في الشأن العام السوري، غير آبهين أن يسمع نمائمنا وشطحاتنا الفكرية والسياسية، جميع زبائن المطعم حولنا، «وكأنكم، لستم في القطر العربي السوري، بل في سويسرا!»، أو «ماذا عن المارونية المتصهينة، برأيكم؟»، مرات عديدة، سمعنا أشياء كهذه من الزبائن الجالسين على طاولات غير قريبة منا، مطمئنين لكون «Last station» مكاناً آمناً. كيف؟ ولماذا؟ لأن «عماد حنونيك» هو مدير المطعم، «عماد» الضاحك، اللطيف، الواقف رهين إشارتنا، الصابر علينا وعلى مطالبنا ومزاجاتنا، الذي يأخذنا على «قدّ عقلنا»، «عماد» الذي عرفناه شاباً، فشاب شعره وشاربه وهو يخدمنا، ولو اضطر أن يقوم بالخدمة بنفسه، إذا شكونا من تقصير أو بطء في الخدمة، وكثيراً ما كنا نشكو. صدقاً أستطيع الآن سماع أصوات الراحلين من جلستنا، «واكيم أستور»، «عبد القادر هلال»، «محمود ناجي سعيد»، ينادونه: «عمااااد!».

«عماد حنونيك»، غادر أيضاً، ليس كمن سبقوه، ربما لهذا السبب أستطيع كرهه، غادر ليبحث عن لقمة العيش، فمطعمنا «Last station» مثل كل المطارح اللاذقانية الأليفة التي صنعنا فيها ذكرياتنا الحلوة والمرة على حد سواء، أُغلق. وكأنه صحيح، صحيح تماماً، ما يعنيه اسمه: «المحطة الأخيرة».

«المحطة الأخيرة» للّاذقية التي نعرف ونحبّ.

اللاذقية 9/ 9/ 2016

«هناك يعوون.. هنا انتبه يعضّون!»

اعتذار أوَّلي

منذ البداية، أعتذر عن أيّ انطباع سلبي، قد يثيره العنوان، فمن المعروف، أنه لا يعوي ولا يعضّ، سوى نوع أو نوعين من الحيوانات، التي من غير اللائق تشبيه الناس بها، وإن طلبت الآن من القراء، لا على التعيين، فهمه بحسن نيّة، أو تقبّله بحيادية، فلا أظن أنه سوف يستجيب لي سوى القلة القليلة التي لا تزال محافظة على هدوئها وتروّيها، أو قل: المحافظة على عقلها، والحالة كما هي عليه اليوم، من تجييش واستنفار ومواجهات، وكأن الجميع ينتظر الجميع على هنة! لذلك أنسحب من تبنّيه أولاً بأول، وأعترف بأنه ليس من عندياتي، وأنا أنقله عن صديق قاله لي عرضاً، محاولاً أن يبرر لي آلية تفكيره في معالجة الشؤون العامة التي يتناولها عمل فني مشترك نقوم به معاً. ومن ذلك الوقت، يحدث أن أقوله أمام أصدقاء متنوعين، ولو بقصد التندّر، فأفاجأ بأن الجميع يوافقون عليه، وإن بتعقيبات، أو ملاحظات، يتبيّن منها أنهم يوافقون على جزء ما، ويتحفّظون على آخر.

هناك، يعوون

رغم أن فعل العواء أقل قسوة من العضّ، إلّا أنه بالنسبة لي ولأمثالي،

ولا داعي لتكرار ما كانت عليه مواقفنا المعلنة، قبل 2011 بعشر سنوات وبعدها بخمس، ليس أقل أذية منه. وربما أكثر من يعرف هذا أولئك الذين يمارسون هذه الهواية، ويستمتعون بها، لذا ينتظرون من أحدنا هفوة ما، ويبدؤون بمهاجمته، وتشويه سمعته، دون أي حساب لماضيه أو لمكانته، لا بل العكس، قد تكون مكانة الشخص جاذباً أكبر للنيل منه والإساءة إليه، هم الذين أعلنوا تملّكهم للثورة، وتمثيلهم للشعب السوري، ونصّبوا أنفسهم حكّاماً على الناس، يعطونهم شهادات الثورية والوطنية والأخلاقية، لا أدري بأي حق، ولا بأي شرع، ولا بأي سلطة.

حدث مرة، أن نشر صديق لي يعمل في صحيفة «الأخبار» اللبنانية المحسوبة على حزب الله، والمعروفة بموقفها المؤيد للنظام السوري، قصائد من مجموعة شعرية جديدة، صدرت لي حديثاً. ولن أشرح ظروف هذا النشر، ولن أبرره، إلّا أنه سرعان ما تناولتني العديد من الصفحات التي تدعي المعارضة والثورية، موجهة لي أسوأ الاتهامات، أنا والشاعرة رشا عمران، وكتاب سوريين آخرين، وردت أسماؤهم بطريقة أو بأخرى في هذه الصحيفة. كما وصلتني عشرات الرسائل التي تنبّهني لسوء فعلتي، وخيانتي، كيف لا، واسمي، حسب رأيهم، بات مغمساً بالدم السوري على صفحات «الأخبار»! إحدى تلك الرسائل كانت من صديق، يحذرني فيها: «احذر يا منذر، إنهم يهاجمونك!»، فسألته: «ولماذا لا تدافع عني؟»، لأني أعلم أن بعض من يعنيهم، هم أصدقاء مشتركون لنا، أجابني صادقاً: «لا أستطيع، موقفي ضعيف». كل هذا لأن قصائد لي، لا مقالة سياسية، ولا ملفّ ثقافي من إعدادي، نُشرت في الملحق الأدبي لصحيفة غير سورية، هي رغم موقفها ذاك، جرى إيقاف توزيعها في سوريا. دون أي حساب إلى أني ولمدة عشر سنوات كانت معظم كتاباتي، بتوجّهها الواضح، تُنشر

في «نوافذ» الملحق الثقافي لصحيفة «المستقبل»، وخلال كل هذه السنين، لم يأتِ أحد من جهة السلطة، أو من الموالين لها، وسألني: لماذا تكتب في صحيفة، يستطيعون الادعاء، أنه على صفحاتها يراق الدم السوري؟

لا، للتعميم

نعم، بالتأكيد، لا يصحّ التعميم، ولا يستبعد أن يكون بعض هؤلاء مندسّين ومُغرضين، همّهم الإساءة لهذه الأسماء بسبب مواقفها بالذات، ولأنه أيضاً في المقابل هناك كثيرون ممّن يقدّرون عالياً إصرارنا على البقاء رغم الظروف القاهرة، ويحترمون ما نكتب رغم الخطوط الحمر والأسقف الواطئة للتعبير عن الرأي، آخذين بالاعتبار المكان والشروط التي نكتب بها، مردّدين، وأظن أغلبهم صادقين (لم لا يكونون): «لا يستطيع، ولا يحق، للسوريين في الخارج المزايدة على أي سوري يكتب من الداخل».

هنا، يعضّون

قلت: المكان والظروف التي نكتب بها، ولا أظن أحداً ينكر قدرة هذا المكان وهذه الظروف على العضّ، ولا إمكانية حدوثه، ولا أنه يحدث باستمرار، ولأنه من الطبيعي أن يعلم المرء جيداً أين يحيا، وما هي شروط البقاء والاستمرار في المحيط الذي هو فيه، ومن الطبيعي والواجب أن يأخذ ويعمل بها، متجنّباً ما أمكنه من عواقب، خاصة إن كان بينه وبين هذا المحيط أي فوارق واختلافات، يوماً قلت: «أشعر، أنا الذي اخترت البقاء في بلدي ومدينتي وبين أهلي وشعبي، أني أحيا في مدينة، عدوة!».

«لا أحد يطلب منك أن تكون عنتراً» قال لي «غ.أ.ع» من منفاه

الكويتي، ثم أكمل: «تكتب وتنشر، وأنت تحسب ألف حساب وحساب، ثم تقلق وتخاف بعد ذلك، يا أخي لا تكتب ونم دون كوابيس أفضل لك ولنا». إلّا أنني، للحقيقة والواقع، خلال هذه الخمس سنوات، لم أتعرض من قبل أي جهة رسمية، لأي مساءلة. اتصلوا بي مرات وسألوني كعادتهم أسئلة عامة وخاصة، ولكن لا شيء عن مقالاتي ومواقفي، غير أن أشخاصاً لا على التعيين، يتدرجون في الأهمية والخطورة، لم يتوانوا عن تهديدي، واتهامي علانية! ولا أظن أحداً يدري ماذا ستجلب له الأيام، وقد وضع نفسه تحت رحمة هذه الظروف وهؤلاء الناس.

الخرس، أفضل لك!

قلت إن «العواء» ليس بفداحة «العضّ»، إلّا أنني بسببه بالذات، أعترف، قرّرت، أكثر من مرة، الخرس، والتوقف عن الكتابة، التي أعتبرها المعنى الحقيقي لحياتي. فلا شي ء أقسى من أن يسيء فهمك، عن قصد أو دون قصد، أناس، تعتبر نفسك في صفّهم، فإن كان لا جدوى لأي طلب من أحد طرفي المعادلة أن يتبدّى على غير ما هو عليه، فإن من واجب الطرف الآخر أن يتفهّم الشروط التي تتحكم في كتابة من يحيون في سوريا «المفيدة» أو «الضارة» بتعبير أدق، وما زالوا، رغم كل المخاطر، يكتبون، بأسمائهم الصريحة، في الشأن العام بنفَس وطني هادف، ويصوّرون ما يحدث أمام عيونهم المجردة، لا بواسطة نشرات الأخبار وشاشات التلفزيون، محاولين أن يكونوا شهوداً صادقين على التغيّرات العميقة والقاسية التي ترسم مصير وطنهم.

اللاذقية 14/ 11/ 2016

قدّ حلبي على مقام الأبد

«إلى أصدقائي الحلبيين، حيثما حلّوا، باقين في حلب متشبثين بالبيوت والحجارة والأسوار، أم منتشرين وضائعين في أصقاع هذه الأرض الشاسعة».

ها قد وقعت في يدي، ها قد وقعت في يد خائن الزمن، يا ناسية، يا قاسية، يا عاصية! يا من سكنت بك أربعة أعوام، ولم تُدخليني بيتاً من بيوتك، ما عدا بيوت أرامل وعجائز أقمت في غرفها الضيقة غريباً ومنفياً، وغادرت مغبراً ومنسياً. أربعة أعوام، لم تلتفت لي فيك صبية فائرة، أو امرأة مهجورة، فما كان لي من خيار سوى أن أرمي شباكي، وإن دون جدوى، على فتيات غريبات قادمات من مطارح سورية أخرى، خارج حدودك، مثلي. أربعة أعوام وليس لدي صورة تجمعني مع صديق في مقهى، أو واقفاً بجانب رسم في متحف، أو نصب في ساحة، أو جالساً على مقعد بجانب لا أحد في حديقة عامة. أربعة أعوام، دون لقاء، دون موعد، دون رسالة، دون ذكرى عاطفية واحدة منك. يا أقفالاً صدئة، يا شبابيك موصدة، يا أبواباً مغلقة، يا جدراناً عالية، يا صخرة، يا صامتة، يا صائمة، يا صامدة!

يا ذات الجلد السميك اليابس، يا حراشف حجرية، ولكن ما إن ينجح أحدنا في ثقب قشرتك السميكة، ما إن تدَعيه يثقب قشرتك

القاسية، حتى تقدّمي له هريسة فستقك، ومامونيتك الدافئة، ومربّى كرزك، وقطرك المهراق، وقشطتك، وسمنك الحديدي. أنتِ التي بخلت علي حينذاك بكل شيء، ثم انتظرتِ حتى أبلغ وأنضج وأفهم وأقدر، وأستحق، فدلقت عليّ كل شيء.

يا «لؤي كيالي»، يا من أبى أن يكلمنا جالساً، عندما مررنا به أنا و«بسام جبيلي» وهو قابع على طاولته المفضلة في مقهى الموعد، ندعوه لحضور معرضنا في الجامعة. مصرّاً على الوقوف مثلنا، أو أن نجلس معه على الطاولة. يا من أفهمني، وأنا أنتقد طريقته في رسم يدي المرأة الحامل: «باكراً عليك الحكم على رسم الأيدي يا منذر!». وفي مناسبة أخرى، ظل صامتاً، وأنا أتكلم مسفّهاً أحاسيس شاعرة زارته في مرسمه، وانهارت بالبكاء أمام إحدى لوحاته، إلى أن انتهيت من كلامي تماماً، فَسألني: «وهل تعلم معنى الدموع؟»، يا من مات محترقاً بلفافة تبغ، أو على الأصح، بلفافة وطن! وللمصادفة، في الغرفة المجاورة لغرفة أمي، في مشفى حرستا، دمشق، أيلول 1978. يا فاتح، يا رسّام الهضاب الشبيهة ببطون الفلاحات الحوامل، والفلاحين الملثمين المعفري الجبين بالتراب، والأشجار الضائعة في البراري، يا من قال لي يوماً: «لا همّ لي، في حياتي، وفي فني، سوى العدالة». يا رسامين منزوين وكأنهم في سوريا أخرى، فتحي محمد.. يا من أسرع بالموت وكأنه يناديه، إسماعيل حسني.. الأستاذ، وحيد مغاربة، سعد يكن.. يا صاحب لوحة الثور ذي الأنياب والبراثن المعلقة في غرفة النوم، يوسف عقيل، زهير دباغ، أحمد برهو.. يا غامض، نهاد ترك، أحمد عائشة، الذي غادر سوريا بعد أن اتهمه أهالي باب الجب الأحمر بإدارة بيت للدعارة، واستدعوا الأمن الجنائي إلي البيت الشرقي الذي رمّمه واستثمره نزلاً شعبياً للسائحين الأجانب، بسبب استضافته لزوج

من العجائز الإنكليز، فكتبت عنه: «سوريا غير مستعدة بعد، لأحمد عائشة». يا «مأمون صقّال»، يا أفضل رسام خط عرفته سوريا، يا من علمني: «عندما يصير لديك خط قوي.. يصير لديك لون قوي». ثم بعد عشرين سنة من هجرته إلى الولايات المتحدة، جاء ذلك المعماري الأمريكي الشهير، ملبّياً دعوة جامعة حلب للمشاركة في أسبوع العلم الذي أقامته في أوائل عقد التسعينيات من القرن المنصرم، وفاجأ الجميع عندما قال وهو على المنبر: «قبلت الدعوة، وأتيت، يدفعني الفضول لأرى الجامعة التي تخرج فيها مأمون صقّال». يا حلب شعراء النسيان والهامش والفقدان: محمد فؤاد فؤاد، وبسام حسين، وحسين بن حمزة، وخالد خليفة (نعم كان وقتذاك شاعراً)، وعمر قدور، ولقمان ديركي، وعبد السلام حلوم، وصالح دياب، وصلاح داوود، الذين كانوا يتشاركون جميعهم في دفع حصتي من فاتورة العشاء حين يستضيفونني في المطعم العمالي، بعد ذلك ينظر «لقمان ديركي» إلي ويصيح: «من ثيابه تعرفون أنه شاعر!».

يا من جئتِ من حلب إلى اللاذقية في ذلك الطقس البارد العاصف، ووقفت على قبر أبي ولم يكن قد انقضى على وفاته أكثر من ثلاثة أيام، وبكيت وأنت تقولين: «أعرفه جيداً فيك». وأنتِ يا من صعدت إلى غرفتي في الفندق السياحي، وجلست في الشرفة الغربية الضيقة، المطلة على ساحة «سعد الله الجابري»، التي يتوسطها ذلك التمثال، الذي لم أر فيه سوى أرواح الشهداء المتحجرة، للنحات «عبد الرحمن مؤقت»، ورحت، والمساء يهبط، تغنّين لي قدّاً حلبياً، خلبياً، فجاءني اتصال من موظف الاستقبال، يطلب مني إخراجك من الغرفة. وأنتِ أيضاً، يا من صعدت درج بيتك في الطابق الرابع قفزاً، ونزعت غطاء السرير وصنعت منه علماً سورياً، لتحمليه على رأس مظاهرة طلابية. يا

خادمة، يا عاملة، يا حاملاً، يخصص مواليدها للعناء والغناء. يا بيضاء ذات شعر أسود وعيون كحلاء. يا حورية العين التي وعد بها النبي المصطفى أحبابه من أهل الجنة، يا شهية يا مشتهاة، يا من تستعصين على الموت حتى ولو اشتهيته، وحاولت الانتحار ثلاث مرات، مخلفة ندبة جميلة على خدك. يا متلبدة، يا متمردة، يا حائرة، يا ثائرة، يا من لا يجدي معك قيد، ولا يوقفك حرس، ولا تمنعك أسوار.

يا حلب، يا كليمة، يا نازفة، يا يتيمة، يا أرملة، يا ثكلى، يا شهيدة، يا من تبقين، بعد كل شيء، ورغم كل شيء، يا واقفة، يا منتصبة، يا قلعة، يا حيّة، ويا... آبدة!

اللاذقية 26/ 11/ 2016

ليتها لم تكن!

«إلى السيدة السورية التي راحت ترددها أمامي وهي تبكي، بكل كبرياء البشر وعزة نفوسهم، فقدانها زوجها وكلا ابنيها».

أعلم أنه لا معنى لها، فما حدث قد حدث، ولا يقولها سوى إنسان لا علاقة له بالسياسة ولاحتى بالمنطق. وأنا في الحقيقة، كما يؤكّد الكثيرون، لا علاقة لي بالسياسة، وربما بات لا علاقة لي بالمنطق، فلولا ذلك لحملت نفسي وغادرت، أو على الأقل، خرست.

أعلم أنها لا تقدم ولا تؤخر، لا تضر ولا تفيد، بل، يرى البعض أنها تؤخّر وتضرّ، تضرّني أنا دون سواي، فهي بالنسبة لي أشبه بجلد للذات. ذلك أنني قضيت الخمس سنوات الماضية وأنا أحاول أن أصدّق وأجعل الآخرين يصدقون بأن الأمور ستصطلح وأنها لا ريب ستمضي قريباً في الطريق الصحيح، وأنه لا بدّ من نهاية مضيئة لهذا النفق المظلم، ألست القائل: «يحيا السوريون بانتظار الفجر».

أرجوكم لا تعيدوا أمامي، أن ما حدث كان محتماً، لم يقرره أحد، لم يخطّط له أحد، شاهد السوريون إخوتهم في تونس ومصر وليبيا واليمن يخرجون ويتظاهرون، ففعلوا مثلهم. ذلك أنّي يوماً لم أصدق، وذلك خلاف الكثيرين، الذين كانوا يرددون تلك الأسطوانة المنخورة:

«الشعب السوري مفسود، الشعب السوري مرعوب، الشعب السوري مخصيّ».

وإن لم يسمحوا لأنفسهم بقولها، من كتبوا: «لم يساعد العالم بتغيير سوريا للأحسن، سوريا غيّرت العالم للأسوأ». ومن راحوا يرددون: «خذل العالم الشعب السوري». ومن اعترفوا: «تحمل الهجرة السورية شعوراً ثقيلاً بانعدام الأمل». ومن يقولون بكل حيادية: «ليس في الأفق السوري بارقة رجاء»، فها أنا ذا أتبرع وأقولها عنهم جميعاً: «ليتها لم تكن!».

كتبت هذا النص، وأرجأت نشره زمناً، ولكن هناك في روحي النازفة، في قلبي المعصور بقبضة حجرية متفحمة، بضميري الذي حرصت أن أبقيه حياً وأميناً وحراً طوال هذه الجلجلة، طوال هذا الموت السوري اليومي الذي لا يشبع، ما يدفعني لأصرخها: «ليتها لم تكن!».

مرة، زفرتها أمام أصدقاء مقرّبين، فصمتوا أوّل ما سمعوها وكأنّني تلفّظت كفراً، ثم بعد ذلك راحوا يعذرونني: «تقولها من ألمك، غيرك يقولها لغايات، لا بأس بأن تقولها أمامنا ولكن إياك أن تقولها أمام آخرين!»، لكن أحدهم صاح بي: «أتريد أن يعود الناس إلى بيوتهم، أهذا ما تريد؟»، فأجبته بصراخ: «نعم أريد عودة السوريين إلى بيوتهم، إلى وطنهم، وليت بقي للسوريين النازحين والمشردين والمهجرين، بيوت، ووطن، يعودون إليه!».

ليت لم يقتل أطفال زملكا وعين ترما والمعضمية، ليت لم تحدث مجازر البيضا ودوما وخان العسل وعرامو، وليت لم يقتل نصف مليون سوري، أتظنونه رقماً مبالغاً فيه؟ هناك من يقول «مليون» من قتلى الأطراف كلها، السوريين كلهم، فضلاً عن عشرات ألوف المفقودين

ومجهولي المصير، داخل سوريا وخارجها. الآن أقرأ: «10 آلاف طفل سوري مفقود في أوروبا، وذلك من أصل 26 ألف طفل دخلوا أوروبا دون مرافق»، قتلى الأوبئة والجوع والبرد، والغرق والانتحار.

يوم استشهد باسل شحادة، قلت لياسين: «سوريا كلها لا تساوي باسل شحادة»، ويوم استشهد مجد علي، صاحت سوزان: «أخي ليس شهيداً، لم يكن يريد الموت، كان يحب. ابتاع منذ يومين قميصاً وبنطالاً». ويوم وصل جثمان حسن أزهري على شكل ورقة عليها ختم، بكيت على كتف أبيه. منذ ثلاث سنوات «أم عصام زربا» تنتظر خبراً عن ابنها المخطوف، وكذلك حلبجة خليل، ومازن مرعي، ووسام سارة، وسوسن حقي، وميري زريقة، وناجي الجرف، والأب باولو، والأب فرنسيس، وماذا عن عبد العزيز الخيّر ورجاء ناصر وماهر طحان وإياس عياش؟ ماذا عن آلاف المعتقلين هنا وهناك؟ ليت أحداً يخبرني أين هم الآن رموز الثورة السورية الحقيقية، رزان وسميرة ووائل وناظم؟

ليت لم تهدم المدن السورية الأعزّ، ولم تُبَد بلدات وقرى سورية لم نكن نعرف أسماءها، ليت لم تهدم حميدية وخالدية حمص، وخانات وأسواق حلب، حلب مأساة القرن الحادي والعشرين، سمعت من إحدى الأقنية التلفزيونية العالمية. ليت لم يتهدم جسر دير الزور الذي كان مرسوماً على الليرة السورية التي هدمت وصارت تراباً أيضاً. أي دير الزور الوادعة على ضفتي النهر بقيت في سوريا؟

ليت لم يشرد وينزح ويجوع 12 مليون إنسان سوري، نعم، طالب السوريون بالكرامة، ولكنهم الآن يتوسّلون العالم، بل يتسوّلونه، السوريون المعروف عنهم اعتدادهم بهويتهم وتباهيهم بسوريتهم، باتوا متسوّلي العالم وأذلاءه. في مصر، بلد المتسوّلين، السوريون

يتسوَّلون! أمّا في لبنان، الذي احتله وحكمه السوريون ثلاثة عقود، ها هم السوريون لا يجدون سبيلاً لإطعام عوائلهم سوى بيع أطفالهم بحفنة من الدولارات.

ليت لم يغادر سوريا: هيثم وأسامة وهالا وهالة ورشا وحازم ولقمان ورائد وقيس وخضر وعبد السلام وسمر وروزا وفارس وفؤاد وزهير وعماد وعارف وإبراهيم وخلف وعمر وتمّام وهاشم ومظفر ومالك وياسين ومنذر وعلي ودانيال وجميل وفايز وميشيل وعبد الحكيم وحسان وعزّة وراتب وعامر وعماد وطارق وعبد القادر ومحمّد ومنصور وعبود وزياد ونهاد ومصطفى وجورج وإسبيرو وروبيك وفيكين وغادة وشادي وحلا وغازي وسهل ونجيب وريم ويارا وكندة وندى. نعم، أعرف أصحاب هذه الأسماء كلها شخصياً، منهم أصدقاء حميمون، ومنهم شعراء وروائيون ورسامون ومصورون وممثلون ومخرجون، ربما، أجمل وأروع من ولدتهم سوريا في تاريخها الحديث، ولكن يحمل كل اسم منها عشرة آلاف سوري غادروا سوريا دون أمل بعودة.

بالتأكيد، سوف يفوتني أسماء، فلا اسم في العربية إلّا وهناك صاحب له أعرفه وأحبه، قد غادر، وطبعاً تغاضيت عن ذكر أسماء إخوتي وأولادي، وقائمة لا نهاية لها من أقاربي.

صديقي «.....» لا أظنك نسيت، رغم أنه جرى بعد هذا ماء كثير موحل وآسن، واندلق دم كثير أحمر وساخن، وصعدت إلى السماء أرواح زرقاء ومضيئة، وبات كما عبّرتَ: «لم يتوقع أحد أن تصل الأمور إلى هذا الحد». ما قلته لي أواسط العقد الماضي: «لتبقى سوريا تحت حكم الأسد مئتي سنة، ولايحدث فيها ما حدث للعراق»،

وهاقد حدث لسوريا ما حدث للعراق، وربما أسوأ، والطرف الثاني من المعادلة هو هو!

«ليتها لم تكن!»، أزفرها مع المكلومين، ومع الأيتام، والمشردين، والغرقى، مع أربعة ملايين سوري يعانون ضنك العيش في مخيمات الذل والهوان. «ليتها لم تكن!»، أزفرها مع البسطاء الخائفين، الذين لليوم لا يعرفون ماذا سيكون مصيرهم ومصير أبنائهم، وعندما يسألون أحداً ما ليطمئنهم، يجيبونهم: «ما زال هناك ثمن كبير عليكم أن تدفعوه!». مع الذين يقولونها في قلوبهم خمسين مرة في اليوم، إلّا أن يأسهم أخرسهم. مع الذين يستيقظون من نومهم ويتمنّون لو أن ما حصل كان كابوساً آخر كبقية كوابيسهم.

لا أدعي أيَّ بطولة، ولا أمنّن أحداً بشيء أقوله أو أفعله أو أقاسيه، نتيجة عنادي السخيف، كما عبّر أحدهم، في البقاء حيث أنا، لكني لست من يدير ظهره لبلده وشعبه ومدينته، لا اليوم ولا غداً. أنا لم أتغيّر، ولن. ويوماً لن أكون إلّا واحداً من السوريين الذين صدّقوا وحلموا بسوريا وطناً موحداً أرضاً وشعباً وروحاً، وطناً حرّاً وكريماً وعادلاً لجميع السوريين دون خوف ولا تمييز ولا استبداد، وطناً لا يحتاجون فيه إلى الحروب والثورات والتضحيات والشهداء، وطناً آمناً لهم ولأبنائهم، لا يضطرهم للنزوح والتشرد و... الموت!

ولكن، ولكن، أين للسوريين بعد اليوم وطن كهذا؟

اللاذقية 8/ 12/ 2016

انتبه على حالك!

بعد «مرحبا»، و«السلام عليكم»، و«صباحووو» تلك التحية الصباحية «المهضومة» التي يتنافس اللبنانيون والسوريون على ملكية براءة اختراعها، أو بالأصح «مساؤوو»، فأغلب محادثاتنا، نحن وطاويط الفيسبوك، ليلية، تأتي: «كيفك؟». لا بل كثيراً ما تبدأ أحاديثنا بها، دون الحاجة لأيّ نوع من أنواع البدايات التقليدية. غير أنّي لا أدري ما إن كانت «كيفك؟»، كما ذكرت للتو، مجرد طريقة لبدء حديث ودّي عابر، ولا غاية لقائلها أن يسمع مني جواباً، أم أنها في الحقيقة سؤال، ينتظر مني صاحبه الإجابة الوافية عنه؟ الأمر الذي، بسبب ما آلت إليه الأوضاع، وبقائي في سوريا، خلاف كل من هم على شاكلتي، ولن أقوم بتوصيف هذه الشاكلة الآن، وفي مدينتي اللاذقية التي ما عادت وادعة على الإطلاق، بل المذعورة والمنكوبة، بتّ أرجّحه، وأتعامل مع «كيفك منذر؟» بهذا الاعتبار.

وهنا نماذج من إجاباتي، وأحسب أنها تطابق إجابات الكثيرين:

1- شخص لا أعرفه، مثلاً، صديق جديد على الفيس بوك، يسألني: «كيفك؟». أجيبه: «كويس» أو «تمام»، إجابة ابني «خالد» المفضلة. «ماشي الحال». «بخير، أشكرك». وإذا كانت تحيته: «السلام عليكم»،

فستكون الإجابة المناسبة: «الحمد لله». نعم «الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه» وأي مكروه! مع أني عرفت أناساً كثيرين يحمدون غير الله على أشد وأكبر المكاره.

2- شخص أعرفه معرفة محدودة، فيكون جوابي: «لا بأس».. «حطّة يدك».. «والله، صدقاً، لا أعرف»، وربما لا أجيب بشيء، فقط أرد: «كيفك أنت؟».

3- شخص أعرفه جيداً، ويعرف وضعي جيداً، يسألني: «كيفك؟». ويجب علي أن أجيبه بجواب شافٍ إلى حدٍّ ما: «تعبان شوي».. «خريان وما دريان»، أو «خريان ودريان تماماً».. «عايف ربي»، أو «قلت لك يا «فادي» لا تسألني، كيفك».

4- شخص يعني لي الكثير، إلى درجة أني لا أجد ما أجيبه، سوى: «مشتاقلك».. «مشتاقلك متل ما مشتاق لكل شي حلو بحياتي».. «مشتاقلك موووت»، وأقسم بروح أمي إنني أعنيها.

لكنّ «كيفك؟»، مهما بلغ التباسها، ليست المشكلة بالنسبة لي، بل بالعكس، فلطالما وجدت فيها عزاء، ربما لا أحد يعلم كم أحياناً أحتاجه، بأن هناك من يذكرني، من يفتقدني، هناك من هو قلق علي ويرغب أن أطمئنه عني. المشكلة، أقول، هي في ما باتت كل محادثاتي، الهاتفية القريبة والبعيدة، والكتابية العادية والحميمة، وكل لقاءاتي، مهما كانت المناسبة: حضور تعزية أحد الأقارب، لقاء عابر في الطريق، مشاهدة مباراة في كافيتيريا، شراء دواء من صيدلية، تنتهي حتماً به: «دير بالك على حالك»!

أيّ وصية غامضة هذه؟ أيّ نصيحة؟ أيّ أمر صادر عن صديق ومحب؟ يتوقّع مني تنفيذه دون تردّد! هل يحتاج أحد ما، فعلاً، أن ينبهه

الآخرون بوجوب أن ينتبه إلى نفسه؟ أو، لماذا التكلم في العموميات، هل أحتاج أنا بالذات، أحد آخر الأصوات المستقلة، التي تكتب بأسمائها الصريحة من الداخل السوري، إلى تحذير كهذا؟ أنا الذي كتبت في «هناك يعوون، هنا يعضون»: «أشعر وأنا في بلدي ومدينتي وبين أهلي وشعبي، أني أحيا في مدينة، غريبة» مبدلاً كلمة «عدوّة»، لأسباب لكم أن تخمّنوها.

ليس مصادفة أن تقول لي «انتصار» في آخر مكالمة هاتفية: «أعلم أنه لا معنى لها، ولكن انتبه على حالك.. منذر». وليس مصادفة أن تهمس «أثير» وهي تحضنني: «خائفة عليك يا منذر، انتبه على حالك»، وليس مصادفة أن يختم «ياسو» رسالته: «تطوّر لدي حس مأسوي خلال السنوات المنقضية، وهو يقبل جداً، «ليتها لم تكن» لحظة من لحظاته، أو عنصراً من عناصره، بس، انتبه على حالك». ولكنها بالتأكيد مصادفة، مصادفة فظيعة، أن يشدّ «أبو عبود» بكلتا يديه على يدي، ويقول لي مودّعاً: «دير بالك على حالك، صديقي، أريد أن أراك بأفضل حال، أنا وعبود في زيارتنا القادمة». وبعد ذلك بعشر دقائق لا أكثر، الساعة التاسعة إلّا ربعاً، مساءً، وسط سوق التجار، أي ليس في شوارع المدينة المقفرة، ولا عند أطرافها النائية، أتعرض لأخطر عملية إجرامية يمكن أن يتعرض لها مواطن سوري أعزل، في طول البلاد وعرضها.

لم أعلن عن الحادث في صفحتي على الفيس بوك أو التويتر، ولن أكتب عن تفاصيله هنا أيضاً، لاعتبارات كثيرة، أهمها أنني لست في وضع يسمح لي، الآن، بتحمّل ما قد ينتج عن ذلك من العواقب. إلّا أنني أخبرت به عدداً من الأصدقاء، الذين هالهم أن يصل نطاق هذه الجرائم إلى هذه الأمكنة وفي هذه التواقيت! «إنها الحرب» – برّر

بعضهم، ولكن، ولكن أيّ حرب! اللاذقية، ليست أرض معركة، وما عاد فيها من يقاتل أو يتظاهر أو حتى يصيح «الله أكبر»، والناس بات يكفيهم همُّهم الثقيل في تأمين معيشتهم وطعام ولباس أطفالهم، و«ماشين الحيط الحيط، وبيقولو يا رب السترة».

يُعرف عني، قول هو أقرب إلى العاطفية منه إلى العقل، كما أغلب أقوالي وأفعالي هذه الآونة: «ولدت وعشت وسأموت في اللاذقية. قرار لا رجعة عنه، مهما كانت الظروف، ومهما كانت العواقب»، الأمر الذي دفع صديقي «مصطفى» أن يكتب لي بعد سماعه بالحادثة: «بما أنك لم ولن تقبل الاستجابة لنصيحتي بالخروج العاجل من سوريا، فقد أمعنت التفكير في مشكلتك، ووجدت أنه لا يوجد حلّ أمامك، إلّا أن تتظاهر بفقدان الذاكرة، أو بالجنون إن شئت، تابع حياتك وأنت مغطّى بالضمادات، لا أظنهم يسعون وراء المجانين ويحاسبونهم». قد تستغربون مثل هذه النصيحة، التي علّقت عليها زوجتي، بأن «مصطفى» هو من جنّ، وبات «يخرفش» فعلاً. ولكن، لا داعي للحلفان بأنها خطرت على بالي سابقاً، أكثر من مرة، أمّا اليوم، فأنا، صدقاً، أفكر بتنفيذها بكل جدية.

اللاذقية 12/ 12/ 2016

المقدّس الشعبي.. والقيامة السورية

تلويحة يد متعبة في وداع الراحل صادق جلال العظم «1934 دمشق – 11/ 12/ 2016 برلين».

سرعان ما اصطبغ الحراك السوري بشبهة، إن لم أقل بصفة، الإسلاموية، هذا إن لم أقل أيضاً، بصفة الإسلاموية المذهبية، ليس فقط بسبب الخروج من الجوامع، كونها الأمكنة الوحيدة التي أتيح بها تجمّع المتظاهرين وانطلاقهم، وذلك بالتضاد مع إرادة أغلب شيوخها، المعينين رسمياً من قبل وزارة الأوقاف، والموافق عليهم أمنياً، للقيام بهذه الوظيفة الحساسة، الأمر الذي قلت عنه مرة، إنه خروج عن الجوامع أكثر منه خروجاً منها. لكنه لا ريب ألقى بظلاله على الحراك مهما حاولنا التخفيف من شأنه، والدليل أنه ما زالت هذه النقطة، مثاراً للخلافات والمماحكات بين الجميع. تبع ذلك التسميات الدينية لأيام الجمع، بدءاً من «أحفاد خالد» و«اللـه معنا» وصولاً إلى استخدام الأحاديث النبوية والآيات القرآنية مثل: «من جهّز غازياً فقد غزا» و«إن تنصروا اللـه ينصركم» و«أتى أمر الله فلا تستعجلوه» وسواها، ما أدى إلى اعتراض الكثير من الناشطين، وصار لبعض أيام الجمع أكثر من اسم. لكنّ أسماء أخرى ذات دلالات معاكسة راحت تُطلَق على العديد من الجمع، مثل «صمتكم يقتلنا» و«خذلنا العرب والمسلمون» و«إذا كان الحكام متخاذلين، فأين الشعوب؟»، إلى أن تراكمت الجمع

ونضبت التسميات، حتى ما عاد لها مبرر أو نفع، وجاء ذلك الهتاف الذي يختلط به اليأس والأمل معاً، اليأس من العالم الواقعي، والأمل بعالم الغيب: «يا الله، ما لنا غيرك يا الله!».

الله، السميع، البصير، العليم، القادر، الجبار، القهّار، ناصر المظلومين، أين هو؟ يتساءل من لم يجد حبلاً يتعلّق به، سوى حبل الله، غير المرئي، النازل من السماء إلى الأرض، الذي خيِّل لسوريين كثيرين، أنهم يمسكونه ويقرعون به الجرس السماوي الكبير، غير المسموع من قبل البشر، لكنه يصمّ آذان الملائكة، والشياطين، وما من مجيب!

تتنوع تفسيرات السوريين لهذه الحالة الغامضة. ما لا أنساه، خلال زيارة لي إلى دير خارج اللاذقية، وجلوسي مع راهبة لم أستطع تحديد عمرها أو جنسيتها، أنها قالت معقّبة على الأحداث التي تسمع عنها من الناس سماعاً، ولكن لا ترى منها شيئاً، فليس لديهم جهاز تلفاز في الدير: «ما أعرفه أن الله، يا صديقي، لا يحبّ ما يجري في سوريا الآن»، فما كان مني وقتئذٍ إلّا أن هززت رأسي موافقاً. نعم، كيف لله أن يحبّ تهديم البيوت وقتل الناس وتشريدهم؟ ولن أخوض هنا في الاختلاف بين تعاطي قسم من السوريين، الذين أفزعتهم تلك الأسماء والشعارات، وبين تعاطي عامتهم معها، ذلك أني سأورد ما سمعت الناس يقولونه لي شخصياً، أو ما قرأته هنا وهناك على صفحات الفيسبوك والتويتر ومواقع الإنترنت، مع تفسيري الخاص لكلّ منها، وعلى نحو متسلسل وتصاعدي يوازي تصاعد الحدث ذاته:

1- «يمهل ولا يهمل»، و«لم يأذن بعد»، أمهل الله فرعون حتى ماتت أمه، لأنها كانت امرأة مؤمنة، فما إن أسلمت الروح، حتى أنزل الله عقابه عليه وعلى جيشه. وهي تظهر عدم يأس قائليها من تأخّر الله سبحانه وتعالى في تدخله، وأملهم بذلك ولو بعد حين.

2- «الخير في ما اختاره الله»، و«على الله»، وهي تظهر إيمان قائليها بإرادة الله الخيرة، واستسلامهم لها مهما كانت النتائج.

3- «قلوبنا ليست لله، فكيف ينصرنا؟»، «قلوبنا ليست مع بعضنا، فكيف يكون الله معنا؟»، «لا نحبّ بعضنا، فكيف يحبّنا الله!»، وهذه الفكرة يردّدها من يرغب بتفسير سلبية «الله»، أو في الحقيقة من يرفض تصديق سلبية «الله»، ويعيد السبب إلى علّة في الناس أنفسهم. بل أحياناً، تسمع بعض المتدينين والمتعصّبين يقولونها بشماتة ظاهرة.

4- «الدنيا على أواخر»، «هذه من علامات القيامة»، يردّدها، عادة، كبار السن، يربطون بها غروب العالم بغروبهم.

5- «الله موجود، لكنه لا يسمع ولا يرى!» أو «الله موجود، وهو يسمع ويرى، ولكنه غير مبالٍ»، وهي فكرة متناقضة مع نفسها، لأن فكرة الإيمان بوجود الله، ترتبط دائماً بكون الله مهتمّاً وقادراً وعادلاً، ولهذا قد يتولّد منها الفكرة التالية:

6- «الله، ليس معنا»، أو «الله يعاقبنا» مفسّرين ما آلت إليه أوضاعهم، وكيف أتت الأمور في غير صالحهم.

7- «الله، ما عاد موجوداً»، أو «الله غير موجود أصلاً»، حتى قيل إن نسبة عالية من السوريين فقدوا إيمانهم بسبب ما حلّ بهم من كوارث، وقد أخبرتني صديقة كنت أعهدها إنسانة متدينة، أنها نزعت حجابها، بسبب مجزرة الكيماوي 21 آب 2013 في الغوطة الشرقية، إذ كيف يقبل الله، بغضّ النظر عمن هم مرتكبوها، بقتل ما قدّرته بعض الجهات بـ 1400 طفل وامرأة ورجل، في ليلة واحدة.

يحاول هذا النص، إن من حيث بساطة الأسلوب، وإن من حيث بساطة الأفكار، مقاربة «المقدّس الشعبي» تحديداً. إلّا أن الكثير من

المثقفين والسياسيين، ومنهم يساريون وشيوعيون، لم يستطيعوا أن ينأوا بأنفسهم عن التعامل مع هذا المقدّس، فراحوا يواجهونه بصورة عدائية، فيشتمون ويجدّفون، بمناسبة أو دون مناسبة! أو، بالعكس، يتماهون مع الحالة، وينساقون لها، ليقوم أحدهم عن كرسيه، ويقول موجهاً خطابه لنا: «والله والله، صدقوني، يا أحبتي، إن الله موجود، وقادر، وهو يسمع ويرى كلّ شيء، ولسوف، في اللحظة المناسبة.....».

فأقاطعه ممازحاً: «تفضّل، وتكلّم على القاعد، أبونا!».

اللاذقية 19/ 12/ 2016

ردود الأقوال على زفرتي «ليتها لم تكن»

توالت ردود الأقوال، أقول ردود الأقوال، لأنه لا وجود لردود الأفعال في العالم الافتراضي الذي يحيا فيه السوريون، ويكاد يكتفون به بديلاً، لا خيار سواه، عن وطنهم الحقيقي، الفيس بوك خاصة، والتويتر، وغيرهما من مواقع التواصل الاجتماعي، سوى للأقوال. الأفعال، وردود الأفعال، تحدث هنا على الأرض السورية حيث الحرب والقتل والتشريد، والخطف.

في الحقيقة كنت أتوقعها، وربما كنت أتوقع ما هو أكثر قسوة منها، ولكني رغم ذلك تأثرت بها، فقد حاولت في النص، بكل جهدي، وبكل قدرتي على التوضيح، أن يفهموها مني ويعذروني عليها. البعض، فعل، لكن الأغلبية، لم يقدروا على بلعها، ووصلت تعليقاتهم أحياناً إلى اتهامي، بأني كتبتها ونشرتها في هذا التوقيت بالذات، بناء على إيعاز أمني، بما يعني أنني أعمل وأكتب، لا بل أحيا في بلدي ومدينتي وبيتي، ليس الآن فقط، بل منذ البداية البداية، تحت إمرة أجهزة النظام الأمنية، متنعماً بحضن الوطن الشائك.

هم يرجعون إلى الأسباب، أنا أمضي إلى النتائج:

تركزت أهم الانتقادات من أناس أستطيع القول إنني لا أخالفهم في

مجمل موقفهم العام، على عنوان «ليتها لم تكن»، الذي اكتفى البعض، كالعادة، بقراءته، أو مرَّ بنظره على عدة سطور من مقدمة المقال، ثم لم يستطع أن يصبر على قراءة أي كلام سيأتي بعده. ذلك أن أغلب الملاحظات والانتقادات مردود عليها بشكل مباشر وصريح في داخل المقال ذاته، إضافة إلى مأخذ محدد، بأنه كان يجب أن أشير بوضوح إلى من هو المسؤول عن المآل الكارثي الذي وصلت إليه سوريا، كوطن وكشعب. الأمر الذي يبدو جلياً أنه ليس موضوع هذه المقالة، وأنني سبق أن كتبت فيه مراراً وتكراراً، ولو رغبت بهذا هنا أيضاً، في هذه المقالة، كما أصرّ أحدهم، لأخذ ربما ثلاثة أرباع حجم النص، ذلك أني قرأت على صفحات أصحاب هذا المأخذ، أنهم يوقعون أشد اللوم على دول عربية كالسعودية وقطر والإمارت بسبب تدخلاتها في الشأن السوري، وعلى تركيا وأوروبا وأمريكا على عدم تدخلها الكافي فيه، وكذلك على العالم برمته، ثم على روسيا وإيران وأكثر من أي شيء، وعلى إسرائيل، التي يؤمنون أنه لو كان لديها مصلحة بإسقاط النظام، لأسقطته بطلعة طيران واحدة. وكذلك على من أطلقوا على أنفسهم «أصدقاء الشعب السوري» ثم خذلوه، أيما خذلان. دون أن أنسى اتهامات الكثيرين للمعارضة نفسها، لارتهانها لمموّليها في الخارج، وتحديد سقوف مطالبها بسقوف مصالحهم.

ثم يأتي سوء فهم آخر، ربما تتيحه القراءة غير المنصفة للنص، كما أغلب قراءاتنا اليوم، أنني أقصد بتعبير «ليتها لم تكن» الثورة كلها، من بدايتها لنهايتها، مع أنه مهما جهد القارئ في البحث عن هذا فلن يجده. فلا يوجد فيها من بدايتها إلى نهايتها: ليت الشعب السوري لم ينزل للشوارع ويتظاهر، ولا يوجد فيها: ليته لم يطالب بحقه في الحرية والكرامة والعدالة. ما يوجد في المقدمة أربع فقرات منها هو:

ليت لم يقتل، ليت لم يهدم، ليت لم يشرد، ليت لم يغادر أجمل أبناء سوريا. ولا أظن أحداً تبلغ به البجاحة الثورية، أن يقول إنه سعيد بكل هذا القتل والتشريد والدمار. يقولها (اسمحوا لي أيضاً بقراءة تحمل بعض التجني) من استفاد وصار وضعه أفضل في ما آلت إليه الأمور، من أسعدته وأرضته هذه القنابل والصواريخ التي تقع فوق رؤوس السوريين وعلى بيوتهم، من كان في مصلحته كل هذا الموت والدمار والضياع. وما أظنه أنه، في الواقع، يوجد من هم كذلك، ليس في الطرف الموالي للنظام فحسب، بل أيضاً في صف معارضيه، للأسف. ذلك أنه، بطريقة ما، حجتهم في تأكيد صواب موقفهم، ووجوب الوصول إلى هدفهم مهما كان الثمن! نعم، أعرف منهم من يقول، لو فني نصف الشعب السوري فهو ثمن مستحق وليس بكثير، إذا كانت النتيجة سقوط النظام. والحقيقة المرة أن النظام لم يسقط ولا يبدو أنه سيفعل ذلك في القريب من الأيام. أقول هذا لمن يريد أن يرى الحقيقة، ويبطل ترداد سقط النظام من أول صيحة لأطفال درعا، وسقط النظام من أول هتاف، وسقط النظام من أول طلقة أطلقها على الناس، وغير ذلك من إنشاء ورومنسيات.

أرسل لي صديق، ونحن نتناقش حول المقال، صوراً لجثث أطفال في شوارع حلب، قلت له: هذه الصور، صديقي، لهي دليل على ما أقوله أنا لا أنت. ولو أرسلت لي صور أطفال يلعبون سعداء في شوارع حلب، وفتيات يدرسن في قاعة الصف، لبيّنت خطل كلامي، ولا تظنني لا أعرف من يفعل هذا، أو أبرر له أفعاله مهما كانت ظروفي، مهما كان موقفي.

ولا أدري ما إن كان الضمير الموصول في تعليق تلك المرأة بقولها: «ليته لم يكن» هو أنا، أم شخصاً آخر، ذلك أن صاحبة المشاركة أبدت

عتبها الرقيق عليها، بكتابة اسمها وبعده عدد من النقاط، بما فهمت أنه يعني: «خذي منذر بحلمك، حرام منذر!»، وقتذاك خطر لي أن أعلّق أو أبعث برسالة لهذه المرأة التي أعرفها معرفة بسيطة جداً، وأعرف كيف كانت تحيا قبل مغادرتها البلد، أطلب منها إرسال أحد ما لتصفيتي. ليغيّبني عن الوجود. ترى ماذا سيكون رأيها؟ كل ما كتبت شعراً ومقالات، وكل ما رسمته، كل ما قمت به في حياتي، ليته ما كان. فقد ارتكبت جريمة الجرائم بهذه الكلمة، التي يعترف أغلب الذين هاجموا المقال أنها كثيراً ما راودتهم، إلّا أنه، برأيهم، من حق البسطاء فقط أن يقولوها، لا أمثالنا من المثقفين، وكأن المثقفين ليسوا بشراً، وليس لهم آلامهم ومخاوفهم، أو كأنه ليس من واجبهم، بل كأنه محرّم عليهم، أن ينقلوا آلام الناس ويصرخوها عنهم.

في النهاية، كتبت ما كتبت، وبالتأكيد لا أستطيع التملص من عواقبه مهما كانت، قاومت كثيراً فكرة الرد على كل تهمة، والدفاع عن مقالي، ونفسي، ولكن كان لا بدّ أخيراً، لأني أهتم وأتأثر، ولأن الأمر يشكل ما دارت حوله حياتي كلها، أن أفعل، دون أن أفوّت امتناني لكل من فهمها كما رغبت عند كتابتها، وشاركها على صفحته وآزرني، وأيضاً لكل من اهتم وناقشها وناقضها، بكونها فكرة هامة من شخص يعتبر شخصية عامة، ويا ليت ذلك صحيحاً، ويا ليت صحيحاً أيضاً، بالنسبة للشعب السوري كله، أنه كانت وما زالت شيئاً رائعاً أنه حصل.

اللاذقية 25/ 12/ 2016

أمّ الشهيد لا تنظر إلى الصورة.. لا تستطيع

«ربما لم تروها، وإلّا كيف نسيتم تلك الدمعة؟»

ليس بمناسبة معرض يوسف عبدلكي، القائم حالياً، في صالة كامل، المزة، فيلات شرقية، دمشق، من 17/ 12/ 2016 إلى 15/ 1/ 2017. الذي كنت، ربما، أول من أعلن عنه على صفحات الفيسبوك، مرفقاً مع بطاقة دعوته المطلوسة بالسواد، ما لم أفكر به، عندما كتبته، لا كثيراً ولا قليلاً، لأنه كان تعبيراً مباشراً عن شعوري، ليس غير: «ذلك الإصرار على الأمل».

ليس بمناسبة المعرض، فقد كتب عنه الكثيرون، وبعض ما كُتب، أعترف، لن أستطيع مجاراته في روعته وصدقه. رغم شعوري أنه، ربما أنا بالذات، لدي ما لم يقله أحد، أو على الأقل، ما لم يقله أحد بوضوح كافٍ، فلقد خرجت لتوي، هذا إن كنت قد خرجت حقاً، من مجابهة مشابهة، لما جوبه به يوسف، وجرت مساءلته عنه، ولم ينقص سوى إصدار مذكرة استدعاء، بحقه، والتحقيق معه، بتهمة اختياره هذا المكان وهذا التوقيت لإقامة معرضه، وإن لست، كما المعروف عني وعنه، بجلادة يوسف وصلابته.

ليس بمناسبة معرض يوسف، فلطالما رغبت أن أخصّ تجربته، بجهد نقدي حقيقي، كنت على وشك البدء به، بعد أن أرسل لي ما

ينقصني من نشرات وأدلة معارض لم يُتَح لي حضورها، فإذ بنا جميعاً في قلب العاصفة، العاصفة التي ذابت نظراتنا في ذلك الأفق المعتم، ونحن نرقبها ونرنو إليها، وإذ بنا جميعاً ندع كل ما في أيدينا يسقط أرضاً، ونرفعها مهلِّلين لطائر البرق، الذي كان يعبر سماء لوحات يوسف كلها. ذلك أني، رغم المسافات التي كانت تفصل بيننا دائماً، رافقت نمو تجربة يوسف وتطورها، من مرسمه الضيق في باب شرقي، أوائل السبعينيات، إلى معرضه الشخصي في صالة نقابة الفنون في دمشق 1978، الذي أخذت إجازة 48 ساعة، خلال خدمتي الاحتياطية في أحد المواقع الحدودية، وقدمت لحضوره، وصولاً إلى يوم اعتقالي أنا وأخي رفعت، في 18/ 10/ 1987، وأعمال يوسف مكدّسة في علّيّة مكتبتنا، استعداداً لعرضها في اللاذقية، العرض الذي لم يحدث! ما حدث، ما حدث الآن، أنه، خطر لي أن أضع لوحة «أم الشهيد» على واجهة حسابي الفيسبوكي، وأكتب عنها شيئاً، فإذ بي أقوم بقراءة أولية مختصرة لها، وجدت من المناسب أن أكملها هنا بنَصٍّ خاص بها.

حيث المهارة ما زالت فناً:

«أم الشهيد» فحم على ورق / 100–100سم/ 2012، واحدة من لوحتين أطلق عليهما يوسف عبدلكي الاسم ذاته، من بين رسوم معرضه ما قبل الأخير، الذي أقيم، في بيروت أولاً، ثم نقل إلى باريس، ثانياً، وذلك خلال شهري آذار ونيسان 2014، ثم، ثالثاً، لم يسمح له بعرضه في بلده. تصوروا، ما زال هناك من يخاف الرسوم! ورغم أنها، نسبياً، ليست من أعمال يوسف الكبيرة، بالمقارنة مع أعمال يصل عرضها، أو طولها، رغم أنها ورقية، إلى ثلاثة أمتار، أو حتى أربعة، وأحياناً أكثر، فهي، أيضاً، تحتاج إلى أن تقف على مسافة منها، وتنظر

إليها عن بعد، نظرة واسعة شاملة، بقدر حاجتك إلى أن تقترب منها، بالقدر الذي يُسمح لك، وتدقق النظر في أجزائها وتفاصيلها. رسام مسامات هو، يعتني عناية قصوى بكل سنتيمتر مربّع في لوحته، العناية الزائدة التي تبدأ بالشخوص والأشكال التي عموماً ما تشغل وسط اللوحة، إلى خطوط الحواف التي يحددها ضوء، ضوء ينبع من جهة ما غامضة، دون رغبه منه بتبديد العتمة التي تعمّ لوحات يوسف منذ بداية البداية، إلى نسيج السطوح، الذي يتناوب على رسمه رأس عود الفحم وبطنه، وبعده حرف الممحاة. نعم، ذلك الضوء الموزع على رأس المسمار، ذلك اللمعان على أطراف النبتة، تلك الأسلاك التي تلف حول الجمجمة، جميعها مرسومة، ليس بالقلم، بل بالممحاة. مقدّماً تلك الأمثولة الفنية المعاكسة لمفهوم الفن الحديث، وربما الفن عموماً، منذ ما يقارب القرن، هي أن المهارة «القدرة» في الرسم ما زالت فناً.

ماذا تخفي الحراشف اللامعة؟

الرسامون عموماً، بشر قُساة، وخاصة رسامي الخط، «اللون بقعة متلاشية، عاطفة مفلوشة، إذا لم يحددها خط»، فما بالك برسامي الخط التعبيريين، الحفارين والطباعين بالحبر القوي، ورسامي الفحم والرصاص الغامق. منذ البداية، ظهرت القسوة في أعمال يوسف؛ الأحصنة ذات العروق النافرة، والمعتقلون نصف العراة بقيودهم، وذلك الوحش: خليط الثور والخنزير والدبابة، الذي أخافني في معرضه الأول وكرهته. إلّا أنه كان هناك، أيضاً: الهتاف، والانفعال، والألم. أمّا في الثمانينيات، فقد انصبت أعمال «يوسف»، وكأن هذا كان استجابة لمبادئه السياسية، على رسم الأوساط الشعبية، ما في بيوت

أناس متوسطي الحال، أزواج وعائلات من بيئة ريفية، أو التجمعات السكنية حول المدن، حيث اغتنت المفردات، وربما اكتظّت، مع تنوع غير مسبوق في معالجة المساحات، أتاحتها التقنيات المبتكرة للحفر على الزنك. أمّا في التسعينيات، التي استخدم فيها يوسف العديد من التقنيات، ومنها الرسم بالباستيل، فقد احتلها جنرالات ورجال سلطة ومال، وخليلاتهم، حيث السخرية هي الشعور المسيطر. بعد هذا جاءت الطبيعة الصامتة، لا بل يصح هنا أكثر، الطبيعة الميتة، جماجم خراف تلفّ عليها أسلاك، عصافير ميتة مع سكاكين كبيرة مغروزة بجانبها، أحذية مستعملة بسيور مفكوكة، أسماك بعيون جاحظة وأفواه فاغرة وكأنها تشهق العدم، العدم الذي كان يوسف يعلم أنه لن يخرج منه سوى بعودته إلى سوريا 2005، إلّا أن قيامة 18/ 3/ 2011، كان خليقاً بها، وكما لا نعرف من قبل، تفجير العاطفة في أعمال يوسف الكتيمة والمعتمة والقاسية، لذا استهلت أغلب المتابعات عن معرضه آنذاك، بعناوين: «يوسف عبدلكي يرسم الألم السوري»، «سوريا يوسف عبدلكي... جرح العالم»، «سوريا عبدلكي... شهداء وثكالى وطيور ذبيحة»، «فنان الثورة يروي قصص سوريا المرّة».

أعرف الابن، إنه لطفي مساعد معلم الكهرباء

لك أن تبدأ النظر من صورة الابن، تلك التي تستند على أسفل ظهر الكرسي. إنه ابن وحيد، تستطيع أن تتأكد، حيث لا صورة ولا وجود لابن آخر، في اللوحة، سواه. لم يصل إلى سن الجندية بعد، ذلك المفصل الحياتي الأصعب والمحتم في عمر الشباب السوريين، فليس هناك من أثر لتغضينة مهما كانت واهية، أو لنبت في شعر الشاربين أو اللحية. ولكن أيضاً، ليس ثمة من دليل ظاهر على طريقة استشهاده، فهو

لا يحمل سلاحاً، كما في الصور المعروفة لبقية الشهداء، هناك فقط، خصلات شعره المتطايرة، وجبينه العالي العريض، ووجنتاه اللتان يضيئهما نور، أو يشعّ منهما نور، مهما حدقت لا تستطيع أن تحدد، ونظرته، أي نظرة هذه! ليس هكذا يأخذ المراهقون صورهم، ليس بهذه الإطباقة على الفم. أتأمل الوجه جيداً، إنه يبدو أليفاً، أعرفه، يا الله، إنه لطفي، الفتى الذي جاء مع معلّم الكهرباء إلى محلّي، المعلم يتحدث معي طوال الوقت، ولطفي يعمل طوال الوقت، ثم علمت أنه... غاب.

الكرسي

ليس للجلوس هذا الكرسي، عالي الظهر، كسلّم. النحيل والمستقيم القوائم، وكأنه مرسوم بالمسطرة. المحدد بخطوط عريضة غير مجسمة، مع أنه يمكن، بحملقة أشد، ملاحظة بعض التظليل، لكن الخطوط كلها تشكل مساحات طولانية ضيقة، أغمق بقليل أو كثير من السطح. نعم، لم يرسم يوسف هذا الكرسي ليجلس عليه أحد سوى الصورة.

الأب، يوسف يرسم نفسه:

هناك، في أعلى اللوحة، صورة ثانية، أو على الأصح أكثر من نصف صورة، وكأن هذا تأكيد لغياب صاحبها. نعم، غائب آخر. نحن بشر لا نعلّق صور آبائنا، إلّا بعد رحيلهم. رجل، يرتدي طقماً وربطة عنق. كما عندما يأخذ الناس البسطاء الصور في الاستديو، استديو من؟ المصور «عبود». هذا ما حرص يوسف على كتابته في زاوية الصورة، المصور «عبود» الذي صور يوسف بشعره الذهبي الطويل، وهو في عمر السادسة. إذاً، صحيحة تلك الفكرة التي مرت في خاطري، وأنا ألمح شبهاً ما بين صورة الأب ويوسف، أن يوسف رسم نفسه.

لا تستطيع الأم النظر إلى الصورة

الأم الثكلى، أول ما لفت نظري، قدماها في أسفل زاوية اللوحة، قدماها الرقيقتان الحافيتان، إنها أم صغيرة، إذاً. ماذا تفعل؟ تجثو على ركبتيها، مسندة وجهها، الذي يكاد يطابق وجه ابنها، انظر استقامة عظمة الأنف وعرضها، التي تخفي نصفه السفلي، يداها المضمومتان والمتشابكتا الأصابع، على حافة الكرسي. إنها تصلّي، تهدس، بماذا؟ لا أصدق أن أحداً غير الله يعلم. عتم شديد تحت حاجبيها الكثيفين المنكسرين، يهبط ليملأ بالسواد عينيها، إنها لا تنظر إلى الصورة! لا ريب أنها نظرت إليها، عندما، أنزلتها من الحائط، ووضعتها على الكرسي أمامها، ولا ريب أنها حملقت بها طويلاً، حتى تحجرت عيناها، إلّا أنها كفّت الآن عن ذلك، ما عادت تستطيع.

اللاذقية 30/ 12/ 2016

صارت وصارت

رحل صديق لي، بل أصدقاء عديدون لي رحلوا.

«غ.س» كما النهر إله يستحق العبادة، لكنه ناقل سيّئ للبضائع، يقول الشاعر ت.س.إليوت، كان «غ.س» صديقاً رائعاً لا يُنسى، لكنه خازن سيّئ للمشروبات الروحية. كنا نودع عنده الفائض من الروحانيات المعبأة في زجاجات، ثم نعود ونبحث عنها، الأسبوع القادم، هو نفسه لا يدري أين ذهبت! نبّهني، أكثر من مرة: «صحيح أنك تصغرني سناً، ولكن ذلك ليس بأكثر من خمس سنوات». رحل منذ خمس سنوات. وذلك بعد أن رأى ما كان يراهن الجميع، على أنه لا محالة آتٍ، وأتى.

«و.أ» الأرمني، السوري، الشيوعي. عندما واجهت صديقه «حنا مينه» برأيه المخالف لرأيه 180 درجة، حول ما يجري في سوريا، تفسيراً وموقفاً، أجابني: «للأسف، بقي «و.أ» شيوعياً كلاسيكياً». فما كان مني إلّا أن صحت: «إذا كان الشيوعيون الكلاسيكيون هكذا حقّاً، فيا للروعة، ويا لحسن الحظ!».

«ب.ي» عبَر حاجته إلى زوجة وأبناء، خلال إقامته «الإجبارية – الاختيارية» الطويلة في الزنزانة، مكتفياً بأولاد أخته وأخيه أبناء له.

قلت: «الاختيارية»، لأنه قال لأبيه الذي جاء ليخرجه من السجن، بشرط تقديمه مناشدة شخصية: «الحرية حلوة يا بيي، بس الكرامة أحلى». بعد ذلك خالف رأي رفاقه في قضية التسلّح والتدخّل الخارجي، ورحل مبتسماً، رغم معاناته من مرض عضال، دون أن يفقد، للحظة واحدة، إيمانه العميق بأن سوريا ستعبر بجرحها وألمها، إلى الضفّة الحلم.

د. «ب.ز» عاش ليكتب. كتب العشرات من الكتب القانونية والفكرية عن أهم القضايا التي تواجه العروبة والإسلام. طبع أغلبها على حسابه الخاص. ومن الكتب السبعة التي قدمها لي جميعها بالإهداء ذاته: «إلى الأخ العزيز الفاضل...». كان أوّل وآخر ما قرأت، أصغرها حجماً وأشدّها تشويقاً: «ثورة منطقة الحفّة – صهيون سابقاً – على المستعمر الفرنسي 1918»، الذي صدر في نهاية 2011. في الوقت الذي كان أهل «صهيون» على عادتهم، كما وصفهم بنفسه، كخلاصة، في نهاية الكتاب: «فالصهيوني لا يرى أحداً فوقه، ولا يسلّم بإرادة تفرض عليه».

ثم «م.ن.س» أشدّنا عاطفية، وأوسعنا صدراً، وأقلّنا تفاؤلاً. «مخاض طويل» كانت جملته المفضلة. أصرّ، قبل وفاته بأيام، على دعوتنا جميعاً إلى بيته، وسماع آرائنا حول مستقبل سوريا، رغبة منه أن يطمئن لمصير وطنه وأحفاده بعد رحيله.

وأخيراً وليس آخراً، «ع.ق.هـ» تنبّأ أنه مهما عاش، سيموت واقفاً. حصل هذا، في مكتبه، الساعة الثامنة مساء 21/ 5/ 2015، قام عن كرسيه، أدخل ساعده الأيمن في كمّ سترته، ونظر إلى السقف تلك النظرة، وأعطى الروح. إلّا أن تنبّؤه الذي لم يتحقّق، هو أنه سيحيا حتى يرى الشعب السوري قد حقّق حلمه بالعدالة، التي كانت أكثر ما يلحّ عليه، بكونه رجل إدارة وقانون. الأمر الذي تبيّن له، قبل رحيله عن عمر

84 سنة، أن الأمور باتت أشدّ تعقيداً من أن يكحّل عينيه برؤية نهايتها المشتهاة، وتحوّلت حكمته من: «مصبّحة مسّاية»، التي كان يجيبنا مفسّراً لها: «هيك حاسسني قلبي»، إلى: «صارت وصارت». محافظاً على تفاؤله الذي لم يتزعزع حتى آخر لحظة.

«صارت وصارت»... عبارة كهذه، بالتأكيد، أشد منطقية وواقعية من عبارتي: «ليتها لم تكن»، التي كان من الصعب بالنسبة لي أن أقولها أمام «ع.ق.هـ»، وربما من المستحيل، صدِّقوا، أن أكتبها وأنشرها وهو ما زال حيّاً، وأنا أذكر كيف اغرورقت عيناه بالدموع، وهو ينظر إلى أولئك الشباب، لا يفرّق بينهم جنس أو دين أو طائفة، عند تقاطع «العلبي»، يهتفون ويغنون ويرقصون. «بركان وتفجّر» كان يقول، مفسّراً ما يحدث بقوانين الطبيعة، كعادته. وعندما سألته صديقة ذات شأن، مستنكرة: «من أين جاء كلّ هذا الحقد؟»، كان جوابه سؤالاً أشدّ استنكاراً: «أحقاً، لا تعرفين؟».

«صارت وصارت». ولا بدّ أن في آخر هذا النفق المظلم فتحة يدخل منها الضوء، تلك طبيعة أنفاق كهذا. ولا بدّ لثالوث الدمار والموت والتشرد، أن يتوقف، وآن له أن يتوقف، وسيتوقف، فلكل شيء نهاية، ولا بدّ أن ثمة محطة أخيرة لهذه السكّة الحديدة الطويلة الدامية، التي يمضي عليها القطار السوري المحطم بلا هوادة إلى لا أحد يعلم أين. بلاد وشعوب كثيرة داهمتها نكبات ومآسٍ إنسانية كبيرة، ربما أقلّ وربما أكثر، غير أنها عبرتها، وعادت لبناء حياتها ومستقبلها من جديد. حروب عالمية كلّفت البشرية أفدح الخسائر، في العمران وفي الأرواح، صارت ذكرى من الماضي، الحياة لا تتوقّف، ولا حدّ لقدرة الشعوب على النهوض، والاندفاع إلى حياة أفضل، ولا أحد يماري أن السوريين، أكثر من أي يوم مضى، ورغم كلّ ما جرى،

أو، بالأصح، بعد كلّ ما جرى، بعد كلّ هذه التضحيات والآلام التي قدّموها وعانوها جميعاً، يستحقّون الحياة الحرة الكريمة العادلة، في سوريا الحرة الكريمة العادلة.

وكأنه كان محتّماً علينا نحن السوريين، جميعنا، عامة ونخباً، من بقي ومن غادر، موالين كنا أم معارضين أم صامتين، المرور في هذا النفق. وكأنه كان قدرنا اختبار هذه المحنة، فلم يساعدنا أحد، لا في تجنّبها، ولا في الحدّ من مآسيها، بل ربما فعلوا العكس، ساقونا إلى أسوأ نهاياتها، وأجهدوا أنفسهم في الدفع بنا إلى شفير هاويتها. وكأنّ هناك دروساً، كان لا بدّ لنا أن نتعلمها، لنحقق مواطنتنا كسوريين، ووحدتنا كشعب وكوطن، وكينونتنا كبشر. وكما أصدّق أننا جميعنا تعلمنا هذه الدروس المرة، أو لأكن أكثر واقعية، بدأنا نستوعبها ونتعلمها، أصدّق أننا سنعبر محنتنا القاسية حتى خلاصنا، سنعبر نفقنا المظلم حتى نهايته، حتى تلك الفتحة التي سنخرج منها إلى حقول الضوء.

رحل لي أصدقاء عديدون، رحلوا بطرق عديدة، ولكن، أيضاً، بقي لي أصدقاء عديدون، بل بقي ملايين السوريين، بقوا لأنهم، لم يبطلوا التنفس، لم يبطلوا العيش، لم يبطلوا الأمل. وما داموا ببقائهم، قد ربطوا مصيرهم بمصير وطنهم، فهم يحتاجون إلى هذا الأمل، ويحتاجون إلى من يبثه فيهم، لا من يطعنه في ظهره وبطنه ورقبته، مبرراً بأنه يريد فقط أن يرى دمه، كم مرّة عليّ أن أقول: «السوريون جميعهم، يحيون في انتظار الفجر»؟

اللاذقية 6/ 1/ 2017

من أين يأتي المستقبل إلى سوريا؟
«ما يشبه الملف»

1- سؤال الأسئلة

عندما نشرت، بعد تردّد دام ما يقارب السنة، مقالتي التهمة: «ليتها لم تكن»، واجهتني انتقادات، وتهجمات، وإدانات، من قبل أصدقاء تربطني بهم صداقات حميمة لعقود من السنين، وآخرين أعرفهم بمجرد الاسم، وبعض ممن لا أعرفهم ولا يعرفونني، لا بالاسم ولا بالموقف، ولا بالنتاج، رددت عليها، على صفحاتهم، مبرراً ومفسراً، حتى أني أرسلت رسائل شخصية لعدد منهم، على أثرها قدّم بعضهم اعتذاراتهم، وطوينا القصة دون أي ضغينة، بل، بالعكس، بمشاعر من الود والصداقة، وبعضهم أوغلوا في الإساءة، دون أي اعتبار لما حاولت جاهداً أن أبيّنه وأوضحه لهم، الأمر الذي أوحى إلي أن من بينهم، أقول هذا وأعرف مقدار سوء الظن فيه، من هم مدفوعون، أو لأقل: مدفوع لهم، من قبل جهة ما، أو جهات ما، لأن هناك تدافعاً من قبل اللاعبين على الساحة السورية، وصار من الصعب التخمين جهة ما بالتحديد، للإساءة وتشويه سمعة شخصيات سورية معروفة، ولا داعي الآن لإيراد الأسماء، على مدى عقود عديدة مضت، بمواقفها الوطنية

والمبدئية والنضالية. ثم إني ألحقت «ليتها لم تكن» الأولى بـ «ليتها لم تكن – رد على ردود الأقوال» الثانية، رغم أني نُصحت، من قبل الكثيرين من الأصدقاء، ألّا أبالي ولا أردّ. غير أني، وهذا ما حاولت، وما أحاول الآن تأكيده، أردّ لأني أحترم وأقدّر الآخرين، كائنين من كانوا، حتى أولئك، الذين أشرت إليهم سابقاً، وخاصة من كان لي معرفة سابقاً به. فلست من ذلك النوع المتعالي والمتغطرس من البشر، كما لست من النوع المعاند والمماحك، المنتشر كالفطر على مواقع التواصل الاجتماعي، ليثبت صوابية رأيه، ولو كره الكارهون! ذلك أني، وهذا ما ختمت به مقالتي الثانية، أتمنى لو حقاً، وليس هذا نابعاً من موقفي السياسي، ولا من مصالحي الشخصية، ولا من، أفضل، أو أسوأ، ولكن بالتأكيد أفدح، قرار اتخذته في حياتي، وهو البقاء داخل سوريا، بينما الجميع يولي الأدبار منها، أقول، أتمنى حقاً لو أنه رائع أنها كانت، ورائع أنها أوصلتنا إلى هنا!

الفظيع، بالمعاني المتعددة والغنية التي كان المفكر الراحل «إلياس مرقص» يستخدم بها هذه الكلمة، أن من بين كل الردود التي قرأتها، لم يبيّن لي أحد من المعترضين، لماذا «ليتها لم تكن» خاطئة، وكيف أن ما آلت إليه الأمور من قتل ودمار وتشريد، هو في مصلحة الشعب السوري، أو حتى في عرفهم لمصلحة «الثورة» السورية! الأمر الذي دفعني، لأن أقوم بنفسي، بالبحث والمتابعة لأي مقال أو برنامج أو مقابلة تلفزيونية، حول مستقبل سوريا، لا بل عمدت إلى أن يكون هذا السؤال محور النقاش في جلستين مختلفتين مع أصدقائي المهتمين بالشأن العام، كما أرسلته بشكل شخصي لكتّاب وباحثين في الشأن السوري، والحقيقة أني لم أحصل على إجابات محددة كما كنت أمنّي نفسي عن سؤالي هذا، الذي استهل أغلبهم أجوبتهم عليه، بأنه السؤال

الأصعب، وبأنه سؤال كل الأسئلة. والحقيقة الثانية، أني بدوت، أنا من عُيّرت بكوني صاحب «ليتها لم تكن»، وكأنني أقلهم تشاؤماً، ذلك أن أجوبتهم، على تنوعها، تكاد تسمح لي أن أقول: «إني أشدهم تفاؤلاً على الإطلاق»!

كما أن لا أحد منهم بات يعوّل، على الأقل بشكل مباشر، على «الثورة»، تلك الكلمة التي رفعها العديدون، إلى مستوى المقدّس والمحرّم، والتي كانوا، في ما سبق، يضعونها حيث يجب أن يضعوا كلمة «شعب» أو «سوريا»، ولا على «الحرب» التي بات أغلبهم يرفض رفضاً قاطعاً ربطها بمطالب الشعب السوري، بالحرية والكرامة والعدل، الذي ما عاد له أي مصلحة في استمرارها. جميع من قرأت لهم وسمعتهم وأرسلوا لي أجوبة، يراهنون على وقائع ومعطيات أخرى، مختلفة عن رهانات السلاح والنصر العسكري، بغضّ النظر عمن هو الطرف المنتصر.

مفضّلاً ألّا أذكر أسماء من أخذت منهم، ومن أجابوني عن سؤالي. أولاً، لأن أفكارهم وآراءهم هي المهم، بغضّ النظر عن مكانتهم ودورهم. وثانياً، لأنه لا شيء شائكاً ودبقاً معاً بقدر الأسماء، حتى ولو اكتفيت بذكر الأحرف الأولى منها، كما حصل معي في آخر مقالة نشرتها، عندما اتصلت بي ابنة أحد أصدقائي الراحلين، واضعاً الأحرف الأولى من أسمائهم بين قوسين، وهي مذعورة، ولسان حالها: «كيف يا منذر تذكر هذا عن أبي، نسيت أن له أولاداً وأحفاداً، والله لم أنم البارحة الليل كله وأنا أرتجف». وثالثاً، إني قمت بتوصيف مختصر لأغلبهم، بما رأيت أنه يخدم السياق والمعنى، لا بدّ أنه سيساعد، من يهمه الأمر، على تخمين من هم.

2- الجانب المشرق

«....» أحد الذين صارحوني بأنهم لم يحبوا مقالي - وكأنني أنا أحبه! - قرأت له مقالاً بعنوان لافت، يصبّ تماماً في ما أبحث عنه: «تفاؤل بوعي قادم». إذاً، ومن العنوان، لا تفاؤل بثورة ولا بمعارضة ولا بحرب، وإن كانت «الثورة - الحرب»، وما أدّت إليه من نتائج، ربما، بعُرفه، هي التي أتت بهذا الوعي. وهو يشرح تفاؤله قائلاً:

«تشكَّلت طبقةٌ من الوعي السياسي عند فئةٍ لا يُستهان بها من الشباب والشابّات، وخصوصاً في سوريا، حيث المصيرُ الأكثر مأساوية، والتحوّل الأكثر تعذّراً ودمويَّة». ليتابع ويقول: «هذه المنطقة في التفكير، أعرف أنها ضيّقة، ولكنها موجودة، وهو أمر يدعو لبعض التفاؤل في هذه المهازل التي تحصل».

ورغم رغبتي بالتوقف عند وصفه المصير السوري بأنه الأكثر مأسوية، والأكثر تعذراً ودموية، لأتساءل: لماذا، إذاً، لم ترُق له، ولأمثاله ممن يستخدمون ذات التوصيفات، عبارة «ليتها لم تكن»؟ إلّا أني سأغض النظر الآن، وأذهب إلى موافقته على وجود منطقة التفكير الضيقة هذه، وعلى أنها تدعو لبعض التفاؤل، وليس الكثير طبعاً، ولكن من الصعب علي، المضي إلى تقبل كلمة «المهازل» في وصف ما يحصل. ما يحصل هو النكبات والمآسي، أعلم أنه لا يقصد المعنى الذي آخذها إليه، ولكن علينا أن نكون صادقين ونسمي الأشياء بأسمائها، فهي لم تتوقف عن صراخها في وجوهنا جميعنا. ويخلص صديقي في النهاية إلى ما يشبه العزاء بقوله: «أقلّ الأمكنة عدالة، فيها أكثر الناس قدرة على تحسُّس العدالة».

الأمر الذي أرى أنه تفسير لما حصل، أكثر منه توقعاً أو تبصراً في ما

سيأتي، فهو يعيدنا إلى نقطة الانطلاق الأولى، نقطة الصفر التي بدأت منها القيامة السورية بقضّها وقضيضها.

«.....» صديق آخر ممن أرسلت لهم سؤالي، وكان قد غادر البلد، مع عائلته، منذ فترة وجيزة، هو الذي أمضى 16 سنة و3 أشهر و 16 يوماً، متنقلاً في الفنادق الوطنية، من المستوى غير المصنف، إلى مستوى الخمس نجوم وما فوق، إلّا أن هذا لم يفقده يوماً اعتداله ورجاحة تفكيره وحلمه، وهو برأيي اليوم من أهم المتابعين للشأن السوري، وقد أجابني مباشرة:

«لا أرى للسوريين مستقبلاً مشرقاً، عن قريب، على الأقل. أرى أن السوريين اشتروا بلدهم بمآسيهم التي عاشوها. بمعنى إن ما جرى من دمار وموت في سوريا كشف للسوريين على ضفتي الصراع، عري النظام من الكساء الوطني التقدمي الذي طالما باع واشترى فيه، وانسداد أفق الإسلام السياسي بكل أشكاله ومضامينه، هذا يعني أن سوريا عادت للسوريين – معنوياً – الآن، وهذا تمهيد مهم لعودتها لهم فعلياً. وذلك برأيي الجانب المشرق الوحيد في القصة».

إذاً، الجانب المشرق الوحيد، الذي يراه صديقي في القصة كلها، نعم.. القصة، ولا أريد أن أعود وأصفها بمسمياتها الحقيقية، هو أنها عرّت وكشفت! أمّا أن السوريين اشتروا بلدهم بمآسيهم، فلا أدري ممن؟ أمن التاريخ؟ أو من العالم.. ضمير العالم؟ كما لا أدري كيف سيحصلون عليها بعد أن دفعوا هذا الثمن الباهظ مقابلاً لها.

3- نحن

لا أدري أيّ عزاء، أي تعويض، أي مكافأة، يحاول البعض تقديمها للسوريين مقابل الأثمان العالية التي دفعوها، فالصحافي والمحلل

السياسي اللبناني «.....» المعروف، منذ عقود، بمواقفه المناهضة للنظام السوري، ومناصرته للثورة السورية منذ، وربما قبل، بدايتها، إلّا أنه بات معروفاً أيضاً بحسه المأسوي الزائد، يأخذ، ككثيرين من الكتاب الذين قرأت لهم، بفكرة «التعرية» هذه؛ أي كشف حقيقة الطرف الآخر. وكشف الحقيقة هنا، بمعنى كشف خداع، وسقوط أقنعة، فهو يكتب في بداية مقاله «الثورة السوريّة التي نظّفت وانهزمت»:

«فالثورة السوريّة مثلاً، بوصفها أكثر شقيقاتها دراميّةً وأكلافاً وتأثيراً في محيطها، يكفيها أنّها نظّفت التاريخ المحلّيّ، وجزئيّاً العربيّ، الذي سبق أن خطّه الدجل والتدليس».

واسمحوا لي هنا بالتدقيق، والتوقف عند بعض الكلمات، كما يفترض بنا عند قراءة مقال لصحافي، أو لمحلل سياسي، بهذه المكانة، لأقول: بالتأكيد لا يكفي «الثورة» السورية بتكاليفها الإنسانية غير المسبوقة، أنها نظفت! «نظفت» ليست المقابل الكافي، أو حتى الأقل الأقل كفاية، لكل الثمن الذي دفع. ثم «نظفت التاريخ المحلي» من ماذا؟ من «الدجل والتدليس»! وليس من «النظام الاستبدادي بكل رموزه ومرتكزاته»، كما كانت تطالب حتى المعارضة الداخلية «المدجنة»، على حد تعبير البعض، الذي يحلو له مهاجمتها أكثر من مهاجمة النظام نفسه، ولكن السؤال، سؤالي الذي ربما لا يحتاج إلى إجابة: «من قال إن هذا التاريخ المحلي لم يكن مكشوفاً ومفضوحاً في الماضي، كما الآن في الحاضر، وربما أكثر؟ فما بالك بالتاريخ العربي، كلياً وليس جزئياً، ذلك الشريط الطويل المهترئ من الهزائم والنكبات و.. المهازل!». إلّا أن «.....» ينهي مقاله بعبرة أخلاقية أخرى، وكأننا جميعنا عندما نصل إلى هذه النقطة، نجد أنفسنا نلوذ بالمثل والأخلاقيات:

«أنّ الهزيمة لا تهزم الأمل، وأنّ الكذب لا يحجب الحقيقة إلى ما لا نهاية، وأنّ العبوديّة لن يكون لها مستقبل، هذا إذا كان ثمّة مستقبل!». مع أنه قد قال لتوّه إن الثورة السورية، رغم هزيمتها، قد نظفت التاريخ المحلي من الدجل والتدليس، وهي الفكرة الرئيسية في كل المقال، أمّا استدراكه، ما إذا كان ثمّة مستقبل، فبالتأكيد هناك دائماً مستقبل، أي سؤال هذا!

«.....» المعارض الأشد صلابة، بالمقارنة مع صفة «الرخو»، التي أطلقها البعض علي وعلى أمثالي من جماعة «ليتها لم تكن»، والذي يصدر صفحته على الفيسبوك بعبارة، صدمت البعض: «العدل ولو انهار العالم»، والتي بجوهرها صيغة أخرى لمقولة ابن خلدون: «العدل أساس الملك»، فالملك حينها هو العالم اليوم. والذي من معرفتي به، لا أراه إلّا الأشد ألماً، أجابني: «المستقبل، لا يأتي من أي مكان يا صديقي. جوهر مشروع الأبد المتجه نحو الانتصار هو إدامة الحاضر ومنع المستقبل من القدوم. انفتحت أبواب الماضي لأن النظام السياسي في البلد قام خلال جيلَي الحرب على المستقبل. وهو يعني عملياً تكرار الشيء نفسه إلى ما لا نهاية. فرصنا في المستقبل مرهونة بوضع نقطة نهاية نهائية لمشروع الأبد، وهذا سيضعنا في وضع أفضل لمواجهة مشروع الماضي. المستقبل لا يأتي دون التخلص من المشروعين معاً».

ثم، مجيباً عن سؤالي: «من سيضع هذه النقطة، وكيف؟»، قال: «كل الدور للسوريين. المعركة تتغيّر أشكالها، ولكن تبقى مستمرة. والثقافة برأيي ميدان أساسي للصراع. وبعد قليل السياسة من جديد».

وختم بعبرة إنسانية: «أرى اليأس والأمل يمشيان معاً؛ اليائس أكثر هو من لديه أمل أكثر».

«.....» معارض سياسي تاريخي، كرّس حياته برمتها للنضال في سبيل هدف واحد، دون سواه، وأعترف أنه ليس من الحكمة ذكره هنا. كما أعترف أني خضعت، راضياً مرضياً، طوال هذه السنوات الست، لمحاسبته وأحكامه، ليس فقط على أخطائي الإملائية والإعرابية، التي يلتقطها، كما يلتقط المغناطيس الدبابيس والإبر داخل علبة الخياطة، بل على أي رأي أو فكرة سياسية، هرفت وهرطقت بها، فإذ هي، لسبب أو لآخر، بحاجة إلى تدقيق ومراجعة تاريخية شاملة، أجابني: «هذا سؤال الأسئلة، يا صديقي. ليس للسوريين مستقبل يرتاحون إليه إلّا من خلال تحفيز الروح الوطنية السورية كهوية وطنية جامعة في مواجهة كل الهويات الجزئية ما قبل الوطنية، التي جرى إنعاشها وإيقاظها لتكون في خدمة الاستبداد وفي ديمومته أيضاً. ليس للسوريين مدخل آخر إلى مستقبل آمن سوى هذا، وفي ما عدا ذلك، فعلى سوريا والسوريين السلام»!

«.....» معارض آخر من نوع آخر، ليس معارضة النظام فحسب، فهذا بالنسبة له، أمر لا يحتاج منه تأكيده، فهو أيضاً ممن دفعوا سنين عديدة من أعمارهم في زنازينه، وتحت وطأة ملاحقاته ومساءلاته، بل أيضاً معارضة المعارضة، في الوسائل والطرق التي انتهجتها في التعامل مع الثورة، أو ما يحمل جنين الثورة، على حد تعبيره، والتي أدت، بالمشاركة مع عوامل كثيرة، لا يمكن لأحد نكرانها، إلى ما برأيه، إضاعة هذه الفرصة التاريخية على سوريا والشعب السوري. قرأت له الجواب التالي:

«كيف أرى المستقبل؟ الوضع الحالي بالغ السوء، كارثي، سوداوي، مأساوي، هذه هي الكلمات التي يجدر بنا استخدامها عند وصفه. لكنني لا أظنّ، حتى بالتحليل «العلمي» و«النظري»، أن دماء

السوريين ستذهب هدراً. هناك كثير من تجارب الشعوب في التاريخ، مثل ثورات 1848 في أوروبا، أُغرِقت في الدماء وأخفقت وهُزمت، لكن المنتصر اضطر لأن يأخذ بالحسبان مطالب الثّوار.

سوف يصعب كثيراً في القادم من السنوات أن يكتب أحد في دستوره أنّه لا يقبل بتداول السلطة. سوف يصعب كثيراً أن تعتدي على حقوق الناس وحرياتهم الأساسية بالشكل الذي كان يُعتدى فيه على حرياتنا وحقوقنا.

لا أعلم التعرجات التاريخية التي سيمرّ فيها حصول مثل هذا الشيء، أظنّه سيحصل بفضل ما سال من دماء على هذا الطريق، وما سال من آلام الناس الذين فروا وهربوا، وبفضل حتى ما هو سلبي من أخطاء ارتكبتها القوى التي ادّعت المعارضة.

أظنّ التاريخ رغم كل التعرجات التي يمر فيها والآلام التي تطفو على سطح، لن يقبل أن يسير إلى الخلف، لا على المستوى المحلي ولا على المستوى الأشمل».

أمّا الكاتبة «هيفاء بيطار»، واسمحوا لي بذكر كامل اسمها، هذه المرة، التي بعد نشرها لمقالها «العودة إلى سوريا»، وقد أرفقوه بكاريكاتير سياسي ثقيل العيار، لم يتوقع عودتها أحد، لكنها عادت، فقد فاجأتني بجوابها، الذي لا أريد أن أضيف إليه، أو أن أوضحه حتى بكلمة واحدة:

«**نحن**».

اللاذقية 15/ 1/ 2017

صدر من سلسلة «**شهادات سورية**»:

بمساعدة من جمعية «مبادرة من أجل سورية جديدة» ـ باريس:

1. موزاييك الحصار، عبد الوهاب عزّاوي.
2. إلى ابنتي، هنادي زحلوط.
3. بين الإله المفقود والجسد المستعاد، نبراس شحيّد.
4. كَمَن يشهد موته، محمد ديبو.
5. حكايات من هذا الزمن، دلير يوسف.
6. لم أتمدد يوماً على سكة قطار، أحمد باشا.
7. مزهرية من مجزرة، مصطفى تاج الدين الموسى.
8. غرفة تطل على الحرب، إيديت بوفييه.
9. إذا قفزت عن السياج ولم أصب بأذى، عمرو كيلاني.
10. أرض مائدة، ضحى حسن.
11. لم تنته الحكاية بعد، رؤى الإبراهيمي.
12. إكثار القليل، دارا عبد الله.

بدعم من المنظمة الأورو ـ متوسطية لدعم المدافعين عن حقوق الإنسان:

13. رسائل من سورية، وجدان ناصيف.
14. يوميات وقصائد، علي جازو.
15. انسَ دمشق، عمر يوسف سليمان.

بمساعدة من جمعية «مبادرة من أجل سورية جديدة» ـ باريس:

16. ما تبقّى من حياة، سهى زكريا.
17. لا تغمض عينيك!، د. حسّان عبّاس.
18. الدرب مسامير، منار سهران شلهوب.
19. قنديل أم هاشم المفقود، عدي الزعبي.
20. الموت كما لو كان خردة، وداد نبي.
21. مذ لم أمت، رامي العاشق.
22. كأنها قيامة، محمد صدّيق عثمان.
23. خالي الذي في قبضتهم، ملاذ الزعبي.
24. مغلقة بسبب الإصلاحات، منذر مصري.